الرحلة الجوية

في المركبة الهوائية

وهي رحلة من شرقي افريقية الى غربيها

قد باشرها ثلاثة رجال انكليز قصداً في اكتشاف

الاماكن المجهولة

منقولة عن كتاب يوليوس ڤرن الفرنسي

بقلم يوسف الياس سركيس تلميذ مدرسة الآباء اليسوعيين

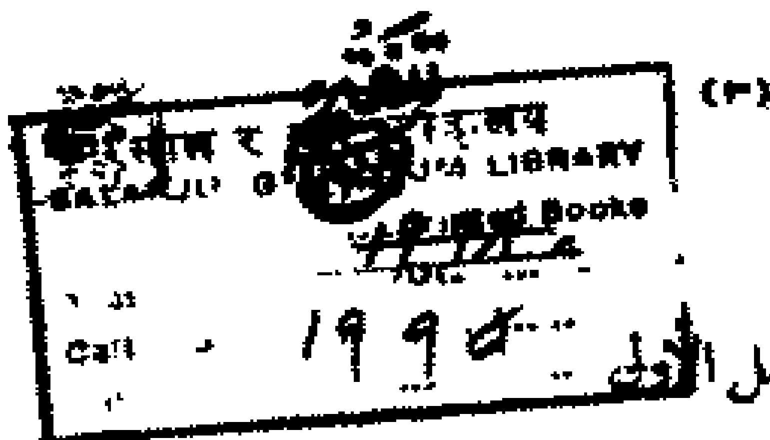
في بيروت

طبعة ثانية مصححة



مطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين

في بيروت سنة ١٨٨٤



الفصل الاول

في مقصد العلامة فرغوس ووقوع المناحة عنه

لما كان اليوم الخامس عشر من شهر كانون الثاني سنة الف وثمانمائة واثنين وستين اذاعت الصحيفة الانكليزية المعروفة باسم دالي تلغراف النبذة الآتي ذكرها

انه عن قريب ستنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون افريقية واقطارها الشاسعة من الاسرار والخبايا والكنوز والخفايا وقد طالما جدَّ في اكتشافه العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول الى تلك الاقاليم والبطاح وفي الايام السالفة كان يُعدّ ضرباً من الجنون والخزافات التشجع للرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل

فالعلامة برث رحل الى بلاد السودان في الطريق التي سلكها دنهام وكلابرتون وبحث العلامة ليونكستن عن احوال بلاد افريقية من رأس الرجاء الصالح الى بحري الزمبزي واما القبطانان برتون وسبيك فاكتشفا البحيرات العظيمة الداخلة وبذلك فتحا سبيلاً لنشر راية التمدن في تلك الاقطار حيث توجد الى الان احنحة ظلام الجهل الدامس . اما قلب افريقية فهو القطر الواقع ما بين البحيرات المومأ اليها وذلك لم يتمكن سائح من الولوج فيه وبه شوط الامال

فقد صمم العلامة صاموئيل فرغوسن احد السياح الشهيرين على ان

يفك عقدة الرحلات السابقة باقدامه على اكتشاف قلب افريقية من الشرق الى الغرب في المركبة الهوائية وبلغنا ان صعود فرغوسن الى السموات الجوية يكون من جزيرة زنجبار عند الساحل الشرقي اما نزوله الى الارض في تقدير الله سبحانه وتعالى وهو يهديه الى حيث يشاء

وقد عرضت هذه المسألة نهار البارح في الجمعية الجغرافية الملوكية في لندرة وقر رأي اعضائها على بذل الفين وخمسمائة ليرة انكليزية لمصاريف هذه الرحلة الجوية

وستطلع قراء صحيفتنا ان شاء المولى على وقائع هذه السفرة التي لم يسبق لها مثيل . اه

فلما انتشرت هذه النبذة قام الجدال على قدم وساق بهذا الخصوص وظنّ الكثيرون ان مقصد العلامة فرغوسن ضرب من الخرافة والحكايات تشبه بها بزنوم الاميركاني الشهير خزعبلاته وغرائبه المضحكة

ثم احدثت بعض الصحف تستهزئ بجمعية لندرة الجغرافية وتسخر بما جاء عن فرغوسن ورحلته الجوية في المركبة الهوائية فنهضت صحيفة الديلية واجبرت الجرنالات المذكورة على السكوت لان احد مديريها كان يعرف العلامة فرغوسن ومناقبه العجيبة وجراءته الغريبة

وما مضت برهة الا وقع رفع الشك عن اعين الناس واوعز الى معمل ليون ان يشتغل قماشا حريريا خاصا بالقبة الهوائية وامرت الحكومة الانكليزية بان تقام تحت امر فرغوسن السفينة المعروفة باسم ريزولوت ليركبها وينقل عليها لوازم سفره

وقد اذاعت من ثم الجرنالات عدة كلاما كثيرا عن هذا المشروع الغريب فمنها ما تنبأت على نجاحه وفلاحه ومنها ما هزأت بفرغوسن وارائه ومركبته ومنها

ما اشارت عليه ان يندفع بمركبته الهوائية الى الاقطار الاميركانية وذلك بنيـة الهزء والسخرية

ولا حاجة اذكر جميع اراء كتاب الجرائد بهذا الشـان بل نقول انهُ قد تشارط اقوام كثيرون بعضهم بين بعض حسب عادة الانكليز اولاً على وجود العلامة فرغوس الحقيقي او الوهمي . ثانياً على الرحلة ذاتها اذا كانت تُباشر او لا تُباشر . ثالثاً على نجاحه في مشروعه او فشلهِ . رابعاً على رجوعهِ او بقائهِ في تلك الاقطار الشاسعة واودعوا مبالغ عظيمة تنفيذاً لهذه الشروط

وكذلك رأيت الناس جميعاً من العامة والخاصة شاخصين ومحدقين الابصار بذلك الانسان العجيب الذي يتجاسر على المرور باواسط افريقية ومفاوزها الهائلة وكثيرون هم الذين اقبلوا عليه وارادوا الاشتراك معهُ في رحلتهِ فابى ان يقبل احداً دون ان يعطي سبباً عن رفضـهِ ومن المعلمين الماهرين في صنيع الالات وغيرها من ارادوا ان يفهموه عن اشكال مركباتهم الهوائيـة ليتخذها اساساً له فابى ان يصغي لاحدٍ وكان مهتماً بشغلهِ ويتأهب للرحيل

الفصل الثاني

في صاحب العلامة فرغوس وصداقتهُ معهُ على التعاقب وفي ذلك فوائد

وكان للعلامة ساموئيل فرغوس صاحب حميم مجبول على طباعهِ وخلائقهِ وينحو نحوهُ في جميع مآربهِ وهو من بلاد إسكتسيا يقال لهُ ديك كنادي وكان يقطن مدينة ليث بقرب ايدنبرج ومهنتهُ الصيد وقد جاء عنهُ انهُ كان ماهرا حاذقًا في ضرب الرصاص وخصوصاً بالسلاح المعروف بالقربينة اما قامتهُ فلا تبلغ اقل من ستة اقدام انكليزية وتلوح على وجههِ تباشير الهشاشة والبشاشة وهو على جانب عظيم من حدة الطبع ذو قوة وبأس وجرأة وجسارة وبسالة طبيعيــة وقد احمرَّ وجههُ من قِبَل حرارة الشمس وكان حاذ البصر اسود العينين

وقد كان صاحب العلامة فرغوس في البلاد الهندية لانهما كانا من فرقة عسكرية واحدة ولما كان ديك في تلك البلاد يصيد الافيال والنمورة وكان ساموئيل يبحث عن انواع النباتات والحشائش واجناس الدواب والهوام كلٌّ منهما كان ماهرًا في حرفتهِ ولم يعرض اصلًا لهذين الصاحبين ان ينشل الواحد الآخر من تهلكة ولذا كانت رابطات صحبتهما وثيقة واذا اتفق لهما ان يتفارقا قد قرّبتهما وجمعتهما سريعًا جاذبية التعطف والمحبة

وبعد رجوعهما الى لندرة كانا يتفارقان دائمًا لداعي رحلات العــلامة ساموئيل ولكن بعد رجوع هذا من السفر كان يقصد محلّ صاحبهِ ليس ليزورهُ فقط بل ليقضي عنده بعض الايام والليالي

واما ديك فكان لايحدث الّا عن الماضي وبالعكس ساموئيل فانهُ

لم يكن يتبصر الا في المستقبل فهذا ينظر الى امامه وذاك الى ورائه ولهذا السبب كنت ترى ساموئيل غائصاً دائماً بحور الهمة وكادي راتعاً على سواحل الراحة

وبعد رحلة العلامة فرغوس الى قطر الطليسة الشاسع استقرّ سنتين في لندرة ولا يتكلم قطعاً عن رحلة اخرى او مشروع غيرما عاناه في حياته فظن صاحبهُ المومأ اليهِ انهُ قد خمدت في قلبهِ نار الرغبة في ركوب مطايا الثمار وغوص البطاح والقفار لكثرة ما قصاهُ من الاسفار وكثيراً ما حثهُ على الاضراب عن مثل هذه الافكار بقوله لهُ : حسبك ما درست وسافرت وبحثت اما ساموئيل فلم يكن يجيبهُ بشيء عن هذا الكلام بل كانت تلوح على وجهه امارات التحير والتبصر ويهيم دائماً في الشغل والعمل ويسهر الليالي في ضرب حسابات وامتحان آلات لا يدركها انسان وكأنك به قد اتبع رأي الشاعر العربي حيث قال

نقدر الكد تكتسب المعالي ومن طلب العلا سهر الليالي

يغوص البحر من طلب اللآلي ويحظى بالسيادة والنوال

ومن طلب العلا من غير كدّ اضاع العمر في طلب المحال

وكان يفكر ذيك بنفسه عما عساه يتبصر به العلامة فرغوس وما الذي يشغل منهُ الافكار في الليل والنهار

فقد اطلع على هذا السرّ الخفي بقراءته نبذة الصحيفة التي اذاعت مقصد العلامة في رحلته الجوية

وبعد فروغه من تلاوة تلك الاساطير صاح وقال : اللهمَّ هل اهملت عبدك ساموئيل فان مخاخهُ قد فرغ من التعقل وتخللهُ الجنون كيف عساهُ يجوز القطار افريقية في المركبة الهوائية فلا ريب ان ما كان يتبصر به منذ

سنتين هو هذه السفرة التي لا يتصورها عقل بشر الّا اذا كان مصاباً بداء البرسام

حينئذٍ اتت اليهِ زوجتهُ وقالت لهُ : لعلَّ ذلك سرٌّ خفيٌّ دعاوٍ لا تدركها

فاجابها وقال في الحال : انكِ لا تعرفين خُلق هذا الانسان فانهُ اذا رصد وعد واذا عزم تمم ولكن ليت شعري ماذا يريد ان يعمل في طبقات الجو هل حسد النسور على طيرانها وصمم النية على الاقتداء بها فاني سابذل الجد والجهد لاصدهُ عن ضلالهِ والّا اذا تُرِكَ على حالهِ يخطر ببالهِ ان يرتقي الى طبقات القمر في ليلةٍ رائقة

ولما عقب الصباح تلك الليلة ركب ديك المركبة الحديدية النارية قاصداً مدينة لندرة وما مضت ثلاث ارباع الساعة الّا وصل الى بيت صاحبهِ العزيز فطرق الباب حتى مرات بشدةٍ وعنف فنهض فرغوسن دون ان يعرفهُ وفتح لهُ الباب بيده ولما بصر بهِ قال لهُ - أأنت ديك وما عساك تطلب في لندرة في ايام الصيد

وبعد ان تصافحا وقرأ السلام بعضهما بعضاً قال ديك : اتيت لامنع عمل جنون لا اسم لهُ

قال سامويل : وما عسى يكون هذا الجنون

قال ديك : وهل المقال صحيفة دالي تلغراف صحة عن رحلتك الجوية

قال سامويل : وهذا تبي فهالك واعرف انها قليلة التعصب . إجلس هنا لاطلعك على حقيقة الامر

قال ديك : وكيف اجلس قبل ان تخبرني ان كنت على عزم في مباشرة هذه السفرة

قال ساموئيل : نعم يا خليلي واني متأهب للسفر والحاجات قد . .

فقاطعه ديك وقال : اين هذه الحاجات لاقطعها اربا والقيها خارجا فتذريها الريح كالهباء المنثور

وفي الحقيقة تلاعبت وقتئذ على محيا ديك اطوار الكدر والحمية

قال ساموئيل : مهلاً مهلاً يا صاحبي لو كنت عالماً بمقاصدي ومآربي لما كنت حميت وحنقت

قال ديك : وما هذه المقاصد والنوايا

فغير ساموئيل الحديث بقوله : لولا تراكم الاشغال عليَّ لكنت اطلعتك على كل ما يختص برحلتي

قال ديك : وما حاجتي اليه

قال ساموئيل : لاني مصمم النية على ان اخذك معي في ركبتي

فلما سمع ديك هذا الكلام قفز قفزة الغلام وقال : لعمرك وهل ارضى بان اكون محبوساً واياك في منزل بيت لحم (وهو منزل المجانين في لندرة)

فقال ساموئيل : لو اصغت لي سمعاً عشر دقائق لشكرت لي معروفي على اختياري اياك دون غيرك لمرافقتي

قال ديك : هب اني ابيت الذهاب فماذا تعمل

قال ساموئيل : ولن تعمل ذلك

قال ديك : وان عملت

قال ساموئيل : عند ذلك سأنطلق وحدي

قال ديك : هات لنا لنرى حديثك لعلّ فيه ما يُقنعني

قال ساموئيل قم نتحدث يا صاح ونحن على مائدة الفطور وبعد ان وصلا الى المائدة وجلسا متقابلين قال ديك : لعمري كيفما قلبتُ مقصدك

وجدته ضرباً من الشجاعة والرجال واراه نوعاً من الخبال وضرباً من كل تعقل والفرار

قال ساموئيل : سنرى ذلك عند الامتحان اذ عند الامتحان يُكرم المرء او يُهان

قال ديك : لله درك كيف تهون الامر والواجب عليك عدم الامتهان

قال ساموئيل : ما ترى يعني

قال ديك : هل يخفى عليك ما سيحيق بك من المصاعب والاخطار والمهالك

قال ساموئيل : اما المصاعب فيجب على الانسان الظفر بها واما الاخطار فمن رآه تحاشى عنها ويتنزه وقد جاء ان زوايا الدنيا مشحونة بالرزايا واذا جلستَ على المائدة واردت تناول الطعام فلا يخلو الامر من الخطر فعلينا ان ننظر الى ما سيجري كانهُ جرى ونعتبر المستقبل كأنهُ حاضر لان المستقبل ليس الّا بحاضرٍ مقبل

قال ديك : وهذا قليل لديك أمثالك ممن يتكلون على القدر

قال ساموئيل . نعم ولكن على الوجه الحسن . فليس لنا ان نهتم عما أُعدّ لنا من النصيب بل الخليق بنا ان نتذكر المثل الانكليزي القائل : من خُلق ليُشنَق لن يُغرَق

فاجاب ديك لذلك المقال بما يطول شرحهُ ويضيق بنا المجال لذكره وبعد ان فرغ من القيل والقال والتنازع والجدال قال واذا كان لا بدّ من الترحال فلمَ لا تسير بالطريق التي سلكها الرجال

قال ساموئيل : أتسألني لماذا لا اسير في الطريق التي سلكها المسافرون من قبلي وانت عالمٌ ان جميع السياح الذين قصدوا بطون افريقية دهمت

مسـاعيهم هدرًا وهلكوا اشر الهلكات وأُصيبوا بامر الرزايا والآفات فقد ذُبح منغو بَرك عند نهر النيجر وقد فوجل في معاوز واداي الشاسعة ومات اوديني في مُرزُق وكلابرتون في سكاتو وتقطع مران الفرنسي اربًا وقُتل لايلك من التوارج وذُبح المسيو ريتشي سنة ١٨٦٠ . فهلك جميع هؤلاء لانهُ ضربٌ من المحال ان يتحمل المرء طويلاً الجوع والعطش والمشاق والامراض وان يبارح ويبارح الوحوش الكاسرة والاقوام المتوحشين البرابرة فما لم يتم طريقة عسى ان يتم طريقة احرى وحيث لهُ يمتنع المرور في وسط تلك الاقطـار وجب علينا ان نمرّ من فوقهـا

قال ديك : والحالة هذه فنمرّ من فوقهـا طائرين

قال سامويل : وما لي ان اخشى وارتاب وقد رتبت وهيأت جميع الاسباب فاني جهزت مركبتي الهوائية بنوع لا اخشى بهِ السقوط واذا فرضـا وسقطت المركبة فاتمم الرحلة على سنة من سبقني في ذلك ولكني واثق انهُ لجهة نظامها وترتيبها لا تسقط ولا تنهار

قال ديك : كلا يا صاحبي لا تثقنَّ بهذه القبة الهوائية

قال سامويل : كن على بصيرة اني بعونهِ تعالى وتوفيقهِ لا افارق مركبتي الا بعد وصولي الى افاق افريقية الغربية لان بها يتمّ كل شيء وبدونهـا اقع في وهاد المخاطر والوبال وبها لا اخشى الحرّ ولا الصبر ولا الزوابع والزعازع ولا الجرود ولا السموم ولا الاهواء السقيمة ولا الارياح المشؤمة ولا الحيوانات الكاسرة حتى ولا الاقوام الغادرة فاذا احسست بحرارة ارتقي الى علٍ واذا شعرت ببرد انزل الى اسفلٍ واذا قابلني جبل او طوط امرّ من فوقهِ فاقطع الجبال والوديان والبطاح والغيطان واجوز الانهـار والبحيرات واتنزّه عن جميع الآفات واطير في الجوّ طيران الواثق دون ان يلاحقني ملاحق

فلما سمع ديك هذا الخطاب ارتاع فؤادهُ وساخهُ الاضطراب واخذ يحدق بصاحبه ويظن بنفسه انهُ طائرٌ في الجو ومترجح في عباب بحور الفلا. ثم قال وهل وجدت وسيلة لقيادة المركبة الهوائية

قال ساموئيل كلا

قال ديك اذاً الى اين تذهب بها

قال ساموئيل اذهب حيث شاء ربك ولكن من بغيتي ان اسافر من الشرق واحط في الغرب

قال ديك ولم ذلك

قال ساموئيل لاني استعمل ريح الصبا التي تهب شتاء من الجهة الشرقية الى الجهة الغربية

تأمل ديك برهةً ثم قال لستُ عكران [illegible] ريح الصبا.

فالحصر . [illegible] تقدر . [illegible] تو . ا [illegible] حق . رحلتك

قال ساموئيل قبل رحلتنا هل لك اعتراض آخر يا ديكاً

قال ديك كيف ولي الف اعتراض وقبل كل شيء اطلب اليك ان تقول لي كيف تريد الارتقاء والنزول والرحيل في تلك الطلول دون ان يفرغ الغاز الذي به تطير المركبة

قال ساموئيل وانا اقول لك اني لا افقد ذرة واحدة من الغاز

قال ديك وتحط في الارض كيف ومتى شئت

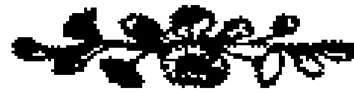
قال ساموئيل نعم يا صاح فاني احط كيفما شئت ومتى شئت

قال ديك وكيف ذلك

قال ساموئيل هذا سرّي الخفي فثق بي وكن على أُهبة وقل معي السيرُ الى ما فوق

يحاول ديك ان يظهر رأيهُ مطابقاً لرأي صاحبه ولكن في نيته ان يقاومهُ في مقصده مقاومة الاسود

يختم ساموييل الحديث بقوله قد رخصت لي الحكومة الانكليزية في سفينة تكون تحت امري وتدبيري فلا بد من ان ابلغ جزيرة زنجبار قبل ثلاثة اشهر فهناك اتمم مركبتي الهوائية وتطير بها انا واياك



الفصل الثالث

في ذكر الرحلات التي باشرها المسافرون في بطون افريقية ومجاهلها بقصد الاكتشافات الجديدة

ولما الناحية التي اختارها العلامة سامونيل مركزاً للانتقال منها الى الطبقات العلوية على اجنحة المركبة الهوائية فهي زنجبار وكانت نعم الخيار . وزنجبار جزيرة واقعة في جهة افريقيــة الشرقية في عرض جنوبي ٦° اي تحت خط الاستواء باربعمائة وثلاثين ميلاً انكليزياً او نحو ٢٦٨ ميلاً هاشمياً (والميل الهاشمي عبارة ٤٠٠٠ ذراع) فيليق بنا ان نستطرد لذكر بعض الرحلات التي باشرها المسافرون في افريقية بقصد الاكتشافات الجديدة

وكان من قصد العلامة فرغوسن ان يتبعهما وهما اثنتان ذات اهميــة حربية : الاولى رحلة برث سنة ١٨٤٩ والثانية رحلة الملازمين برتون واسبيك سنة ١٨٥٨

اما برث الهمبورجي فقد أُذن له ان ينضم هو وابن وطنه اوفرورك الى الانكليزي ريشردسون الذي كان قاصداً بلاد السودان ببعثة من الحكومة وبلاد السودان واقعة بين ١٥° و١٠° من العرض الشمالي ويقتضي للوصول اليها السير في مسافة تنيف عن ١٥٠٠ ميل في وسط افريقية

والى ذلك الوقت لم تكن تُعرف تلك البلدان سوى بسفرة دنهام وكلابرتون واودناي من سنة ١٨٢٢ الى ١٨٢٤ فتتبع الرفاق المذكورون آثار سلفائهم وبعد ان وصلوا الى تونس وطرابلس تقدموا الى ما قدام وبلغوا مدينة مُرزوق عاصمة الفزّان

ثم انثنوا عن الخط المستقيم وداروا نحو غات الى الغرب وهم متأذون بقوم من الشوارد وبعد ان سُرقوا ونُهبوا وذاقوا اشرّ العذاب واضطروا مراراً الى المناضلة والكفاح وصلوا اخيراً الى غوطة الاصبان في شهر ت ١ وهناك فارق برث رفاقه وتقدم الى مدينة اغادس ثم رجع الى القافلة واخذوا في السير في اليوم الثاني عشر من شهر كانون الاول فوصلوا الى اقليم دامرغو وتفارق الرفاق هناك وعمد المعلم برث الى مدينة كانو وكان وصوله اليها بعد العناء الجزيل وتحمل الصبر الجميل ودفع المبالغ العظيمة لرؤساء اقوام تلك البلدان الطائلة

ثم هجر مدينة كانو في ٧ اذار برفقة خادم واحد وكان مصاباً بداء الحمى ومع ذلك قد صمم النية على مشاهدة بحيرة تشاد وبقي له للوصول اليها ثلاثمائة وخمسون ميلاً فتقدم نحو الجهة الشرقية ووصل الى مدينة زوريكولو في اقليم بُرنو وهذه المدينة محط مركز اواسط افريقية وهناك بلغهُ خبر وفاة رفيقه ريتشردسون من شدة الضنك والتعب وقلة القوت ومشاق اخرى حلت في اسابيع متوالية في معيشته ثم رحل الى كوكا عاصمة بُرنو على سواحل البحيرة وبعد ثلاثة اسابيع بلغ مدينة مرزو في ١٤ نيسان بعد هجره طرابلس الغرب باثني عشر شهراً ونصف

وفي ٢٩ اذار سنة ١٨٥١ سافر ورفيقه اوفرويك الى مملكة ادامَوة في جنوبي البحيرة ووصل الى مدينة يولا ثم عاد الكرة في شهر آب على مدينة كوكو وهناك طاف حول مندارا وبرغمي وكانم واقصى جهة من المشرق وهناك مدينة مزيا الواقعة في ٣١' ١٧° من الطول الغربي

وفي ٢٥ من شهر تشرين الثاني سنة ١٨٥٢ بعد ان قضى رفيقه نحبهُ تقدم الى الجهة الغربية وعرّج على مدينة سوكوتو وجاز نهر النيجر ووصل اخيراً الى مدينة تمبكتو وهناك القى الشيخ القبض عليهِ ولبث بعدهُ ريثما امرّ الوالي

والتربة محروقانية اشهراما قوم الفلان فهاجوا وماجوا لانهم لا يحتملون زماناً بقاء رجل مسيحي في تلك المدينة فاقتلهُ الشيخ ورحل المعلم برث منها في ١٧ اذار سنة ١٨٥٤ واجتاز تخوم المدينة ومكث ثلاث وثلاثين يوماً محروماً كل ضرورياته ثم رجع الى كانو ودخل كوكا ولبث فيها اربعة اشهر ومن هنالك سار في الطريق التي خطها دنهام حتى عاين اخيراً مدينة طرابلس الغرب في اواخر شهر آب سنة ١٨٥٥ ثم سافر الى لندرة وحده في ٦ ايلول دون رفيق ولم يتجاوز ٤° من العرض الشمالي ولا الدرجة الدرجة ١٧° من الطول الغربي

فهذه رحلة المسافر الباسل برث الذي حاز الشرف الخطير لدى اعين العلماء واصحاب الفنون والذكاء

ولكن لم يقدر قط احد على الوصول الى عيون النيل السرية وعلى ما قرره الطبيب الالماني ويديد ورن ان المسافرين الذين بعثهم محمد علي سنة ١٨٤٠ لم يبلغوا سوى الى غندوكورو بين ٤° و٥° في السمت الشمالي

وفي سنة ١٨٥٥ تسمى برون رولييت قنصلاً لدولة سرديبيا في مملكة السودان الشرقية طمعاً لمن مات قبلهُ موت الشقاء والعذاب وهو وادي فهذا القنصل الجديد سافر من الخرطوم ودعا صهرهُ باسم يعقوب وتقدم الى ما قدام وهو يتاجر بالصمغ والعاج حتى وصل الى تلاييا فوق درجة ٩° ثم عاد الكرة على خرطوم وهو مبتلي بمرض عضال بلغ به الى القبر سنة ١٨٥٧

فلم يقدر احد على مجاورة الحدود المعلومة لا العلامة بة الذي تقدم الى قرب غندوكورو لانهُ رجع فمات في خرطوم وهو ضعيف من التعب وخور القوى ولا السائح ميااني من البندقية ولا التاجر الايطالي اندريا دِبُنو الذي اهتمّ في الوصول الى عيون النيل لكنهُ لم ينل مرامهُ

وفي سنة ١٨٥٩ بعثت الحكومة الفرنسية موسيو غليوم لجان الى بلاد

للخرطوم واصحبه بأحد وعشرين جنديا فسافر في البحر الاحمر ثم نزل الى ضفة النيل ومع هذا كله فلم يتمكن من مجاوزة تخوم غندوكورو واحاقت به المخاطر الشديدة لداعي ثورة ثارت ما بين الزنج

وطالما قد اوقف هنا الحد شجاعة المسافرين والسياح وكثيرون هم الذين ارادوا الوصول الى عيون النيل برحيلهم الى جهة افريقية الشرقية فلم يتمكنوا من ذلك فمن سنة ١٧٦٨ الى سنة ١٧٧٢ رحل السائح بروس الاسكتسي من ماصوَّة وهي مينا بلاد الحبشة ووصل الى خراب اكسوم وشاهد عيون النيل حيث لا وجود لها ولم تأت اتعابه بثمرة

وفي سنة ١٨٤٠ سافر السائح الفرنسي مزان الى بغامايو قبالة زنجبار ووصل الى مدينة دجيلاميرا حيث اذاقه سيد قومها امرّ العذاب والبلاء وفي سنة ١٨٥٩ في شهر آب سافر الشاب روشر الهمبرجي صحبة قافلة تجار اعراب وبلغ بحيرة نياصّا وهناك ذُبح في رقادهِ

اخيرًا سنة ١٨٥٧ بعثت الجمعية الملوكية الجغرافية في لندرة الضابطين برتون واسبيك المشهورين ليستقرئا بحيرات افريقيـة الوسطى ففي ١٧ حزيران قاموا من مدينة زنجبار وتوجهوا الى الناحية الغربية فبعد ان قضيا اربعة اشهر في مفاوز الضيق والعذاب الشديد حيث نُهبت حوائجهما وقتلت ناقلوها وصلا الى مدينة كازه وهي مركز اجتماع التجار والقوافل وهذه المدينـة كائنة في اواسط بلاد القمر وهناك اكتنزا لها ذخائر الفوائد بالاستفحاص عن اخلاق اقوام تلك البلاد وطباعهم وحكومتهم وديانتهم وخرافاتهم وخزعبلاتهم ثم تقدموا الى اول البحيرات العظيمـة وهي تنغانيكا الواقعة بين ٣° و٨° من العرض الجنوبي وكان وصولهما اليها في ١٤ شباط سنة ١٨٥٨ وهناك شاهدا اقواما مختلفة واكثرهم برابرة ومتوحشون

وفي ٢٦ ايار رجعا الى مسكاره وهناك مرض برتون واعتراه سقم شديد فمكث مليًّا بضع شهور وفي تلك المدة جال اسبيك ثلاثمائة ميل انكليزي في الجهة الشمالية ووصل الى بحيرة اوكراوي لكنه لم يعاين سوى طرفها الواقع في درجة ٣٠ َ ٢ ° عرضًا

ثم رجع الى كازه في ٢٥ آب وسافر مع رفيقه الى زنجبار فوصلا اليها في شهر اذار من السنة الثانية ومن هناك قصدا لندرة وخصصت لها الجمعية الملوكية الجغرافية معاشًا سنويًّا

وقد لاحظ العلامة فرغوس ان المسافرين المذكورين لم يجوزوا درجة ٢° من العرض الشمالي ولا درجة ٢٩° من الطول الشرقي

ولما اراد ان يجمع بين رحلة برتون واسبيك ورحلة برث ومن ثم يقطع عرضًا نافيًا عن ١٢ درجة



الفصل الرابع

في اهبة الرحلة الافريقية

وكان العلامة فرغوسن يهتم في تجهيز لوازم السفر الهوائي ويهيء بناء القبة الهوائية بحسب اصلاحات اخترعها ويكتم سرها وكان منـــذ زمان أخذ يدرس اللغـــة العربية ولغات الزنج المختلفـــة ونجح فيه ليس بيسير لشدة قوة الذاكرة واقتداره على كل ما ابتغى قنيته

واما رفيقه ديك فلم يكن يفارقه بتةً كأنه على خشية ان العلامة يُفلت ذات يوم خفيةً عنهُ وكان ينتهز كل فرصة مناسبة ليرجعهُ عن مقصده . الّا ان كلامهُ لا تأثير لهُ في عقل صاحبه الغير المبالي به

وعليه كان يتنهد سرًّا ويقول في نفسه : لا بدّ لك يا ديك لا بدّ لك من تلك الرحلة المشؤومة وعندها يغلو بذاته صاعداً الى الجو وطائراً في الفضـــاء لعبةً للارياح ويضيق صدره ويخفق منـــهُ القلب ويتصبب عرقاً بل انهُ كان يشعر وقت الرقاد باهتزاز وارتجاج مريعين يقلقان نومه ويرعبان جنانه ويُعدمانه راحة الليل ولم تمضِ ليلة الّا احسَّ بسقطةٍ هائلة من اعالي طبقـــات السماء وفي الحقيقة سقط من فراشه اقلهُ مرتين وهو في هذا الضغط والاضطراب

وقد اعتنى في اول الامر ان يظهر للعلامة فرغوسن الورم الذي طرأ عليه في رأسه من جرى سقوطه هذا وقال لهُ اذا كان من علوّ اشبار بلغت بي هذه النائبة فترى ما كان قد حلّ بي لو سقطتُ من طبقات العلاء

اما فرغوسن فلم يحرّك فؤادهُ لهذا الاضطراب بل اجاب وقال : انا لا نسقط . فقال ديك : واذا سقطنا فالحيلة

قال فرغوسن : كلاّ فانا لا نسقط وكان جواباً قاطعاً باتاً اذ لم يتفوه ديك بعد ذلك بكلمة البتة

فأما اعظم باعث لاغتياظ ديك فكان ان العلاّمة لا يعتبر شخصهُ بذاته بل كأنهُ من متعلقاتهِ ومن بعض املاكهِ وعلى الخصوص فانهُ كان ينفعل عند ما يسمع من فم فرغوسن التكلم في الجمع اذ كان يقول دائماً سنسافر (نحن) سنتقدم (نحن) وقال دائماً قبتنا ورحلتنا ولم يقل قط قبتي او رحلتي

فكان الامر مما يزيد ديك جزعاً واضطراباً ولو انهُ عازمٌ على ممانعة الرحلة او اقلهُ على عدم اشتراكه فيها ومع ذلك لم يرد قط ان يغيظ صاحبهُ وخلهُ العزيز وعليهِ كان قد ارسل سرًّا الى مدينة ادمبرج يطلب بعض حاجات لهُ وملابس واحسن انواع سلاحهِ للصيد

في ذات يوم اخذ يفاوض صاحبهُ على هذه الرحلة قصداً في صدهِ عن مباشرتها فبدأ يعارض العلامة على مقاصد رحلتهِ فقال أهل من امر ضروري لاكتشاف عيون النيل وهل يستفيد بذلك الجنس البشري وهل تتمدن اقوام تلك البلاد وتحظى بسعادة اوفر مما هي عليهِ الان وما نفع الاسراع الى ذلك اذ لا بدَّ ان يأتي يوم يجوز فيهِ المسافرون بافريقية كلها دون صعوبة وهلمَّ جرًّا فاجابهُ حينئذٍ العلامة فرغوسن وقال أتريد يا ديك بنفس الادياك ان اترك هذا الفخر لغيري واتوقف عند موانع لا اهمية لها البتة فاعترض ديك كمألوف عادتهِ وقال ولكن . . .

قال سامونيل : ولكن ألا تعلم ان رحلتي تساعد نجاح الرحلات الحالية التي يعانيها المسافرون أيخفى عليك ان مسافرين حديثين متقدمون الان نحو مركز افريقية وان البحيرة المعروفة باسم اوكاراوي الواقعة في الدرجة ٣٣° طولاً ظنها قوم انها تمتد من الدرجة ٣٠ ٢° من العرض الجنوبي الى الدرجة ٢° من

العرض الشمالي وعسى ان منها تنحصر عيون النيل فقد تطوعت جمعية لندرة الملوكية الى هذا الامر مبين الاهمية وبعثت القبطان إسبيك برفقة غرنت احد قواد الجنود الهندية واصحبا معهما جنوداً وجهزوا رحلتهما تجهيزاً بليغاً وفي نيتهم ان يلتقوا البحيرة المذكورة ثم يرجعون الى غندوكورو على شاطئ النيل وقد امدتهم الجمعية بخمسة الاف ليرة فرحلوا من زنجبار في اواخر شهر تشرين الاول سنة ١٨٦٠

وفي تلك المدة ورد امر من الحكومة الانكليزية الى جون بتريك في الخرطوم ان ينزل في سفينة في الخرطوم ويحملها زاداً وحوائج كثيرة ويذهب لينتظر القافلة في غندوكورو وأرسل له لنفقة ذلك سبعمائة ليرة انكليزية

قال ديك : نعمَ ما صنعوا

قال ساموئيل : أرأيت الان ان الوقت قد ضاق معنا ومست الحاجة لسرعة الرحيل الى تلك البلدان وما عدا ما ذكرته لك من عهد البعض لاكتشاف منبع النيل فقد رحل اناس كثيرون الى اواسط افريقية ليكتشفوا اراضيها وبقاعها وبطائحها

قال ديك : أفما هم مُشاة

اجاب ساموئيل : اي نعم مُشـاة ولا يخفى عليك ايضاً ان السيد دي هكلن وسكيل قنصل النمسا في الخرطوم رتّب قافلة ذات اهمية للرحيل الى اواسط افريقية ومحلُّ قصدها ان تطلب المسافر وُجل الذي أرسل الى السودان سنة ١٨٥٣ ليشارك العلامة برث باكتشافاته وفي سنة ١٨٥٦ رحل من برنو وقصد استكشاف ذلك الاقليم المجهول الواقع بين بحيرة شاد ومملكة درفور فمذ ذلك الوقت لم يسمع عنه خبر ولم يُرَ له اثر فارسل بعض الناس كتباً الى الاسكندرية يقولون فيها انه قُتل بامر ملك الواداي في بلاد السودان

ولكن كتب العلامة هرمان كانًا الى ابي رُجل يقول له بان ابنهُ لم يمت بل على ما قرره بدويٌّ من نحو ان رجل أُلقي القبض عليهِ في دارة وبقي هنالك اسيراً وقد تألفت جمعية لطلبهِ وسافر وفدها في شهر حزيران الماضي

فقال ديك : وحيث جميع الامور سائرة على قدم النجاح والاتقان فما لنا من المشقة في تلك الاقاليم والبلدان

فلم يجب ساموئيل على هذا الكلام بل تحوَّل عنهُ وانصرف وهو يهزُّ باكتافهِ



الفصل الخامس

في خادم العلامة ساموئيل وزينة المسافرين

وكان للعلامة ساموئيل خادمٌ اسمهُ يوسف وهو شاب اديب ذو اوصافٍ حسنى اذا امرهُ مولاه بقضاء حاجةٍ لباهُ بالنشاط والامانة وقد نهج في صدقهِ نحو سيده طريقة غير مطروقة واتاهُ على رغباتهِ بهمةٍ غير همة وخليقة غير خليقة اشبه بالعرافي الامين الذي ارسلهُ يشوع بن نون ليتجس ارض الكنعانيين وكان العلامة يترك لهُ التدبير في مهامهِ وخدمهِ لانهُ صاحب ذوقٍ لطيف ولا يتهامل في امر من الامور

ومن العجب العجاب ان يوسف لم يكن يراجعهُ في احكامهِ اصلًا بل اذا تفوه ساموئيل بكلمةٍ رعاها بدقة وتحرٍ وكل ما فكر بهِ ساموئيل كان لدى يوسف مصيبًا وكل ما قالهُ كان اريبًا وكل ما امرهُ بهِ كان مرعي الاجراء وكل ما نحا نحوًا كان مستطاعًا وكل ما قم امرًا كان لديه من العجائب والغرائب فلو تقطع يوسف اربًا لما رضي قط في حياتهِ ان يخالف سيدهُ في امر البتة

ولهذا لما خطر ببال فرغوسن الرحيل على اجنحة المركبة الهوائية وعلم بهِ يوسف فطابق رأيهُ بذلك دون ممانعة وتحقق انهُ يسافر مع سيدهِ لانه كان خفيف الحركات والاطوار ويساعد ساموئيل في امور كثيرة دلت اهمية حزيلة وقد طال ما اتبعهُ في اسفارهِ العديدة وكان من آرائه الغريبة استصواب الامور جميعها واستهوان المصاعب والمتاعب ولم يعلم قط في زمانه جنس التشكي والتذمر ومن صفاته ايضاً القوة في جسمهِ والتبصر في الامور وعدم

افكاره بجميع محاسنه وشمائله . فلما كان هذا الخادم منقاداً لسيده وقد طاقته على ذاته في رحلته فلا عجب فيما جرى من الجدال والمناقشة بينه وبين ديك لان احدهما ممكان واقعاً في اليقين الاعمى والآخر في الشك والارتيـــاب والعلامة فرغوس كان بين الشك واليقين غير انه لم يعبأ لا بهذا ولا بذاك

في ذات يوم قال الخـــادم لديك يا سيدي وكيف احوالك الا ترى انا عن قريب نرتقي الى طبقات العلاء لنبلغ القمر

قال ديك : أتعمى عن المصر الملقب بجبال القمر فانه اقرب من القمر ومع ذلك لا يخلو طريقه من المصاعب والاخطار

قال الخادم : وهل مع العلامة سامويل تقوم المصاعب وهلاّ تعلم انها تتبدد امامه كنعيم جهام

قال ديك : اقول قولا لا يخشى عليه من نكير ان معاناة مولاك لهذه الرحلة ضربٌ من الجنون

قال الخادم: كيف ولم تر مركبة سيدي رقبته في معمل الخواجات متشال الواقعة في ضاحية هذه المدينة

قال ديك : معاذ الله ان انطلق الى هناك لأشاهد مثل هذا المشهد

قال الخادم : ولعمري يفوتك منظر جميل جداً لأنه ُ ما من شيء اجمل من تلك القبة الحريرية او احلى من ذلك القارب المعلق بها ليحملنــا براحة تامّــة

قال ديك : اذاً من نيتك الثابتة ان ترافق مولاك في رحلته

قال الخادم : وهل اتركه ُ وحده ُ طائراً في طبقـــات العلاء وان لم اتبع مولاي سامويل فمن يأتي بيدو اذا احاق به الويل ومن يمد له ساعده ُ ليجوز مهواةً ومن يبطر اليه ويمده بعين الملاطفــة والمواساة اذا اصابه المرض واعتراه ُ

السقم ولعمري ما دمت حيًّا فلا ازال محيطًا بمولاي لاداريه مداراة الانسان المصاب

قال ديك : يا لك من شهمٍ فريد عصرك ويوسف وحيد مصرك

قال الخادم : أليس مرادك مرافقتنا في هذه الرحلة

قال ديك : لا شك في ذلك قلت لا شك في ان ارافقكما في رحلتكما الى زنجبار وابذل وسعي في صد سالمونيل عن ارتكاب هذه الجريرة

قال الخادم : لعمري انك لن تصده البتةَ عن قصده لان مولاي ليس بانسان محشو مخافةً يطلع الخزعبلات بل اذا قصد امرًا تروّاه من جميع انحائه وقد صممه لا محالة ولو احتال نفسه مع حيله لا يوقفهُ عن اجرائهِ

قال ديك : ان شاء الله عن قريب يخيب امله

قال الخادم : وعلى كلٍ لا يخيب امل حضرتك لانهُ يكثر الصيد في بلاد افريقية وانت من الصيادين الشهيرين فلا بد من ان تجد هنالك ما يسرك ويطربك

قال ديك : ان ما يسرّني ويطربني هو ان يرجع العلامة عن غيهِ ويرعوي عن ضلالهِ

قال الخادم : ولكن لا يخفى عليك ان اليوم يوم الزنة

قال ديك : وما الزنة

قال الخادم : لا بدَّ ان مولاي يزن ثقلنا ليرى ما عادلهُ من الارطال

قال ديك : لا حول ولا قوة الّا بالله العظيم

قال الخادم : ولا تخاف من انهُ يطلب منك قبل تناول الطعام لترق وتخف اذا وجدك ثقيلًا

قال ديك سيد ان يزني

قال الخادم : ولكن البابى ان دا الامر ضروري لسير مركته

قال ديك : وما لي ومركبته عسى ان يعتريهـا نسبي داء المفاصل او التالج

قال الخادم : واذا اصابها هذا الداء فلا يمكنا الارتقاء

قال ديك هذه رغبتي وطلق منيتي

قال الخادم · وانت تقول ذلك لان مولاي ليس هنا ولكن اذا اتاك في هذه الساعة وقال لك من بعد اذاء الاكرام تفضل للميزان فاجيب عنك انك حاضر للذهاب في الساعة والدقيقة

قال ديك : حاشى فاني لا ارضى بالميزان اصلاً

وفيما هما خائضان بحر هذه المناقشـة اذ دخل العلامة ونظر الى ديك فضحكاك هذا مبسماً وجهه فقال له تفضل ياديكاً انت ويوسف لان مرادي ارى كم تعـادلان انتاسكا من الارطال فاراد ديك الاستدراك

فقـال له ساموئيل : انتِ والبنيطة على رأسك ولا تخف

فاتبعه ديك ولم ينطق بكلمة وسار ثلاثتهم الى معمل الخزامات متشال حيث كان الميزان المعروف بالميزان الروماني منتصباً وفي الحقيقـة كان مرادهُ وزن رفقائه ليعرف ميزانية مركبه فصعد ديك على لوح الميزان فسمعه العلامة يقول بصوت منخفض لا بأس سلك فان الميزان لا يقدم ولا يؤخر في المسألة.

ثم قال العلامة بصوتٍ عالٍ: وزن ديك خمس وعشرون رطلاً وسطر ذلك في دفتره

فسأل ديك : أليس ثقلي بزائدٍ

فاجابهُ الخادم وقال : كلاّ وهب انك ثقيل فانا خفيف وهكذا اعوض

عن ثقلك

ثم صعد يوسف بخفة ووقف منتظراً الحكم واذا صوت العلامة يقول : عشرين رطلاً

ثم طلع نفسه وقال : الان دوري وسطر لحسابه أثنا وعشرين رطلاً

قال الخادم : واذا لزم الامر لرحلتك يا مولاي فاني لا اتناول طعاماً لانقص من ثقلي ثلاثة او اربعة ارطال

قال العلامة متبسماً : لا فائدة في قلة اكلك يا شاباً اميناً وعليه خذ فهذه حصتك (واعطاه ريالاً) فأحصل بها ما شئت وتشرب ايضاً



الفصل السادس

في تفاصيل المركبة الهوائية من القبة والقارب والالة البحرية وتجهيز حاجات الرحيل الضرورية

فلا عرو في ان المركبة الهوائيـة قد اشغلت بال العلامة ساموئيل ليلاً ونهاراً وما زال عاكفاً على تجهيزها وترتيبها باتقان لئلا يطرأ عليها في العلاء حادث من طوارق الحدثان فعزم في اول وهلة على ان يقتسب القبـة الحريرية بغاز الإدروجين احد عنصري المـاء وهو اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف وحصول هذا الغاز سهل جداً وهو ما ابدى المركبات الهوائية نفعاً جزيلاً في ارتقائها الى الطبقات العلوية

على ما حسبهُ ساموئيل بتدقيق ظنَّ ان لوازم رحلتهِ التي ينبغي عليهِ اصعادها في المركبة تتطلب ثقل نحو ٦٦٦ رطلاً فاخذ يبحث كيف يجهز القبة الهوائية لتتمكن من حمل هذا الثقل وما يقتضي ان يكون وسعها

اما ثقل ٦٦٦ رطلاً فتوازي وزن ٤٤٨٤٨ قدم هواء مكعب او ١٦٦١ متراً مكعباً فاذا اوسع القبة الهوائية ١٦٦١ متراً مكعباً وملأها غاز الإدروجين عوضاً عن الهواء . وغاز الإدروجين اخف من الهواء باربع عشرة مرة ونصف فيبقى خلل في الميزانية وقدره ٦٢٠ رطلاً اذ ان غاز الادروجين لا يزن سوى ٤٦ رطلاً وهذا الفرق الكائن بين ثقل الغـاز الداخل في القبة وثقل الهواء المحيط بها هو الذي يخوّل القبة الهوائية قوة الصعود الى الطبقات العلوية

ومع ذلك اذا أُدخل القبة ١٦٦١ متر غاز مكعب لامتلأت بتمامها وهذا لا يوافق بل يأتي بالضرر حيث ان القبة الهوائية بارتقائها الى الجوّ تصادف في

الفلاء هواء اقل ثقلاً من الهواء الكائن على سطح الارض فيأخذ الغاز في الاتساع والامتداد فيشق القبة في العموم لا يملأ اصحاب الفنون القبب الهوائية غازاً سوى بنسبة الثلثين

اما العلامة صاموئيل فرغوسن فعزم على ان لا يملأ قبته الأ بنسبة النصف وذلك لقصدٍ خفي كان كامناً في ضميره واذ كان في عزمه ان يأخذ معهُ ١٦٦١ متراً مكعباً من الإدروجين قد اوسع القبة اتساعاً مضاعفاً

ثم رتب القبة على الهيئة المستطيلة المفضلة على غيرها وبلغ قطرها الافقي ٧٥ قدماً وقطرها العمودي ٥٠ قدماً (١) فكان وسع هذه الكرة ٩٠ الف قدم مكعب

وقد فكر العلامة فرغوسن في صنع قبتين هوائيتين مختلفتي الكبر والاتساع وجعل الواحدة داخل الاخرى فالصغيرة بلغ قطرها الافقي ٤٥ قدماً وقطرها العمودي ٦٨ قدماً ووسعها ٦٧ الف قدم مكعب وقصد ان يجعل ثوباً يفتح من قبةٍ الى قبة لتتصل وقت الحاجة بعضها ببعض

ولهذه الوسيلة فوائد جمة منها اذا اراد اخراج الغاز ليهبط على الارض فيخرج الغاز الذي تتضمنهُ القبة الكبرى حتى واذا أُفرغ بكمالهِ فتبقى القبة الاخرى على حالتها ويمكن اذا مست الحاجة ان يرمي عنهُ هذه القبة الكبيرة المثقلة عليهِ ويمكث متمسكاً بقوة القبة الثانية ومنها اذا حدث عارض او انخرقت القبة الكبرى فلا يمس القبة الصغيرة ضرر البتة

اما القبتان الهوائيتان فصُنعتا من القماش الحريري المصلب ثم دُهنتا بمادةٍ صمغية يؤتى بها من الهند وتُعرف عند الافرنج باسم غُتابركا وهذه المادة تمنع الوائع

---

(١) لا يتعجبنَّ القارئ من هذا الكبر الفاحش فان العلامة صنع سنة ١٧٨٤ قبةً بلغ وسعها ٢٠٠٠٠ متر مكعب وكان من طاقتها ان تحمل ٢٠ الف كيلوغرام

من ان تحلل الاقمشة ولا يمسها انواع الحوامض ولا اجناس النار وجعل القماش في الاحق الاعلى على طاقين حيث هناك القوة الشديدة

وصنع الحبال لحمل القارب من القنب الشديد الصلابة والمتانة وقد بذل وسعهُ في اتقان الوليين اتقاناً محكماً كما يعتني اهل السفن في احكام دقة المركب

اما القارب الشيد ان يحمل المسافرين فناةٌ من الخيزران على هيئة مستديرة وبلغ قطرهُ خمسة عشر اقدام ثم مكنهُ بلمائف حديدية حولهُ فلم يبلغ ثقلهُ مع ثقل الحبال سوى ٤٦ رطلاً

وصنع العلامة ايضاً اربعة صناديق من الصفائح الحديدية وكانت متصلة بعضها ببعض بمجار ذات لوالب وضم الى هذه الصناديق انوبة يبلغ قطرها باهمين وفي احدها فرعان غير متساويين وطول الفرع الاكبر خمس وعشرين قدماً وطول الاخر خمسة عشر قدماً فقط ثم جعل هذه الصناديق في القارب بنوع مرتب حتى لا تشغل مكاناً واسعاً وحيث ان الانبوبة لا تترتب الا وقت صعوده الى المركبة جعلها في مكان منفرد مع كرة كهربائية وجميع هذه الصناديق لم يبلغ ثقلها مع ثقل صندوق مملوء ماء سوى ١١٦ رطلاً

اما الالات التي اراد استصحابها معهُ فهي ميزانان لمعدل الهواء (بارومتر) وميزانا الحر والبرد (ترمومتر) وابرة لمعرفة الجهة الشمالية (بوصلة) ومقياسان للوقت (كرونومتر) وأفق صنعي وآلة لقيس الاشياء البعيدة

وعدا هذا جميعهُ فانهُ اخذ للقارب ثلاثة مراسٍ وسلماً حريرياً متيناً طولهُ نحو خمسين قدماً

واما الزاد للاكل والشرب فكان شاياً وقهوة وكعكاً ولحماً مطبوخاً وقليلاً من العرق وماء عذباً ثقل مائة ليتر ومن الواضح البين ان هذا الزاد

يجب ان ينقص شيئاً فشيئاً وبذلك تنقص ميزانية المركبة الهوائية لان المركبة اذا نقصها ادنى ثقل عما رُكبت عليه يأتيهـا بتأثيرولم يهمل العلامة ان يأخذ معهُ حية ليغطي بها جهة القارب وطنفا لتغطيـة الاجسام وقت الرقاد وبواريد الصياد ديك مع كية وافرة من الرصاص والبارود

فهاك خلاصة تحصيل الاحمال المتيدة ان تجعل في المركبة الهوائية

عدد ارطال		
٢٢	ثقل	العلامة ساموئيل
٢٥	=	ديك كادي
٢٠	=	يوسف الخادم
١٠٨	=	القبة الهوائية الكبرى
٨٥	=	القبة الهوائية الصغرى
٤٧	=	القارب والحبال
٣١	=	المراسي والالات والبواريد
٣٧	=	الخيمة وغير ذلك
٦٤	=	المأكل والمشرب
٦٦	=	الماء
١١٦	=	الصناديق الاربعة
٤٦	=	الإدروجن
٣٦	=	من رمل يُستعمل صابورة
٧٠٣		الجملة

الفصل السابع

في ركوب السفينة وإيضاح القوة التي ترقي القبة الهوائية وتنزلها حسب المراد

ولما كان نهار ١٦ شباط وافت السفينة الانكليزية التي اتينا بذكرها آنفاً وارست بإزاء غرامويش وهي متأهبة لقبول العلامة فرغوسن ومركبته الهوائية فنقلت اليها المركبة في ١٨ شباط وذلك بانظار ساموئيل لئلا يمس شيئاً ضرر البتة ثم نقل اليها ايضاً عشرة براميل مملوءة روح الكبريت وعشرة براميل مملوءة قطعاً حديدية عتيقة وذلك لاجل احصال غاز الإدروجين ولم يهمل ان يصحب مع هذا كله البراميل اللازمة لنشر الغاز وعددها ثلاثون

ثم ركب السفينة رفيقه ديك وخادمه يوسف اما ديك فمع كونه قسم الايامين المحرمة انه لا يريد السفر مع العلامة فرغوسن رأيته يوم ركوب السفينة نزل اليها وهو مصحوب بحراسة كاملة من سلاح الصيد

وفي اليوم العشرين صنعت الجمعية الجغرافية الملوكية مأدبة فاخرة للمسافرين وحضر هذه المأدبة رئيس السفينة ورجاله وقد دارت بينهم كأس النداء شربوا للدامة بسر الاحساء متمنين لهم ان يعيشوا السنين العديدة والايام المديدة واما ديك فانتهُ التهاني لرحلتهِ الطويلة من جميع الحاضرين في ذلك المحفل فانهم بعدان شربوا بسر فرغوسن ومجد انكلترة شربوا بسر رفيقه الشجاع ديك الصياد

وبينما هم جالسون على مائدة الطعام اذ وفد رسول من الملكة ومعهم تهنئتها للمسافرين وتمنيها لنجاح الرحلة الجوية في الحال شرب جميعهم تحية

حلالتها الفخمة وبعد قليل انصرف كلٌّ الى مكانه ليستريحوا تلك الليلة

ولما اصبح الصباح وكان اليوم الواحد والعشرين قلعت السفينة من مرسيها وسارت بتمام السرعة قاصدة زحـــل في البحر الاثيري ١٠ نيسان وبعد ان ارست في اماكن عدة وصلت اليها بالامن والسلام

وفي غضون سيرهم كانت المناقشة قائمة بين الركاب على الرحلة الجوية وكان يوسف الخادم وحدنا مستمعًا ويحدث كثيرًا رفاقه وباقي السفينة فقال لهم مرةً انه بعد رحلتهم سوف يحذو كثير من الناس حذوهم اذ انه كلما دق النـــاس مثل هذه الامور زاد ولعهم بها ولما شوقهم لملاقاتهـــا ومراجعتها فكما انهم الآن مسافرون في المركبة بخط معروف كذلك يسيرون فيما بعد بخط مستقيم الى ما امامهم

فقال احد السامعين   الا ترتقون الى القمر

قال يوسف   حاشى وكلا لست احب القمر لانهُ معروف من الناس وخال ايضًا من الماء فيقضي بنا العطش الى الهلاك

فقال احد محبي الغرق   واذا وجدت هنالك غرقا الا تشتكي .

قال الخادم   كلا لا نريد شيئًا من القمر بل مرادنا ان نرتقي الى تلك النجوم السيارات المتلألئة في القبة السماوية في اول رحلة عن زحل

فسأله واحد وقال   هل زحل هو اللادس الخاتم

قال يوسف   نعم اللادس خاتم الزواج ولكن الى الآن لم يُعرف ماذا اصاب امرأته المسكينة

فتفرّس احد الحضرة الناظر اليه نظرة الدهشة وقال   ا يمكنكم اذًا الارتقاء الى هذا العلاء لعمري ان مولاك فاق الخيال قدرةً وحيلةً

قال الخادم   والخيال نفسه لا يستطيع على صنيع مثل هذه الامور

فقال عوني وهو ينتظر فرصة للتكلم وبعد ان تنزّلوا رُحل فالى اين تتوجهوا بالسلامة

قال عزّ بالمشتري فهو دور المشتري فانها بلاد لا يطول بها النهار سوى تسع ساعات ونصف وهذا مما يوافق اكسالي

وهكذا كان يحدث بعضهم بعضاً بالمزاح والفرح وقد اخذ يوسف يتكلم عن هذه والمريخ والزهرة احاديث مضحكة ومع ذلك مطربة لجميعهم لرشاقة الخادم يوسف وسبك عباراته المزاحية

وفي اثناء مناقشته مع الحرية كانت المركبة سائرة على قدم الصباح بين الصاعد وهرعوس بخصوص رحلته ومركبته ومسيرها فسألوهُ مرةً ماذا يرتأي عن ادارة المركبات الى حيث يشاء الراكب

فقال ساموئيل اني لا اظن ان الناس يتوصلون الى ادارة المركبات الى حيث شاؤوا وقد فحصت جميع المحسنات التي ظهرت الى الآن فلم ار واحدة منها تصلح لذلك

فاجابهُ واحد وقال ألا يوجد نسبة عظيمة بين ادارة القارب الطيارة والسفن البحرية

قال هرعوس كلا يا سيدي فان النسبة قليلة جداً وربما كلا شيء لان الهواء اخف من الماء مما لا يجد فالسفينة لا تغطس كلها في الماء بل بعضها واما القبة الهوائية فتغوص في الجو غوصاً تاماً وتبقى غير متحركة بالنسبة للسيال المحيط بها

قال واحد وهل تظن اذاً انهُ غير ممكن اختراع شيء جديد بهذا الخصوص بواسطة العلوم الطبيعية

قال كلا ثم كلا غير ان اصحاب العلوم يبحثون عن شيء آخر وهو

ان يستقرّ راكب المركبة الهوائية ثابتاً في الطبقات الهوائية في الجوّ الموافقة لغرضه لان الهواء في بعض الاماكن العالية يكون متساوياً وثابتاً في اتجاهه ولا تغيّره الاودية والجبال المتكاثرة على وجه الكرة الارضية ولا يخفى عليكم ان تغيير الهواء وعدم مساواة مهبه هو مسبب عنها في الغالب فاذا ما علا المرء هذه الطبقات وتوصل الى الاعالي فحينئذٍ يتوقف عند الطبقة الموافقة لغرضه كما اشرت

قال رئيس السفينة : وللحالة هذه لكي يتوصل اليها الراكب لا يقتضيه سوى الصعود والنزول وهنا الصعوبة كلها

قال فرغوسن : ولماذا

قال السردار : مآل كلامي ان هذه الصعوبة لو التم لا يكون الّا للاسفار الطويلة وليس للرحلات القصيرة المقصود بها التنزه وانشراح الخاطر

قال فرغوسن : اكرم عليّ بايرادك سبب ذلك

قال السردار : لان اذا اراد المسافر في هذه القباب الطيارة الصعود الى العلا لزمهُ القاء بعض ما يكون حاملهُ من الثقل واذا اراد النزول لزمهُ ان يفقد شيئاً من الغاز وعلى هذا المنوال لا تمضي مدة الّا ويفرغ زادهُ ان كان من الغاز وان كان من الثقل

قال فرغوسن : هنا معظم المسألة فان المباحث ليست واقعة في هذه الايام عن ادارة المركبات حيث يُراد ولكن حلّ البحث قائم في الصعود الى العلاء والنزول الى الارض من دون ان ينقص غاز الإدروجن الذي تحويه القبة اي من دون ان يخسر شيئاً من قوة القبة الهوائية

قالوا : ولكن ألم يكتشف احدٌ بعدُ هذه الواسطة

قال سامرتيل : بلى

قالوا : ومن الذي اكتشفها

قال هذا الداهي : ولاني اكتشفتها لما كنت حلفت نفسي على الموت بالتريّثية لاني لا اسير مدة اربعة وعشرين ساعة الا ويفرغ الغاز من قبتي

قالوا : ألم تتكلم عن ذلك في بلاد انكلترة

قال : كلا بل ما زلت لسري كاتماً وقد امتحنت الامر بنفسي ولما كنت الفلاح فما الحاجة للتكلم عنهُ

قالوا : أتكرم علينا بكشفك لنا هذا السرّ

قال : سمعاً وطاعة ثم بدا في الكلام واخذ الحاضرون يصيخون سمعاً لخطابهِ



الفصل الثامن

في المنن المتقدم ذكرهُ

قال ساموئيل : قد طالما اراد اصحاب الفنون ايجاد واسطة للارتقاء والنزول في المركبة الهوائية دون ان يخسر الراكب غازاً او يرمي من الثقل الذي نقلهُ معهُ فاعيائهم تفتيشهم وذهب سعيهم هدراً

اما الواسطة التي اكتشفتها انا فهي متوقفة على ان ابسط الغاز الموجود ضمن القبة واضغطهُ حسبما اريد الطلوع او النزول وذلك بواسطة الحرارة ثم البرودة وهاكم كيفية العمل

لا بد انكم بصرتم مع المركبة بخمسة صناديق لا تعرفون ماذا يفيد استعمالها فان الصندوق الاول يحوي مائة ليترماء واليها اضيف بعض نقط روح الكبريت لتزيد كهربائيتها وكما لا تجهلون فان الماء مركب من عنصرين عنصر الإدروجين وعنصر الاكسجين فبواسطة الالة الكهربائية التي استعملها وهي معروفة باسم صفائح بنزن يسرب الاكسجين الى صندوق آخر ويدخل الإدروجين في صندوق ثالث وهذان الصندوقان يتصلان بصندوق رابع يدعى صندوق المزج وصيلتهما انبوبان مختلفا الضخامة وفي هذا الصندوق يمتزج الغازان الناشئان عن انحلال الماء ووسع هذا الصندوق ٤١ قدماً مكعباً وفي اعلاه قصبة من النحاس الابيض لها ايضاً انبوب

وليكن معلوماً عندكم ايها السادة ان آلتي ما هي الا شكل قصبة ينحصر فيها غاز الإدروجين والاكسجين وتضرم ناراً مستعرة اللهيب اشد تأججاً من نيران اكوار الحدادين واذ تقرر ذلك ناتي بذكر الجزء الثاني من الآلة

فن اسفل القبة الهوائية المثلثة فقاً محكماً يخرج انبوبتان مفترقتان الواحدة عن الاخرى بمسافة جزئية فالاولى تبتدئ من وسط طبقات غاز الادروجين العليا والاخرى من الطبقات السفلى وكلاهما ينزلان الى القارب بل الى داخل صندوقٍ من حديد ذات هيئةٍ عمودية اسمه صندوق الحرارة وهذا الصندوق مغلق بطرفيه بدوائر حديدية ايضاً

فالانبوبة البارزة من طبقات القبة السفلى تدخل في هذا الصندوق العمودي من الدائرة التحتانية وتتلوى داخله على هيئة البرغي وقبل ان تخرج من الصندوق تتوجه الى مخروط ذات دعائم مجوفة على شكل طاس كري ومن اعلا هذا المخروط تخرج الانبوبة الثانية وهي تتجه الى طبقات القبة العليا كما ذكرنا آنفاً وهذا الطاس الكريّ معمول من الذهب الابيض لئلا يذوب بقوة القصبة حيث انها موضوعة في عمق الصندوق الحديدي في وسط الانبوبة المتلوية على هيئة البرغي وطرف فيها يمسّ هذا الطاس الكريّ

فكما ذكرنا لكم انها المادة ليس هو الاشبه المدخنة الموقفة منكم وهي المستعملة لتدخنة الخادع ولايخفى عليكم كيف ان هواء الخدع يمرّ بالانابيب ويستحوذ فيها الخدع

وهكذا يصير في الآتي فان القصبة اذا سخّنت الادروجين الكائن في الانبوبة يسخن الطاس الكريّ ويصعد الادروجين بسرعة الى الانبوبة المتوصلة الى وسط القبة الهوائية ثم يحصل الخلا من اسفل ويجذب بذلك غاز الطبقات السفلى فيسخن هذا بدوره ويصعد الى اعلا ويقوم مقامه وهكذا يتكون بين القوالب والانابيب مسير غازٍ سريع جداً يخرج من القبة ويرجع اليه مزيد حرارة

والمثال ان الغاز يزيد حجماً ٤٨٠/١ في كل درجة من درجات الحرارة فاذا

تأجج لهيب الحرارة بثمانية عشرة درجة ينبسط الإدروجين بقيمة ١٨/٤٨٠ او ١٦٦٤ قدم مكعب فهنا يزيد قوة القبة للصعود ستة وعشرين رطلاً واذا رفعت الحرارة الى ١٨٠ درجة ينبسط الغاز بمعدل ١٨٠/٤٨٠ فيقوم مقام وسع ١٦٧٠ قدم مكعب وتزيد قوة صعودها بمائتين وست وستين رطلاً

فمن هنا ترون انهُ يحدث فرق عظيم في ميزانية القبة الهوائية مع اني لزمت ان اقيها بمعدل النصف بنوع ان الهواء الذي يقوم مقامهُ الإدروجين يعادل قماش القبة ومحمولها من المسافرين وما يقتضيه السفر من اللوازم الضرورية ولهذه الحالة فان القبة تساوي ميزانية الهواء اي انها لا تصعد في العلا ولا تنزل من تلقاء نفسها

فلكي اصعد ارفع الغاز الى درجة حرارة عالية بواسطة القصبة فمن زيادة الحرارة يمتد غاز الكرة الهوائية وتتقبب وترتقي الى العلاء

واما وقت النزول فاني اضعف حرارة القصبة فالارتقاء كما ترون يكون اسرع من النزول وهذا من الفوائد حيث ان الاخطار هي على الارض وليس في العلاء ومع هذا كله فاني حملت كمية من الثقل حتى اذا لزم الامر القيتهُ خارجاً لارتقي بسرعة واما اللولب الكائن في اعلاء المركبة فلا امسهُ بل تبقى القبة الهوائية حافظة الغاز الذي لملأها به وما احدثهُ من الحرارة والبرودة في هذا الغاز هو الذي يرفعني وينزلني

ولزيادة الايضاح اقول ان من احتراق الإدروجين والاكسجين في طرف القصبة يحصل بخار الماء فوضعت في طرف الصندوق العمودي انبوبة لها لولب اذا انضغطت ارتفع منها البخار

وهاكم الارقام بالتمام

ان مائة واثني عشر ليتر ماء اذا انحلّ عنصرها احصلت ٣٣ رطلاً من

الأكسجين وارعة ارطال من الادروجين فيكون ذلك بمعدل ٧٠ متراً مكعباً من الأكسجين و١٤٠ متراً مكعباً من الادروجين ومجموع العنصرين يكون ٢١٠ امتار مكعبة

فاذا فُتح لولب القصبة فتحاً تاماً يُشعل قدر متر مكعب في الساعة واللهيب يكون اشد سعيراً من لهيب الانوار الغازية بست مرات في المعدل الاوسط اذا لم ارد ان ارتفع الى علو شاهق لا اوقد الا قدر ثلث متر مكعب في الساعة فالمائة والاثني عشر ليتر ماء التي ذكرتها تكفيني اذاً لسير ستمائة وثلاثين ساعة او نحو ستة وعشرين يوماً

ولما كان لي ان اتمكن من النزول ايما شئت فاستطيع ان اتزود ماء واستمر سيري قدر ما اشاء

فهذا هو سري ايها السادة الكرام فانه سهل جداً ويتكفل بالنجاح ان شاء المولى وواسطتي الوحيدة هي امتداد الغاز وتقلصه وهذا لا يلزمه حركة آلية كالاجنحة او سواها لا ان هي الا مدخنة اغير بها الحرارة واقيم مقامها البرودة وبالعكس ثم قصبة تسخين المدخنة واظن اني جمعت بذلك كل ما يلزم لنجاح رحلتي

فاني سيد قبتي ومولاها لاني اصعد متى شئت وانزل متى شئت واقف متى ما شئت وخصوصا اذا تهددتني مهبات الرياح فاسعى الى اماكن لا توافقني

فقال السردار وستتيح منها ما يدفعك في برهة ساعة الى مسافة مائتين واربعين ميلاً

قال فرغوسن فترى ممكنا له بهذه السرعة يجوز الانسان افريقية في مدة اثني عشرة ساعة فانه ينهض من فراشه صباحاً في زنجبار ويذهب لينام

في مدينة سن لويس في الجهة المقابلة

فقال ضابط وهل يمكن ان تُجمع القبة الهوائية بسرعة كهذه

قال فرغوسن وقد جرى ذلك في الامتحان

قال الضابط وهل لم يمس القبة ضرر

قال فرغوسن كلا وقد جرى ذلك عند تكليل نابوليون الاول سنة ١٨٠٤ فان العلامة غرنرين رفع قبة هوائية من باريز الساعة الحادية عشر مساء (قبل نصف الليل بساعة) وكان مكتوباً على تلك القبة باحرف ذهبية العبارة الآتية باريز في ٢٥ فريمير (هو شهر المشيخة الفرنسية مدته من ٢١ تشرين الثاني الى ٢٢ حسب السنين) من السنة الثالثة عشرة لتكليل الامبراطور نابوليون الاول

في الغد صباحاً الساعة الخامسة (قبل الظهر بسبع ساعات) شاهد سكان رومة تلك القبة الهوائية تحوم فوق الواتيكان وبعد ان طافت حول المقول رجعة سقطت في بحيرة براشيانو فاتضح اذاً لهم السادة ان القبة الهوائية تساوي هذه السرعة العجيبة

فقال ديك نعم يا ايها العلامة ان القبة توازي هذه السرعة وانما الانسان فلا يتمكن من ذلك

قال فرغوسن ولماذا فان القبة الهوائية غير متحركة بالنسبة الى الهواء المحيط بها وليست هي التي تمشي بل الهواء نفسه ولو شعلت شمعة وسط القبة المذكورة فلم يكن يرتج الضوء قط فيها ولو فرضنا ان ركبها انسان فلم يكن يذوق ادنى اضطراب او اختلاج واما انا فليس من بغيتي ان اختص مثل هذه الامور بل ايها لقيت شجرة عالية ارسيت مركبتي عندها وبت ليلتي كلها وقد عولنا واذاً يكفينا مدة شهرين واذا طالت معنا الرحلة اكثر من ذلك على

معنا صياد مشهور يعيننا بزاده اذا اشتغل قليلاً

قال احد الضباط وهو ينظر الى ديك: سوف تشتهر في تلك البلدان بصيدك ياسيدي

فقال آخر: وفضلاً عما تشعر من اللذة وقت الصيد فان مساعيك ستتوجك بتاج النصر والمجد

فقال ديك: ايها السادة اتشكر... معروفكم... على تهنئتكم اياي ولكني لست اقبلها...

فقال كيبرن سوية: فاذاً لست عازم على الرحيل

قال: كلاّ

فقال واحد: ولا تصحب العلاّمة فرغوسن

قال: ليس فقط لا اصحبهُ بل انني اتيت معهُ لاصدهُ عن مقاصده. فنظر جميع الحاضرين حينئذٍ الى العلاّمة فرغوسن كأنهم يستفهمون منهُ عن رائهِ في ذلك فقال ساموئيل: لا تلتفتوا اليهِ ولا تجادلوهُ عن ذلك. لانهُ يتظاهر انهُ لا يريد السفر ولكن في قلبهِ يعرف جيداً انهُ يسافر بلا شكٍ

فصاح ديك وقال: وحياة رأسك سافعل.. واصدك...

فاردف فرغوسن قائلاً: لن تفعل شيئاً يا ديك لانك معيَّرٌ وموزون بجسمك وبارودك وبواريدك ورصاصك فارجوك اذاً ان لا تقول شيئاً

فسكت ديك ولازم الصمت منذ تلك الدقيقة الى حين وصولهِ الى زنجبار ولم يعد يتكلم عن رحلتهِ ولا عن شيءٍ آخر

الفصل التاسع

في وصول المسافرين الى زنجبار وارتحاله الى السواحل الافريقية الى البحيرات العظمى

وكانت الريح موافقة لسير السفينة ومياه البحر رائقة لا يهيجها هائج فكان اهل السفينة يتفاءلون بهذا على ان الرحلة الجوية تكون طبق الرحلة البحرية انتظاماً وهدوءاً وقد عيل صبر الملاحين لينظروا تلك الساعة التي فيها يرتكب العلامة ورفقاؤه المركبة الهوائية ولما دخل اليوم الخامس عشر من شهر نيسان ارست السفينة في مينا زنجبار وهي مدينة في جزيرة اسمها زنجبار ايضاً وكان ذلك قبل الظهر بساعة

اما جزيرة زنجبار فهي زمام امام ممتلكات حليفي الدولة الفرنسية والانكليزية ويطرق ميناها سفن عديدة من البلاد المجاورة لها وهي مفروقة عن بر افريقية بخليج ليس بمتسع وسكانها تاجرون بالعرا والعاج وخاصة بخشب الابنوس وهذه البلاد ايضاً مقرّ لبيع العبيد وسوقهم رائج فيها لان فيها تحتشد الغنائم التي يمتلكها رؤساء اقوام افريقية الوسطى بغاراتهم بعضهم بعضاً ويعرضونها للبيع وهذه التجارة ممتدة جداً حتى عند ارباب النيل (١)

عند وصول السفينة الى زنجبار اسرع قنصل الانكليز لاستقبال

---

(١) ان اهل الخير ساعون كثيراً في هذه الايام في منع هذه العادة السيئة التي يشكو منها كل ذي سلم وقد نجح مسعاهم اذ حُرمت تلك التجارة شرعاً ووضع قصاصٌ على المخالفين

العلاَّمة فرغوسن في مقالهِ لانهُ كان عارفاً بمقصدهِ بمطالعتهِ الصحف الاوربية وهو من جملة الذين ادخلوا رحلتهِ في علي المرسلات والمؤلفات واول ما شاهد العلاَّمة وقرأهُ السلام قال لهُ : كنت في شكٍ وعلى ريب من رحلتك ولكن تبين لي الآن انك مزمع على تنفيـذ اربك فزال مني الشك وتحققت نجاح مقصودك

فطلب العلاَّمة من القنصل استعلامات عن القبطان اسبيك السائح الانكليزي فبلغهُ القنصل تجاريبهُ ورأى انهُ متمنٍ جوًّا وماء وبالكاد يمكنهُ ان يقدم في المسير على الهويناء

فقال حينئذٍ سامويل : اننا بحولهِ تعالى سنتجنب هذه الاخطار والويلات ولا نرى منها ما ينقص رحلتنا

ولما تأهب العلاَّمة لتنزيل قبة الهوائية من السفينة بلغ بعض الناس القنصل ان لا يعمل ذلك في المدينة لان سكانها يأتونها بالقوة الجبرية لعمري لا شيء اقبح من الشهوات المتعصبة تعصبًا لا طائل تحتهُ فانهُ لما عرف سكان الجزيرة بقدوم رجل مسيحي يريد ان يطير في الجو غضبوا وحنقوا وهاجوا وماجوا اما الزنج فاخذ منهم الغضب اشد مأخذًا من العربان لانهم رأوا بهذه الرحلة ما ينافي دينهم وظنوا ان القبة تطير قاصدة الشمس والقمر وتضر بهما ويفعل راكبوها بهما ما شاؤوا فكيف يتركون ذا الامر والشمس والقمر لديهما بمقام سامٍ واعتبارٍ فائق فصمموا النية على مقاومة هذا العمل بجميع قواهم وحرفهم

ولما علم القنصل بجميع ذلك اطلع العلاَّمة وقبطان السفينة عليهِ اما قبطان السفينة فقال : لا يمانعنا شيء ولا نخشى احدًا . فقال لهُ القنصل : يا صاح اننا نفوز بالنصر والغلبة على العربان والزنج وخاصةً لان عسكر الإمام يمدون لنا

ساعد الاسعاف ولكن لا يخفى على حضرتك ان سهماً واحداً لو اطلق على القبة اذهب بقوتها وفاعليتها وبطلت الرحلة فيلزم اذاً ان تتصرف بتأنٍ واحتراز علّنا نبدد هذه المصاعب ونزيلها

قال القبطان : وما العمل فانيا اردت ان تركب تجد نفس المانع

قال القنصل : لا شيء اسهل من انكم تنقلوا القبة الى الجزائر الصغيرة التي تردنها بعيدة عن هذه المدينة وهناك لا يصدكم احد البتة

قال سامويل : هذا رأي صحيح فنا هناك نبقى احراراً لا يستعبدنا العبيد باهوائهم الخسيسة

وبعد ذلك الحديث توجهوا حالاً ونزلوا جزيرة كبي وجعلوا القبة في بقعة فسيحة وسط غاب ثم صنعوا صاريين سكيّين يبلغ طول الواحد ثمانين قدماً ووضع الواحد بعيداً عن الآخر بمسافة طول الصاري وفوقهما البكرات وعليهما الحبال وهكذا رفعوا القبة وكانت اذ ذاك غير منفوخة والقبة الصغيرة داخل القبة الكبيرة وترتفع كما ترتفع هذه وادخلوا الانبوبة التي منها يدخل الإدروجين عند طرف كل من القبتين ولما اليوم السابع عشر من الشهر المذكور قضوه في تجهيز الآلة لاحصال الغاز وكانت مؤلفة من ثلاثين برميلاً وفيها يُحلّ الماء مزادة للحديد وللحمض الكبريتي (اسيد سلفريك) الموضوعين في كمية وافرة من الماء والادروجين يصل قبلاً الى برميل في وسط البراميل بعد ان يُغسل في طريقه ومن هناك ينفذ في الانابيب حتى يصل الى القبة وهكذا تملأ القبتان بكمية محدودة من الغاز

وقد تطلب هذا العمل ثلاثة آلاف ومائتي ليتر من الحامض الكبريتي والفين وستمائة وثلاثة وسبعين رطلاً من الحديد وواحد واربعين الف ومائتي ليتر من الماء فابتدأوا به في الليلة التاسعة واستمر نحو ثماني ساعات وفي الغد

كانت تتمايل القبة في الهواء فوق الزورق وقد ثُقل عليها باكياس كثيرة من الرمل

ثم رفع العلامة آلة لامتداد الغاز وانقباضه باعتناء جزيل وبعد ذلك وضع في الزورق لوازم السفر كما ذكرناها قبلًا

وقد تمّ هذا الشغل نحو الساعة العاشرة من النهار وكانت الحراس تسهر حول الجزيرة لئلا يطرقها احد من العبيد ام من العربان

اما الزنج في جزيرة زنجبار فكانوا يصيحون باصوات الغضب والحنق ويطوف السحرة فيما بينهم ويبثون فيهم روح الغضب واراد بعض المتعصبين ان يأتوا الجزيرة بالسباحة لكنهم مُنعوا عن ذلك حالًا

وبدأ الرقاؤن والسحرة حينئذٍ في المناداة الى السماء لتنزيل الامطار والحجارة الحارة (والحجارة الحارة بمعنى البَرَد في تأويل اهل زنجبار) ولاتمام ذلك اخذوا اوراقًا من جميع اصناف اشجار المدينة وغلوها على نار خفيفة وفي غصون الغليان ذبحوا خروفًا وادخلوا في قلبه دبوسًا كبيرًا لكن السماء ما زالت دائمة رغمًا عن طقوسهم المضحكة وما ربحوا الّا خسارة الخروف واتعابهم الباطلة

فجعلوا وقتئذٍ يشربون المسكرات ويغني كلٌّ على ميله بدون ترتيب ولا انتظام

ولما حكمت الساعة الحادية عشرة من النهار اخذ المسافرون يتناولون الطعام وكان جالسًا معهم القبطان وجميع الضابطة واما ديك فكان يدمدم في شفتيه ويتمتم ببعض الكلمات الغير المفهومة وعينه كانت شاخصة دائمًا بالعلامة فرغوسن

اما الحزن فكان خاطًا رسومه على وجوه جميع الحاضرين لان الافكار

لتلفت في الانشغال من دنو الساعة المقبلة وبدأ جميعهم يرددون في فكرهم ما عسى يحل بهؤلاء المسافرين الابطال وهل يا ترى يعودون الى الاوطان ويشاهدون الاخدان واذا حل بهم ويل واضطروا الى النزول بين البرابرة فما تصبح حالتهم

اما العلامة فرغوس فكان يحاول ان يتخلص من الأسف الذي لاحت لوائحهُ على جميع الوجوه لكنهُ لم يستطع ذلك فتناقل بعض الكلام مع رفقائهِ ولكنها كانت عرية من كل رونق وبهاء

ولما امسى المساء ذهب العلامة ورفاقه ورقدوا في السفينة لئلا تصيبهم مصيبة وعند الصباح والشمس اذ ذاك قد بزغت اشعتها والنسيم رخيم نزل جميع ركاب السفينة في الجزيرة ووقف عشرون ملاحًا عوضًا عن اكياس الرمل التي كانت ماسكة القبة

وفي تلك الساعة وقف ديك امام العلامة وخاطبهُ قائلًا: أ عزمت عزمًا ثابتًا على السفر

قال العلامة: ولا شك في ذلك

قال ديك: فاني قد بذلت جهدي لاصدك عن رحلتك وما بقي عليَّ عتاب ولا لائمة ولهذا ارافقك في رحلتك

قال العلامة: كنت متحققًا ذلك منك الفضل الجزيل يا ايها الخليل

ولما وافت ساعة الوداع تعانق الاصحاب مع الاصحاب ثم ركب المسافرون المركبة نحو الساعة الثالثة من النهار فشعل العلامة القصبة لتمدَّ الحرارة وسط القبة الطيارة وفي الحال ارتفعت هذه القبة عن الارض نحو عشرين قدمًا اذ ارخى الملاحون شيئًا من الحبال التي كانوا متمسكين بها

ثم وقف فرغوس ورفع البرنيطة عن رأسهِ وقال: فلنسمِّ مركبتنا باسم

يوليها الحظ والسعادة ولقبها المنصورة (فكتوريا) فصاح الجميع قائلين فلتحي الملكة فكتوريا فلتحي انكلترة

واذ تمت قوة الحرارة وقد ودع المسافرون رفاقهم الوداع الاخير قال صاموئيل : ارخوا الحبال جميعًا وسرية فارتفعت المنصورة الى العلاء واطلقت السفينة المدافع اكرامًا لها واجلالًا للمسافرين فرنت اصواتها في الآفاق



الفصل العاشر

في مرور المسافرين في بلاد جديدة ومبيتهم على شجرة الصبّار فوق جبل دوتوري

ولما ارتفعت المنصورة الى الاعالي كانت الريح لطيفة والهوا ثابتاً فعلت نحو الف وخمسمائة قدم فوق الارض بخط مستقيم وقد عرف ذلك ساموئيل من انحطاط البارومتر بخمسة سنتيمترات تقريباً (١) وبعد وصولهم الى ذلك العلو تغيرت الريح قليلاً ودفعت القبة نحو جنوبي غربي افريقية

وكان يتراءى لاعينهم مشهد من اجمل المشاهد اذ ان الحقول كانت متجانسة الالوان والاشكال والاشجار المائلة الاوراق تجذب النواظر وجزيرة دنجيار كأنها بقعة مستوية الارض وسكانها كأنهم هوام وتتصاعد اليهم اصوات صراخ متواصل من اهل تلك الجزيرة

فسأمت نفس يوسف من السكوت في تلك الفرصة فقال : يا له من مشهد جميل تطيب له الخواطر ويروق للناظر

فلم يجبه احد على مقاله لان العلامة كان مهتماً بمراقبة التغييرات البارومترية ويدقق الفحص عن تفصيل صعوده وغير ذلك اما ديك فكان يحدق النظر متأملاً ذلك المشهد الغريب العجيب حال وجوده في الفضاء بين الارض والسماء

ولما كانت اشعة الشمس شديدة الحرارة وازدت قوة القصبة فعلت القبة

---

(١) كلما انحط البارومتر سنتيمتراً يكون راكب الهواء قد ارتفع مائة متر تقريباً

عن الارض نحو ٢٠٠٠ قدم

ولم تعد حينئذ تبين السمية لشبهم الاكثار صغير وكانت زرقة البحر الاحمر تحيط وحدها تخم الافريقيـة الغربي والارض الافريقية منبسطة بمقع حصرا فقال يوسف لرفيقيه ما بالكما لا تتكلمان فاجاب العلامة عبارة وبنا يتطلع نحو الارض وقال الآن وقت النظر عليـنا ان ننظر ما ينبسط لابصارنا

قال يوسف اما انا فلا اطيق السكوت

فقال له سيده تكلم قدر ما تشاء فانك بالكلام جدير

وعليه طفق يوسف يُعبر عما ادركه من الانفعال بازاء كلما يعلمهُ من العاطل الهناف والعجب

وفيما هم يجوبون الجو اراد العلامة ان يلبثوا محافظين على ذلك العلو وكان امامهُ ترمومتر وبارومتر فيراقبهما دائما ليعرف على اية حالة هم في الطبقـات العلوية لان ريح القطر في هبة جانب اوربيه الشرقي

وما مضى ساعات الا اندفعت الريح بالطيارة الى فوق البادية واراد العلامة ان يقترب من الارض ليخفف حرارة الشمس فنزل حالا الى علو ٣٠ قدم فوق الارض وبعد وجدوا فوق الجهة الشرقية المعروفة باسم مريكا وهنالك اشجار باسقة ملتفة الاغصان والورق ومعرشة العروق وفي الجهة الغربية كان جبل أموزرو

قربت المصورة بقرية عرفها العلامة قرية مولة سنداً على الرسوم الجغرافية الواردة في الخريطة الكبيرة التي حملها معهُ وفيما هم فوقها سمعوا صخبا وصراخا عظيماً من سكانها وبعضهم من رشق القبة بالسهام فكانت تمس باعينهم نابتةً سهامهم وردتهم ساخرة

وما زالت الريح تدفع القبة نحو الجنوب فرأى العلامة ان لا بأس بذلك فانه تابع الطريق التي سلكها القبطانان برتون واسبيك

لما كادي خفني اخيرًا حذو يوسف واحب كثرة الكلام فاخذا يتناقلان الاحاديث ويقول الواحد للآخر حكيمك يا صاح أليس انك تكره العربات والسفن بوزنك هذه المركبة الهوائية فقال ديك حتى والسكة الحديدية فنجر وافيز عليها لان الراكب يسير لكنه لا يشاهد ما يمرّ امامهُ

فقال يوسف : قل ما احلى القبة الطيارة فانما نطير على اجنحة الهواء ولا نتعب ولا يشق علينا المسير والطبيعة منتشرة امامنا نتابعها بابصارنا متأملين ونسبح رب العالمين

قال ديك : وما اجمل هذا المنظر وما احلاه وما اهنى هذه الظلمة البهية لسري أكاد اظن نفسي غريقًا في بحر لصفات الاحلام

. فقال يوسف : ان عصافير بطني تصيح مهلاً تريدون ان نتناول طعامًا

فقال سيده : نعم ما افتكرت به فهات ما نأكل

فاحضر يوسف الطعام حالاً وهو حار ولحم مقدّد وبعدما انتهوا من الطعام قام الخادم وصنع قهوة لذيذة المشرب حسب معرفته الخاصة وذاق جميعهم لذة افراح سنية تطيب لها الخواطر

ثم اخذ كلٌّ منهم ينظر الى تلك البلاد ويتأمل بها فكانت غاية الخصب والريحان ومزدانة بوساد الخضرة والازهار ثم مرّوا بحقول مزروعة تبغًا وذرة وشعيرًا وهي بالغة ناضجة وشاهدوا ايضًا قطعان غنم كثيرة العدد محوطة عن دائرة لتبقى آمنة من غوائل الضباع وكلما مروا بسكان قرية سمعوا ضجيجًا واصوات حتى تتصاعد الى المنصوبة . اما العلامة فما زال مرتفعًا عنهم

عسالة لاتبلغ اليها السهام وكثيراً ما خفتها الناس وهم يقذفونها بالشتائم واللعنات لكنهم لايدرون ما يفعلون وما ابلد فعلهم

وبعد الظهر تطلع سامونيل بيسومة الجغرافية فرأى انهُ فوق مدينة اورازمو وفي هذه الناحية ايضاً كان الزرع كثيراً والمصار فارشة تلك الارض والطيور تصدح بالانغام على الاشجار فتمنى ديك لو انهُ استطــاع ان يصطاد منها شيئاً ولكن ما الفائدة اذ لا يطيق احضارها ولو ضربها بالرصاص

وكانت القبة الطيارة تسير مسافة ١٢ ميلاً اوتحوًا في الساعة ولم تمض مدة الا وصلوا الى طول ٢٠° ٣٨ فوق قرية طُندا

فقال فرغوسن يا رفاق انظروا فان برتون واسبيك انتابــا بالحمى في هذا المحل وظنا ان اتعابهما السالفة ذهبت هدراً ولا يستفيدان شيئاً من بعد فاذا كان التعب والضنك اعيــاها وصولها الى هـــا فكيف اذاً بتقدمهما نحو ينابيع النيل واضطرارها الى خوض البطائح والمفاوز التي لا حدّ لها ولا قياس

وكثيراً ما مرّوا باقوام متلحفــين بالكامل ووراءهم يتبعون المتصورة بقصد رشقها بالسهام . فاراد ديك مرة ان يقترب اليهم ليشاهدهم عياناً فهتفهُ العلامة وقال : ألا تعلم انهم اذا ضربونا بسهمٍ وخرقوا القبة تبدد الغاز وسقطنا على الارض متهورين

فقال ديك : دعنا اذاً بعيدين عن هولاء الحسابين ولكن يا ترى ماذا يحسبونا ونحن طائرون في هذا الفضاء الفسيح فلا بد انهم يعبدوننا

قال سامونيل : دعهم يعبدوننا عن بعد فانا بذلك نربح الاضعاف ولكن الا ترى الآن كيف تمرّ القرى والضياع فمن قريب نصل الى جبال لا سكان فيها ولا خضار

قال : في الحقيقة اني ارى بعض الاكـــام نحو تلك الجهة

قال ساموئيل : وعن قريب نرى سلاسل جبال اوريزارا وجبل دوتومي واومل ان نقضي ليلتنا وراءه ولكن ينبغي لنا الآن ان نزيد حرارة القصبة لنرتفع الى علو خمسمائة او ستمائة قدم فنجوز شرى الجبل بسهولة

ولما ارتفعوا الى العلاء شاهد يوسف اشجاراً باسقة عظيمة فقال ويلاه ما اعظمها واجسمها فان عشرة منها تكفي لان تؤلف غاباً او حرشاً

قال فرغوسن : هذا شجر البوابات فان منها ما له جزع تبلغ دائرته نحو مائة قدم وانظروا هذه الشجرة العظيمة فعليها ربط الفرنسي مزان سنة ١٨٤٥ واخذ رئيس القوم الذي القى عليه القبض في ان يقطع مفاصله شيئاً فشيئاً وكانت الخدام اذ ذاك يرتلون ترتيل الحرب ثم حسم حنجرته واحداً انتشل رأسه وكان للفرنسي مزان من العمر نحو ٢٦ سنة فاقتر على هذه القساوة البربرية التي تستنكفها القلوب ولا يطاق سمعها

قال كادي : وكيف ان الامة الفرنسية لم تنتقم لهذا الاثم الفظيع

قال ان الامة الفرنسية طلبت القاتل فعمل سعيد رنجبار ما عمل وبذل اقصى جهده فلم يحظى بالقاتل

ولما كانت الساعة السادسة ونصف بعد الظهر قابلت المنصورة جبل دوتومي فاضطر العلامة الى ان يرفع القبة الى علو ثلاثة الاف قدم وهكذا مروا بالجبل ولم يمسهم ضرّ البتة

وفي الساعة الثامنة بعد الظهر نزلوا المنحدر المقابل للجبل ورموا حينئذٍ المراسي فتعلق احداها باغصان شجرة صبار عظيمة وبقت متمسكة بها . ثم نزل يوسف الخادم بحبل المرسى ومكنه تمكيناً ولما اراد الرجوع الى الزورق أُنزل له السلم الحريري فصاد الى مكانه بكل سهولة ثم لبثوا يهيأون العشاء لان الطبقات الجوية فتحت منهم القابلية فسأل ديك العلامة وقال كم جزنا من

المسافة في هذه المدة

فأخذ العلامة يفحص عن ذلك في الرسم الجغرافي المسطر من صاحبه ترمان وهو في غاية الضبط والدقة فرأى انه انتقل الى درجتين عرضاً وهما مسافة مائة وعشرين ميلاً

وفيما هم يتناولون الطعام تفاوض بعضهم مع بعض على ان يقسموا الليل الى ثلاثة اقسام ويكون كل واحد منهم يسهر في قسم والاثنان يرقدان براحة فسهر العلامة في القسم الاول وكادي في نصف الليل ويوسف عند الفجر



الفصل الحادي عشر

في حُمّى ديك ودوائها ونزولهِ الى الارض مع يوسف طلباً للصيد

مضى الليل كلهُ بالهدء والاستكانة ولكن لما اصبح صباح السبت نهض ديك من الفراش وقد حسَّ بتصبر وخمول قوّة وربجفة حمى وكان قد تغير الفلك وتبقعت السماء بالسحب وتهددت الارض بالغيث والعواصف اما تلك النواحي المعروفة باسم تنسمر وفلا تزال فيها الامطار متواصلة في جميع فصول السنة الا في شهر كانون الثاني فانها تنقطع مدة نحو خمسة عشر يوماً

وما مضت برهة الّا هطلت الامطار وسالت السيول في تلك الوديان

فقال يوسف: وما اردى ما هذه البلاد فاني ارى ديكاً منحرف الصحة بعد مرور ليلة عليه

فقال الصياد: في الحقيقة اني اشعر بحمى شديدة

فقال سامويل: لا بدع في ذلك يا صاح لان هواء هذه البلاد من اسوء ما يكون في البلاد الافريقية وليس مرادنا البقاء فيها بل هيا بنا نسير الى اعلى الطبقات الجوية

وفي الحال نزل الخادم ورفع المرسى ثم عاد الى علوهِ ورفع سامويل حرارة النار فتصاعدت المنصورة الى الاعالي وهي مدفوعة بريح شديدة

ولما اندفع الى ما قدام اخذت البلاد في الاتسام بهيئة جديدة ومن الامور الكثيرة الحدثان في الاقطار الافريقية ان بلاداً نظيفة وحسنة الاهواء

بحم بلاداً سيئة المناخ والاهواء

وما زالت تلحى تمدب الصياد عندا انها ماقعب بالمطاف قائلا الآن ليس وقت الصحف فما لي وله

فقال فرعوس مهلا يا ديك عليك ان تتمم تحمل الصبر قليلا وعلي ان اريك مدة هذه الرحلة

فتعجب ديك من هذا المقال وقال لعمري اذا كنت طبيبا وعندك الادوية والعقاقير فارجوك ان تداويني حالا لان صبري قد عيل واحب ان اكون سالم الصحة في هذا الرحيل

قال صاموئيل سأداويك بدوا لا يكلفني شيئا

قال وكيف ذلك

قال ولا اسهل من ذلك فاني عازم على ان ارتقي فوق هذه السحب ولتصعد عن هذه الطبقة الوبائية فقط ارجوك ان تصبر علي عشر دقائق لأنشر النار

وما مضت الدقائق العشر الا ارتقت القبة فوق الطبقة الرطبة واشتم ديك نسيم هواء رحيم بعض الفؤاد فترمم حاله وراى نفسه مقبلا على الصحة

فقال يوسف لعمري ان هذه الادوية العجيبة

قال العلامة بل هو امر طبيعي لا عجب فيه

قال يوسف حاشاك اعلم منك

قال العلامة كما ان الاطباء توعز الى المرضى ان ينتقلوا من محلات الاهواء السيئة الى محلات الاهواء السليمة ليشتموا رائحتها ويتمشوا بها هكذا انا ارفع ديك الى طبقات الهواء السليم ليشفى من دائه

فقال ديك وما احلى من هذه المركبة الهوائية فانها كعكرديس ترمي

قال يوسف: لا ان تهدينا اليه

اما المرأى الذي ابسط لاعين الطائرين فكان بهياً جميلاً اذ السحب تلوي بعضها على بعض وتنعكس اشعة الشمس عليها فتجمل منظرها ثم ارتفعت القبـة الى علو اربعة الاف قدم ولم يعودوا ينظرون الارض بل شاهدوا في الناحية الغربية ذرى جبـال روبيهو وهي على حدود بلاد اوغوغو في درجة ٣٦°٢٠ طولاً. اما الريح فكان هبها شديداً وتدفع المركبة الى عشرين ميلاً في كل ساعة اما هم فلم يشعروا بسرعة مسيرهم بل كأنهم جالسون على هودج لا يحركه محرك

وعقب مرور ثلاث ساعات تم انذار العلامة فرغوس وبرئ ديك من سقمه ثم فطر بقابلية ومسرة

ثم قال: هوذا ما اعتضت به عن سلفات الكينا وعندي انه اخر مرة

قال يوسف: نعم الهواء هواء هذه الطبقات وان شاء المولى سآتي اليها لاقضي فيها آخر ايام حياتي

ولما كانت الساعة الثالثة من النهـار صحت السماء وتبددت السحـب في الافاق فشرعت المنصورة تدنو من الارض شيئاً فشيئاً واراد سـاموئيل ان يجد ريحاً تقيده الى شمالي شرقي افريقيـة فوجدها في علو ٦٠٠ قدم فوق الارض وعقب مرور برهة بان امامهم جبل

وفي تلك الساعة اخذت ذرى الصخور في الارتفاع واقتضى الحـال ان يتحذروا في كل دقيقة من رؤوس بعض الصخور التي كأنها تهددت المركبة

فقال ديك: ان قبتنا فيما بين هذه الصخور كالسفينة التي تسير بين الصخور المتوارية في المياه

قال العلامة: طمن بالك يا ديك فان هذه رؤوس الصخور لا تمسنا

فانفذت المصورة تمرّ بين ذرى الصخور والجلاميد ولا يمسها ضرر ولا عارض

ثم قال فرغوسن: لو كنا سرنا مشاة في هذه الاراضي المائية لخضنا في في بحر حماة لا مساص منهُ ولا مفر ولكانت تضورت دوابنا عياء وتعباً مُذ خروجنا من زنجبار الى هذه الناحية وكنا اصبحنا ضعفاء الجسم نحيفي البدن وهيهات ان يجلدنا الصبر ويربط فؤادنا التجلد وأنَّى مني من احصاء المصائب الكثيرة والمشاق العديدة التي تحيق بالمسافرين في النهار حرٌّ لافح مضنك يكاد المرء لا يطيق احتمالهُ وفي الليل برد قارس يلسع الجسم فلا يتمكن من مقاساته ومع هذا كلهِ لا تخلو من الذباب التي قيل عنها انها تخرق الاقمشة واذ لسعت البدن حبلت عقل الانسان هذا مع قطع النظر عن الوحوش الكاسرة والاقوام البربرة

قال يوسف: اسأل لطف المولى ان لا يرميني في هذه المهوات

قال سامونيل: لعمرك اني لم اغالي في الوصف بل اذا سمعت قصص السواح ورواياتهم في رحلاتهم الافريقية اغرتك على سكب نات العيون من الجفون

ولما كانت الساعة الواحدة قبل الظهر مروا بنعيرة إكنهي والاقوام اذ ذاك في تلك النواحي يتهددون المصورة بالسلاح فلم يظفروا بالنجاح ثم وصلوا الى الارض المموجة الكائنة قبل جبل روبهو وهناك السلسلة الثالثة السامية من جبال اورلنقارا

فاخذوا يتأملون جيداً هيئة تلك الجبال فكانت الاقسام الثلاثة مفرقة بعضها عن بعض ببطائح فسيحة وبين الصخور والجلاميد ترى الحجارة والحصى مشتتة ومبعثرة. فالجهة المقابلة لزنجبار هي ذات منحدر وعر جداً واما في الجهة

القرية فالمنحدر لا يشبهُ بل هو ساحات منحنية قليلاً ولا تخلو من الجداول التي تصب في نهر كنتاني في الجهة الشرقية حيث اشجار الجميز وتمر الهندي والنخل والقرع متكاثرة بل على هيئة رياض

فقال فرغوس : علينا الآن ان نأخذ حذرنا من هذا الجبل العالي وهو جبل دربيهو الذي تأويلهُ في عرف اولئك الاقوام (مرور الرياح) فينبغي لنا ان نرتفع الى العلاء وعلى ظني اذا ما وصلنا الى علو ٥ الاف قدم فقط فلا نجو من الخطر ولا نظفر بالوطر

فقال يوسف : وهل كثيراً ما يقتضي الحـــال ان نصعد الى مثل هذا العلو الشاهق

قال فرغوس : كلاًّ لان جبال افريقية ليست سامية الارتفاع كسائر جبال اوربا واسيا اما نحن فانا وهلا اذ لنا عرمها بقتنا دون صعوبة وعلى الاثر اسعر العلامة النار فازدادت الحرارة ودفعت القبة دفعاً هائلاً حتى اوصلتها الى علو ستة الاف قدم

فسأل الخادم سيده قائلاً : أنجوز هذا الحدّ من العلو

اجاب سامونيل : اذا كانت القبـــة كبيرة فيتمكن الانسان من الصعود الى درجة اسمى من هذه كما فعلهُ بريوسكي وغاي لوساك ولكن اخذ الدم يجيء من انفهما واذانهما وعدما التنفس وبعد مضي سنين تجرأ رجلان فرنسيـــان على الارتقاء الى الاعالي فاخترقت قبتهما . . .

فسأل ديك حالاً وقال : هل سقطا على الارض

قال سامونيل : لا شك في ذلك لكنهما سقطا سقوط العلماء الذين لا يمسهم ضرر البتة في سقوطهم

فقال يوسف : ســـادتي انكم احرار اذا اردتم تجربة هذا الامر اما انا

قنعت بما لم يل جاهل واثر ان ابقى في الحالة الوسطى وقد قيل حب التناهي غلط خير الامور الوسط ولا اود ان ابقى في علو باسق ولا في وطوء دني فان الطمع ضرّ ما نفع

ولما علوا على ستة الاف قدم لعد يخف ثقل الهواء ولم يعد الصوت ينتقل بالصعوبة كلية واختلطت الاشياء على بصرهم فامسوا لا يشاهدون الا اجرامًا غير مختلطة ولا تبين الطرق الا كشبالك والبحيرات الا كاحواض

وكان الهواء الجوي يدفعهم فوق الجبال المكسوة ذراها بالثلوج كلها باقية على حالتها الاولى من يوم خلقها المولى سبحانه وتعالى

ورسم فرغوس هيئتها وجميع ما يجاورها بتمام الضبط والدقة

ثم نزلت المصورة الى منحدر جبل روبيهو وكان هناك غاب واحراش فيها من الاشجار اعظمها والقصار اعجبها واغربها فعند ساموئيل من الارض والقى المراسي فتعلق احداها بشجرة جميز . ثم نزل يوسف ومعه بكة باعتناء وترك ساموئيل القصبة في حالة الحرارة ثم قال للصياد : اذهب للصيد انت ويوسف فعليكما ان تاخذا سلاحكما وتصطادان ما يحلو لخاطركما لتهتدي الان بين هذه الاحراش وننشرح بهجة

فنزل حالًا الى الارض ولما خفت القبة ثقلًا تمكن فرغوس من اطفاء نار القصبة

فقال له يوسف من اسفل : حذار يا سيدي ان تطير وتتركنا

فقال فرغوس : كن على راحة بال فان القبة متمكنة جيدًا فاذهبا بالسلام فاني اتمنى لكم النجاح والتوفيق ولكن كونا على حذر دائمًا واذا ما دهمني داهم فاني اطلق الرصاص حالًا فيكون ذلك علامة لاقتضاء حضوركم السريع . وهكذا تم الاتفاق وانطلق الاثنان للصيد

الفصل الثاني عشر

في هجوم السعادين على القنة الهوائية
ووصول المسافرين الى كاره

اما الارض التي كانوا يسيرون فيها فمسكات من فخار وهي تتشقق من الرمضاء (شدة الحر) وشاهدوا فيها بعض آثار القوافل وشيئاً من عظام الحيوانات والناس معاً

وبعد ما مشوا نحو نصف ساعة ولج يوسف وديك غاباً ذات اشجار متنوعة وهما يرصدان طيراً ام حيواناً آخر ليصطاداه ولم يكونا يعرفان ما هي اجناس الحيوانات والطيور الموجودة في تلك النواحي .

فقال يوسف : ان لنا نفعاً في مسيرنا على اقدامنا ولكن يا ليت هذه الارض سهلة وحسنة الانتظام

اما ديك فأومى اليه بالسكوت والوقوف لانه نظر عن بعد بعض الحيوانات الشبيهة بالايل واراد ان يكمن لها لكنهُ لم يدنُ منها قليلاً الا احست بالخطر المحيق بها . فكانت واردة مورد الماء تستقي منهُ فعند احساسها بدنو عدوها شرعت تلعق لعقةً وتنظر الى الهواء اما ديك فتوارى عنها ودار حول صخر ثم اورى زناد سلاحهِ فولت جميعهنَّ مدبرات ولم يصب سهمهُ الا واحدة منهن فسرَّ سروراً بليغاً بهذه الغنية الفاخرة ولما اقترب اليها رأى لونها ضارباً على الزرق واللون الرمادي وبطنها مع ساقيها ذات لون ابيض اشبه ببياض الثلج

قال ديك لصاحبه : قد هذه الاوان ما اجلها فان مرادي حفظ جلدها

قال يوسف : ولماذا يا ديك

قال ديك : أما ترى هنا الماء والظلال

قال يوسف : اما ترى انت ان هذا حمل يثقل على صاحبنا فرغوس لذ انهُ يفسد موازنة قبته

قال ديك : هذا صحيح ولكن يشق عليَّ ترك هذا الحيوان

قال يوسف : كلاّ لا نتركهُ كلهُ بل نستمتع منهُ اولاً ما بقيتنا ويسعنا ثم نترك ما تبقى واذا شئت هيأت لك الان الحيلة

قال ديك : افعل ما تشاء وتريد وانا ايضاً لا يصعب عليَّ تهيئة طعامه كما لا يصعب عليَّ صيدهُ بالرصاص

قال يوسف : لا ريب في ذلك ولكن اتركي الحمل الان هنا التعب فيما تهيأ لي وجاقاً على ثلاثة حجارة وبعد ذلك تتكلف خاطرك بجمع قليل من الحطب لنورث النار ونشوي عليها الكباب

قال ديك : على الرأس والعين فان جميع ما امرت به يتم برمشة عين واخذ حالاً بانشاء الوجاق ولم تمض برهة الا جمع الحطب واشعل النار فصعد لهيبها وطار شرارها وكان يوسف قد انتشل من جوف الحيوان السلسلة وغيرها من الكباب الطرية وجعلها على النار لتشوى

وفيما هما على هذه الحال قال ديك لرفيقهِ : أتعرف ما خطر في ذهني

قال ديك : خال في ذهنك ان الكباب ستنضج عن قريب وهي شهية للطعام

قال يوسف : كلاّ بل طرق ذهني فكر وهو انهُ ما عسى يحلّ بنا لو

فصنا ولم نشاهد القبة الطيارة

قال ديك : وما هذا الفكر الذي تفتكر به أتظن فرغوس يترككنا في هذه البلاد

قال يوسف : كلاً فليس الامر كذلك ولكن على فرض ان المرساة فلتت من الشجرة فترتفع القبة ويصعد معها مولاي

قال ديك : ومن المحال ان يفلت الاخر على هذا المال وهبهُ جرى فان السلامة سينزل في مكان اخر لينتظرنا ولعري ان آلتهُ من افخر الالات واحكمها ترتيباً وانتظاماً

قال يوسف : ولو هبت ريح شديدة فانها تدفعهُ الى حيث لا يمكننا الوصول اليهِ

قال ديك : ارجوك الصمت يا مبشراً بالسوء فان حديثك هذا لا يبسط الخاطر

فقال يوسف : يا سيدي ان جميع ما يحدث في هذا العالم هو طبيعي والمحال كل امر قابل للحدوث فاذاً ينبغي على المرء ان يأخذ حذرهُ قبل فوات الفرصة

ولم يتم ديك من التفوه بهذه الكلمات الّا دوت طلقة بارودة في الافاق

قال ديك : مَه مَه يا يوسف . ما الذي نأب فرغوس ليطلق الرصاص

قال : ربما لحق بهِ خطرٌ علمَ اليهِ راكضين

فجمع الرفيقان ما كان جوزه من الصيد وعلقا على المسير نحو القبة الطيارة وكانت الاشجار المتكاثفة في ذلك الغاب تمنعهما عن مراقبة القبة عن بعدٍ ولم تمضِ برهةٌ الّا أُطلقت رصاصة اخرى

فقال يوسف الحب العجيب الظاهر ان للفكتوريا تجذب علينا العجم كيف ترى يا خليلي

قال هلم فلنسرع واظن انه يدافع عن نفسه

ولما قطعوا الغاب شاهدوا القبة الهوائية مرتبكة في محلها والعلامة صاموئيل جالساً على مركبته

فقال ديك ربي ما هذا وما الذي خطر ببال فرغوسن

فقال يوسف اما ترى هؤلاء السودان المحيطين بالقبة

فتطلع ديك جيداً فشاهد عن بعد نحو ثلاثين شخصاً يزحم بعضهم بعضاً وهم يعربدون ويصيحون ويتسلقون على شجرة الجميز ومنهم من كان قد ارتقى على الشجرة واخذ في التقدم نحو الاغصان العالية فكان الخطر على القبة مبينا

فقال يوسف اواه ما هذا الخطب لسيدي

قال ديك لاتخف بل اسرع في مسيرك وهرول ركضاً فانا بحوله تعالى سنبدد شمل هؤلا الاعدا قبل وصولهم الى فرغوسن هيا بنا هيا

ثم أطلقت رصاصة اخرى فاصابت حبشياً كان يتسلق على حبل المرساة وفي الحال شاهدنا جسماً ما يتساقط من غصن الى غصن الى ان بلغ علو عشرين قدماً من الارض فبقي جسمه في الهوا وبرزت ذراعاه ورجلاه تضطرب في الفضا

فقال يوسف يا ويلاه وباي حبل يعتصم هذا القرد الصغير

قال ديك مالك وله فقد قربنا من القبة

قال يوسف وهو يقهقه ضحكاً أما ترى يا ديك انه معتصم بحبل ذنبه فانه سعدان وجميع هؤلاء السود هم سعادين

وفيما هما يتساقلان هذه الاحاديث اذا وصلا اليهنَّ فدخلا فيما بينهنَّ ورياهنَّ شرذمة من الصيادين البائتين في التوحش والبربرة ولهنَّ انياب هائلة كانياب الكلاب فأخذا يطلقان عليهنَّ الرصاص فبددا شملهنَّ وطرحا على الحضيض كثيرًا منهنَّ

ثم دنا كادي من القبة وارتقى الى المركبة على السلم واما يوسف فتوارى بين اغصان الجميز ليحل المرساة ثم اقترنت اليه المركبة فحلها بسهولة وفي الحال ارتفعت القبة الى الاعالي واتجهت نحو الشرق بقوة هواء لطيف

قال يوسف: لقد نجونا من معركة شديدة

قال ديك: كنا قد ظننا انك مخاطط بقوم من السودان

قال فرغوسن: ولا يختلفون عنهم كثيرًا اسمًا وفعلًا اذ لهم سحادين

قال ديك: لا يمكن تمييزهم عن بعد

قال يوسف: حتى ولا عن قرب

قال فرغوسن: وعلى جميع الاحوال فانا نجونا الان من خطب جسيم لانهُ لو فلتت المرساة من الشجرة بحراك السحادين فلا اعلم الى اي جهات تنقلني الرياح عنكم

قال يوسف لديك: اما قلت لك ذلك من برهة

قال ديك: لقد اصبت في ظنك هذا ولكن لا يخفى عليك اني كنت وقتئذٍ مهتمًا بتجهيز طعام الصيدة ومشتاقًا لتناول ذلك الطعام الشهي الناضج

قال فرغوسن: بالحقيقة ان لحم هذا الحيوان الشبيه بالايل لذيذ وتشتهي النفس اكلهُ

قال يوسف: ذُق منهُ اذا شئت يا سيدي فانهُ حاضر واحكم لنا بصحة الامر

قال الصياد : نعم ان هذه الحيوان وحشية لكنها ثابتة محتجزة ولا تهجها المعدة

فقال يوسف وهو يأكل : لعمري اني ارضى بان يكون لحم هذا الحيوان قوتي اليومي الى اخر يوم من حياتي ولكن ما الذه اذا كرع معهُ بعض جرعات من العرق اللذيذ ليحسن هضمهُ في المعدة

وفي الحال احضر شيئاً من هذا الشراب وناول رفاقه ثم تجرع حصتهُ وفي تلك الساعة سأل فرغوسن صاحبهُ ديك وقال قل يا صاح ما رأيك الان هل ندمت على مرافقتنا

فاجابهُ ديك وقال : لعمري ما من احد كان يطيق ان يمنعني عن مرافقتكما ومساعدتكما

وكانت تلك الساعة الرابعة بعد الظهر فهبت ريح واسرعت المركبة مسيرها فكانوا يشاهدون الارض كأنها ترتفع امام اعينهم فنظم البارومتر على انهم في علو ١٥٠٠ قدم فوق مساواة مياه البحر فاضطر العلامة الى ان يزيد حرارة القصبة لئلا تقترب القبة من الارض وعند الساعة السابعة حامت القبة فوق بحيرة كيليه وعلم فرغوسن من رسومهِ الجغرافية انهم في اراض تأسست فيها حديثاً بعض القرى المشتتة بين اشجار البوباب وغيرها وهناك مقر احد سلاطين اوغوغو حيث خف التوحش على وجهٍ من الوجوه . لانهُ قلما باع فيها احدٌ عضواً من عيلتهِ . اما الناس فيسكنون هناك مع البهائم وليس لمنازلهم ترتيب ولا انتظام بل كأنها اكواخ حقيرة تُشبه كراديس عشب يابس

وبعد ان جازوا بحيرة كيلمه مرُّوا بأرضٍ صخرية ومحجرة الى ان بلغوا ارضاً ذات خضارٍ وزرعٍ وطيبٍ ولكن كان الهواء مستكناً ورأيت القبة واقفة غير متحركة

فانتهز العلامة هذه الفرصة الملائمة ليقيم الليل كله في الجو اذ ليس ما يحرك قبة فيستريح ورفاقه في الطبقات العلوية باستكانة وطمأنينة ولذا قد انتفع عما كان عليه علو القب قدم فكانت السماء اذ ذاك رائقة وفي كبدها تتلألأ النجوم والكواكب فسبح الجميع مولاهم على عجيب خلائقه ورقد الصياد مع يوسف لان النوبة الاولى كانت على فرغوسن ولما دخل نصف الليل ايقظ فرغوسن ديكسكا وفوّض اليه المحافظة واوصاه ان يكون حريصاً واعياً في وظيفته وعهد اليه ان اذا دهمهُ ادنى عارض عليهِ ان يستوقظه حالاً من فراشهِ وقال له اياك ان ترفع لحاظك عن البارومتر لانهُ لنا بمنزلة البوصلة

اما الهواء في تلك الليلة فكان بارداً لان ميزان الحرارة نزل ٢٨ درجة عن حرارة النهار وما زالت الحيوانات الكاسرة من مرابضها هرباً من الجوع والعطش تضج وتصيح اثناء الليل والضفادع تنق في مراقدها وابن اوى يضج ويعوي

ولما اصبح الصباح واستفاق الرفاق من الرقاد نظر فرغوسن الى البوصلة فعلم ان الهواء تبدل وتغير اتجاه القبة الطيارة لانها منذ ساعتين من الصباح اختطت مسافة ثلاثين ميلاً في الجهة الشمالية الغربية وتطلع برسومه الجغرافية فعلم انهُ مارٌ ببلاد مابنغورو المحجرة وقد شاهد المسافرون فيها من صخر السيناء ذات الصقل الجميل وصخوراً كثيرة محددة ومتنوعة البناء والخطوط وعظاماً مشتتة ومبعثرة من الفيلة والجواميس ولم يشاهدوا فيها شجراً بل عن شمالهم قامت احراش وغابات ممتدة ووراءها بعض القرى والضياع

وعند الساعة السابعة تراءى لاعينهم صخر مستدير ذات مسافة ميلين شبيه بترس سلحفاة عظيمة

فقال العلامة فرغوسن: الحمد لله انا في سبيل الهدى طريقاً مستقيمة

وما هي بلاد جيهو لمسكوا فلي رغبة في ان اصل بها بعة لاجدد زاد الماء الضروري لآتي فغريب لذا ان نتعلق بمكان

فقال ديك: قلما يوجد اشجار في هذا القفر

قال: علينا ان نجرب علنا نتعلق بخلل صخر واوعز الى يوسف ان يلقي المراسي فالقاها ولما كانت القبة قد فقدت شيئاً من قوتها الرافعة دنت من الارض واذا بمرساة تمسكت بثقب صخر فوقفت المصورة ثابتة غير متحركة

فلا يظن القاري انهُ صاع للعلامة اخماد الحرارة في حالة وقوفه لان موئنة القبة حسبت على مساواة سطح البحر ولما كان ان تلك البلاد هي في ارتفاع وقد ملقوا فيها علو ٦٠ الى ٧٠٠ قدم عن سطح البحر فعلى هذا المنوال كانت القبة تميل الى النزول وقد التزم العلامة ان يترك الغاز شاعلاً قليلاً ليحافظ على لموتهِ في ذلك العلو من الارض

وقد نظر العلامة فرغوسن الى الرسوم الجغرافية فعرف انهُ في الجهة الغربية من سفح بلد جيهو لمكوا حيث يوجد بعض غدران ماء فذهب اليها الخادم وحده حاملاً برميلاً صغيراً وقد شاهد المحل الذي دلهُ عليهِ فرغوسن فملأ البرميل واتى بهِ الى المركبة بعد مرور نحو ثلاثة ارباع الساعة ولم يشاهد في طريقهِ شيئاً غريباً خصوصياً الا حفراً واسعة لايقاع الفيلة وقد كاد يهوي في احداهن

وقد احضر معهُ جنساً من الرسيم وهو حضرة كانت تأكلهُ السعادين بتلهف فعرف العلامة ان هذه الخضرة تعرف بافريقية باسم امبنبو وهي كثيرة الوجود في نواحي جيهو لمكوا الغربية وقد انتظر فرغوسن خادمهِ بقلق لانهُ كان يخشى من طارئ يطرأ عليهم في تلك البلدان التي لا يراعى فيها ذمام الغريب وليس لهُ امان على نفسهِ

ثم وضعوا البرميل في المركبة بكل هيئة لانها كانت قريبة الى الارض

كثيرًا وبعد ان رفع يوسف المرساة طلع الى المركبة وجلس امام سيده فأضرم لهيب القصبة وامتد الغــاز واندفعت المنصورة سائرة في طريق الرياح وكانت المركبة اذ ذاك بعيدة عن مدينة كاره ذات الاهمية العظمى في اواسط افريقية نحو مائة ميل وقد ربما المسافرون ان يصلوا اليها في النهــار ذاته نظرًا لوجود الرياح الجنوبية الشرقية وكانت المركبة تسير مسافة ١٤ ميلاً في الســاعة ولكن قد صعب على فرغوسن في تلك الدقيقة ادارة مركبته لانهُ لم يكن يمكنهُ ان يرتفع الى علوٍ شاهق بدون ان يمد الغاز كثيرًا لان تلك البلاد كانت شاهقــة الارتفاع وعلوها الاوسط ٣٠٠٠ قدم فبذل ساموئيل غاية مجهوده' لان لا يمد الغاز كثيرًا وقد مرَّ بجبال واكام كثيرة ثم بقريتي طمبو وتوراوليس وهذه القرية كانت ببلاد اويتام وارى فيها الاشجار الباسقة ومنها شجر شبيه بالصبير يرتفع الى علو شاهق

ولما كانت الساعة الثانية بعد الظهر وكانت السماء صاحية حامت المنصورة فوق مدينة كاره الكائنة في مسافة بعيدة عن ساحل البحر ثلاثمائة وخمسين ميلاً

فتطلع فرغوسن وتنبه في مفكراته وقال رحلنا من زنجبــار الساعة التاسعة صباحًا وبعد ان سرنا يومين قطعنــا مسافة ٥٠٠ ميل جغرافي اما القبطانان برتون واسبيك فلبثا مقيمين اربعة اشهر ونصف يسيران في الطريق نفسها التي مررنا بها

الفصل الثالث عشر

في مدينة كانو وسوقها واولاد العبيد وهيئة رقصهم وعادة قوم تلك البلد لوصف وظهور نسر في النجمة السماوية

اما كانو فليست بمختصر الكلام مدينة (لان ليس مدينة في اواسط افريقية) بل هي معسكر ذات اهمية حربية في افريقية الوسطى لكنها ليست الا مجموع ست اودية ومنها عدة اكواخ تأوي اصحابها وشاهدنا بعضاً منها محاطاً ببساتين مزروعة بصلاً و طماطة وباذنجان وحنا (شبه الكتانة) وغير ذلك مما يروق للخاطر . اما اويساوازي فهي بلاد القمر ولا تخلو من الخصب وجمال المنظر وفي وسطها مقاطعة اوبيه عبيه وهي بلد جميلة ايضاً وهناك يقيم بعض آل عمان من عرب الغرباء الذين يتاجرون بالعاج والسلاح والعبيد مع بلاد العرب والقوافل تأتيهم ببضاعة الصحة وغير ذلك مما هو غالي الثمن لانهم عائشون مع نسائهم وعبيدهم بهناء البال وطيبة العيش ولا ينغص عيشهم حادث من طوارق الزمان فيتسامرون ويمرحون ويرقصون اثناء الليل واطراف النهار ولقد شاهدت اكواخاً كثيرة حول تلك الاودية واسواق واسعة لعرض البضائع يحيط بها اشجار كثيرة وهناك محل اجتماع القوافل فان منها ما يأتي من الجنوب مصحوباً بالعبيد والعاج ومنها ما يأتي من الجهة الغربية مصحوباً بالاقطان والادوات الزجاجية لاقوام البحيرات العظيمة

وهنا ترى في تلك الاسواق اضطراب مستديم وضجيج وزعاق ولغط غريب فانك لا تنقطع رنة الا وتسمع صراخ المكارين وطقطقة الطبول والزمور ودقدقة الدواب ونهيق الحمير وغناء النساء وزقزقة الغلمان وصدمة الجدار زئير النائمة

وشاهدوا تلك المصانع المزوقة من العاج واسنان الفيلة المشرفة والمسل والقطع وغير ذلك من الاشكال المحسنة

في الساعة وللحال عند ظهور القبة الهوائية فوق كاره بطلت الصنعة وزال الصراخ وفر كل من ذلك القوم الرجال والنسا والعبيد والتجار والغربان والزنج مهرولاً الى كوخه ليختبئ فيه ولم يعد احد ظاهراً للوجود

فقال ديك لفرغوسن اذا اتت قبتنا دائماً بهذا المفعول فتصعب علينا جداً تمكين العلاقات التجارية مع مثل ذلك القوم

قال يوسف ولكن اما تعطى ان لنا الان معاملة تجارية سهلة جداً وهي ان ننزل بهدو وطمانينة الى الاسوق ونحمل ما نحب حملاً وغلا قيمة من دون ان نعامل التجار وبهذا نصبح من الاغنيا الموسرين

قال فرغوسن سلماً لك انه الغبيا الرعبة في اول وهلة على هؤلاء الاقوام ولكن لا شك ان نرى للجميع راجعين سوا كان باعتقاد باطل ام رغبة معرفة ما شاهدوه

قال يوسف هذا رأيك يا مولاي

قال لا شك في ذلك وعن قريب ترأهم مقبلين ولكن حذار من ان نقترب اليهم لان قبتنا ليست قبة مصفحة ولا مدرعة بل اذا اطلق علينا ضربة رصاص ام اذا سلنا نبل وحربة صرنا هلكنا لا محالة

قال ديك الاتعزم على ان تخاطر هؤلا الافريقيين

قال فرغوسن بلى اذا سمحت لنا المقادير لان مدينة كاره لا تخلو من التجار والعربان المتقدمين والمتمدنين وانا اذكر جيداً ما حكي عن برتون واسبيك لهما بالاضافة حسنة من سكان المدينة فترى اذاً انه لا يوجد مانع للدخول بينهم والمحادثة معهم

ولما اقتربت المنصورة من الارض تعلقت احدى مراسيها براس شجرة عالية قرب محلة السوق

وفي تلك الساعة ظهر القوم وخرج كل من خبائه لكنهم لم يخرجوا الا قليلا قليلا بحرص واحتراز

ثم هرول بعض السحرة المعروفين عندهم باسم ومغنغا وهم حاملون القرع المشحون بالشحم والاصداف وغيرها من الاشياء المشهورة بقلة نظافتها

ولم تمض برهة الا وازدحم القوم واحاطت بهم النساء والغلمان وصحبت الطبول بضوضاءها ثم رفعت الايدي نحو السماء

فقال فرغوسن : هذه عادتهم في الدعاء والتضرع وعلى ما ارى فانه عن قريب يصير لنا الهيبة جزيلة عند هؤلاء الافريقيين وانت يا يوسف لربما ستمسي عندهم الها

قال يوسف : لا ازهد في مثل ذلك الامر ولا اكره رائحة البخور

وفي تلك الدقيقة قام احد السحرة المعروف باسم ميانغا واوى الى الناس بالسكوت فسكتوا جميعهم ثم تقدم نحو المسافرين في المركبة وخاطبهم بلغة مجهولة لديهم فلما لم يفهم فرغوسن كلامه تفوه على الفور ببعض الالفاظ العربية فاجيب على كلامه بهذه اللغة ايضاً

ثم خطب امامه الساحر خطابا طويلا انيقا فخص فرغوسن من مآله ان هؤلاء القوم اتخذوا المنصورة نفس القمر وان هذه الالهة المحبوبة تنازلت ان تدنو منهم مع اولادها الثلاثة وان هذا لشرف عميم شمل تعيف سكان تلك المدينة فاصبحوا لها من الممنونين ومعروفها هذا لا ينسى من تلك الارض المحبوبة من الشمس

فاجاب فرغوسن بامارات العظمة والكبر وقال : فليكن معلوماً عندكم ان

القمر يطوف حول بلاده مرة كل الف سنة اذ انه يرغب في الظهور لامين عابديه ويريد منهم ان يعرضوا لحضرته الالهية ما لهم من الحاجات والضرورات ولا يتكلوا ويتمسكوا في توسلاتهم بل يجب ان تكون غير مشوبة بالخرع والخشية

فقال الساحر ان سلطاننا (ويعرف باسم موالي) قد انس فراش المرض منذ سنين عديدة فالتمسنا منه التوسل الى جلالة القمر ليرى بحاله ويدعو اولاده يشرونه بحضورهم اذا شاؤوا

فلم فرعوس رفقاه تلك الدعوة فقال الصياد وهل مرادك ان نسوحه الى عند هذا الملك الحبشي

قال وما المانع فاني ارى هؤلاء القوم حسني الالتفات نحونا ولا يأتونا بضرر وما ان الحوراس فلا نخاف على مركبنا

قال ولكن ماذا تصنع هناك

قال فرعرس لا تخف فاني اقضي شغلي بشيء من الادوية الطبية الموجودة معي

ثم التفت نحو الجمع وقال لهم اليوم حين قلب القمر على سلطان بي اويام واري وما تخاطره ان يسلمنا دون شانيا لنا به فليكن اذا سامحا لاقاتنا لانا ذاهبون اليه

فصحت حينئذ اصوات هؤلاء الرهط بالصفا والمعاق واخذوا في المسير الى البيت الملوكي

ثم قال ساموبيل لرفاقه يجب ان نكون على حذر واهبة للرحيل اذا اضطررنا لترك هذه المدينة فالاحق ذلك في المركبة محافظا على ما يكي من القوة الرافعة بواسطة القصبة اما المرساة فهي ممكنة غاية التمسك ولا نخشى

عليهما وانا نازل الى الارض ويلتقي يوسف الى عند طرف السلم وهنالك يستريح على خاطره

قال الصياد وهل تذهب وحدك لبعد ذلك المشي

قال يوسف الا تريد يا سيدي ان اتبعك الى النهاية

قال وعوس لا اقتضاء لذلك فان هؤلاء القوم ظنوا ان الهم القمر أتى لزيارتهم فاذا شاهدتم هنا الناظر لا يمكنهم مصرنا فارجوا ان كلم وليبق كل منكم محافظا على وظيفته

فقال الصياد سمعا وطاعة يا ايها الالي

فما صراخ القوم قد اخذ في الازدياد وكانوا يطلبون ان القمر ليقضي وطرهم

قال يوسف وما هذا الامر الظاهر انهم متعجبون نحو الهم واماه

ثم نزل وعوس من مركبه واخذ معه بعض الادوات المقوية وسار يوسف امامه وانواع العظمة والوقار لائحة على محياه ثم جلس عند طرف السلم وقعد على ركبتيه حسب الزي الشرقي فاحاط به قوم من الافريقيين باحتشام لائق

فما العلامة وعوس فسار وراء الآلات الموسيقية الشادية بانغامها الشجية (وقد دربها) واحاطت به السحرة وغيرهم من المحترمين وما مشوا قليلا الا وجد ان السلطان الذي كان وحيد الارث الشرعي دون اخوته الشرعيين علق وجد لأن القمر اتما وعوس فانهضه حالا بحركة لطيفة ثم مشي معهم في تلك الطرقات المظللة بانواع الاشجار والنباتات وما مضت ثلاثة ارباع الساعة حتى وصلوا الى سراية السلطان الكائنة في سفح أكمة وهي نوع من البناء المزخرف لدى اهل تلك البلاد باسم ابنتيبا وحول جدرانها قطع

حجارية منها على هيئة رسم انسان ومنها ما كان أحسن انتظاماً وهو على هيئة الحيات واما سقف المنزل فمفصول عن الجدران ممتد والهواء يتلاعب في المخدع من ذلك العلو لان الشبابيك غير موجودة فيها والباب يكاد يستحق اسم باب لصغره وهيئته الغريبة ولما بلغ فرعوس الى ذلك المحل لاقته الحمراء ورجال الدولة عند الاستقلال وكانوا جميعهم اناسا يمثلون حسنا هيئة اقوام افريقية الوسطى ذات بنية حسنة وقوة مشهورة ومرح سامي وشعورهم مجدولة على هيئة الصفار مسدلة على اكتافهم وخدودهم مخططة بالحمرة والسواد والزرق من الصداغ حتى الفم وعلى اذانهم المدورة قطع خشب مستديرة والواح عراة سندروسي ولباسهم مزركش وما ن وكانت الخدود واقعة وهي حاملة القسي والاسنة والقوس والسيوف النحاسية المذهبات

فدخل العلامة ذلك البلاط الملوكي وما زال الصراخ والضجيج قائما عند دخوله زمانا عن تخت السلطان بحفاف السقم وشاهد عند اسكفة الباب اذناب ذئاب ونواصي اعيار (جمع عير وهو الحمار الوحشي) معلقة على طلاسم حربية فلاقاه جمٌ غفير من نساء السلطان وهن يضربن بالطبل ويزمرن بالمزمار وكثيرٌ منهن ديجاب في الحمال يشربن الدخان بالغلايين المصكرة السود وهن ضاحكات لا يكترثن بشي وقد لقب بين اثوابهن المزينة قطع من الخرج والالياف المسدلة على حقويهن رحا

لكنه خطط بين سنة لم يكن فارحات اقل من سائر رفيقاتهن وان كن معدات لان يجعلن في القرحيات مع السلطان عند مماته

وبعد ان دقق فرعوس ملاحظة عين جميع ما ترآى لديه تقدم نحو تخت السلطان المصنوع من خشب وشاهده رجلاً بالغاً سن الاربعين سنة وقد طرحته في الفراش ودمته السكرات المختلفة ولا يمكن ابراؤه بدواء وعلى

للمخصوص لان المريض قد مات منذ سنين جمة وكان هذا السكير البائس قد اضاع حواسهُ وزال ادراكهُ ولو جُمع له جميع نشادر العالم لما كان كافياً لان يعيده الى حسه

وفي مدة زيارة ابن القمر لجلالة السلطان جرت النساء ساجدات له وتحت ظهورهن فاخرج العلامة شيئاً من الدواء القوي الذي كان معهُ ونشق منهُ السلطان فتحرك جسمه قليلاً ولما كان قد مضى عليه بعض الساعات ولم يبد ادنى حركة تدل على بقائه في قيد الحياة سر القوم بالحركة التي بدت منهُ في تلك الدقيقة وضجوا بالصراخ علامة الشكر والمسرة واجلالاً للطبيب السماوي

وعلى الاثر ارتد يوسف عن المريض واتسع فسحة بين هؤلاء القوم المزدحمين حولهُ وسار قاصداً مقصورته لان الساعة كانت وقتئذٍ السادسة بعد الظهر

اما يوسف فكان منتظراً سيده بكل طمأنينة وراحة بال عند سطح السلم وحولهُ قوم من تلك المدينة يقدمون له واجبات الاكرام اللائق بابن القمر

وكان هيئتهُ مشوشة مع عاديه الحدقتين وهو يخاطبهم باحاديث لطيفة من جملتها ما كان يراجعهُ لهم بلغته الانكليزية قولهُ هذا اعبدوني اعبدوني يا ايها الرجال ويا ايتها السيدات لاني شيطان لطيف رقيق الحاشية وان كنت انا للقمر

وقد قدم له هؤلاء القوم الهدايا استعطافاً لسمو ذاته الالهية واستعطافاً عن ذنوبهم وكانت تلك الهدايا بعض سنابل من الشعير وشراباً معمولاً من الشعير ايضاً فاضطر يوسف الى ان يذوق شيئاً قليلاً من هذا الشراب ولما

حسكان بما فيه الصحوة تأثر منه وكشر عن اسنانه لشدة مرارة فحسب القوم تلك الكشرة تبسماً لطيفاً رائقاً

وكانت الشابات تترنم باصواتهن الرخيمة في ذلك المحفل البهيج وبعض من كن يرقصن الجر رقصة عندهن

فقال يوسف ما لي اراكن ترقصن وانا لا ارقص فاطرب اذاً لتعلمن كيف الرقص في بلادنا

واخذ من ثم ان يرقص رقصة مضحكة وهو يدور ويحوم ويهز رجليه ويديه وركبتيه ويتلوى وينعطف ويقف برهة ويكشر عن اسنانه وهكذا ارى للقوم الافريقيين كيف ترقص امة التمر

فما فرغ يوسف من حركاته واطواره الغريبة الا نهض كثيرون منهم رجالاً ونساء ولما كانوا مطبوعين على التقليد بنوع غريب كما يقلد السعادين اطوار الانسان شرعوا في تقليد اطوار يوسف من الدورات والحركات والتكشير عن الاسنان ورأيت من ثم هؤلاء الهمج قد هاجوا وماجوا وعربدوا وازبدوا وفيما هم على تلك الحال اذا اقبل فرعوس متجهاً نحو مقصورة وكان الافريقيون حوله يراقبونه صارخين وعيونهم ورؤوسهم مضطربون اما هو فيسرع في مسيره وقد تعجب يوسف غاية العجب وظن نفسه عسى ان السلطان هلك من مداواة طبيبه الساري ويتهددونه ليلحقوه به

وشاهد ليبا كادي اضطراب القوم وشغبهم ولم يفهم السبب ثم اقترب العلامة الى سطح السلم وكان القوم صادرين عن المقصورة لشخصه لاعتقاد باطل ما زال يخالج صدورهم وكان ذلك حظاً لفرعوس اذ به تمكن من النزوع الى السلم و به الى المركبة واتبعه خادمه في الحال

فقال فرعوس ليوسف هلم واسرع فان الوقت قد ضاق بنا ولا تكترث

حبل المرساة لان مرادي ان اقطع الحبل واترك المرساة

فقال يوسف وهو يتسلق المركبة وما الذي جرى وما عسى ان هؤلاء القوم

ثم قال ذلك وهو حامل سلاحهُ متــاهباً لاطلاق الرصاص اذا لزم الامر قل يا صاح وما بال هؤلاء البرابرة

فقال ورموس لرفيقيه انظرا الى الاعلى

فقالا وما الذي هناك

قال ورموس هناك القمر فاشار الى القمر الوردي المتلألي الظاهر في كبد السماء الاروردية فلا شك ان ذاك القمر المالوف

فاحتار القوم وقالوا في انفسهم اما انه يوجد قمران في الدساحة الزرقا واما ان الرفاق الثلاثة ما هم الا خداعون ومكارون وليسوا ابناء القمر حسكما توهمــا

ولهذا لما راوا ان العلامة قد تملص من ايديهم وكاد يطير في الطبقات العلوية رموا الاسنة والحراب وتاهبوا ليطلقوها على العة فقام احد السحرة واوعى اليهم ان لا يبدوا حركة فارل عليهم الســلاح ثم تسلق الشجرة وعزم على ان يمسك حبل المرساة وهو المرسكه الى الارض فمسك يوسف في الحال سكيناً وسأل مولاه وقال هل اقطع الحبل

فقال ورموس انتظر قليلاً لاني امل حفظ المرساة ومتى اضطررنا الى قطع الحبل فلا يمنعنا مانع حتى ولا هذا العبد المخادع

وفي تلك الدقيقة كان هذا الساحر يعد الاغصان التي هي حول المرساة فخلصت هذه حالاً ولما كانت الفة ذات قوة رفعة جذبت المرساة وجرتهــا اليها وجرت معها العبد الاسود الراكب على المرساة كانهُ على حصان ذات

اجنحة وطار السكين مع المسافرين الى الطبقات العلوية

فاندهش القوم اندهاشاً لا مزيد عليه عند معاينتهم احد مغاربتهم طائراً في الاهوية

وكانت الفسة بقوتها الصاعدة قد ارتفعت الى علو شاهق فقال ديك لا بأس من رحلته رحلة في هذه البلاد لانها توليه اشتراعاً تسيير الهواء

فسأل الخادم سيده وقال هل يرجى هذا الاسود على العود

قال فرعوس حاشا ليس هذا من دأبنا ولكنا مقترب من الارض بعد برهة وجيزة بكل هدو وراحة واري انه بعد هذه الحادثة الغريبة سيعظم شأنه لدى قومه وتزيد قوته السحرية عندهم

فقال يوسف وربما يصدقونه كالاله

وكانت الفسة قد بلغت علو الف قدم والعبد الاسود مستمسك بحبل المرساة استمساكاً شديداً وعيناه شاخصتان بالمركبة وهو ساكت ولهان

ولما ابتعدت الفسة عن المدينة خفف العلامة حرارة الفسة ودنا من الارض فلما راى الساحر نفسه قريباً من العرصة هوى بنفسه من علو عشرين قدماً وولى الادبار قاصداً مدينته كان خف حينئذ ثقله عن المركبة وارتفعت حالاً الى الجو



الفصل الرابع عشر

في العاصفة الشديدة والنجاة منها وفي ارض بلاد الصغر الارضية وسطحها

فقال يوسف هوذا قد تنبأنا للقمر بلا استناد ما فانا ما كنا نقع بين ايدي البرابرة ونذهب فريسة لتوحشهم ولكن لم تقل لنا يا مولاي هل لم تحس تطيبك خلالة السلطان تحت مقام القمر عندهم

وسأل ايضاً ذلك العلامة وقال هات اخبرنا عن ذلك السلطان الجليل الشاب

قال فرعوس ان السلطان رجل نشوان سيوصله سكره الى دركات المنية عن قريب ولا يتأسف احد على فقده اما ما يتعلق بما جرى اعاصو ان كل عقد رسمي زائل لا يلزم الانسان ان يلتصق به اسفاً عليه

فقال يوسف ان كان ذا امراً يوافقني فاني قد نلت اجلالاً وتبجيلاً فائقي الحد واصبحت الذا على خاطري تحسدني القمر على ذلك وظهر حالاً في الافق ملوناً بالاحمرار وهذا مما يدل على انه قد ساءه صنيعنا

وبيناهم يتساقطون هذه الاحاديث اذا شاهدوا عن بعد سحاباً وضباباً كثيفاً يتراكم ورياح عصفت معاً وهو مقبل من الشمال ثم عصفت ريح مدفعت الة الى بين الشمال والشرق اما الذبابة الزرقاء التي فوق المركبة فكانت رمته لا تنجذب منها ولا تصل الا ان المركبان ثقيلاً جداً

ونحو الساعة الثامنة ليلاً وصل المسافرون الى درجة ٤٠ °٣٢ طولاً و١٧ °٤ عرضاً ولما كانت الريح متجهة للعاصفة كانت تدفعهم مسافة ٣٠

الى ٣٠ ميلاً في الساعة فمروا فوق صحارى آمموتو الاريضة ذات الخضـار والنضار وكان منظرها مدهشاً يخلب الابصار

قال فرغوسن : هوذا نحن في اواسط بلاد القمر وقد دعيت هذه البلاد باسم بلاد القمر من الازمنة القديمة لقدمية عهد عبادة القمر فيها لعمري انها لارض رائعة الجمال

قال ديك . قلما يشاهد في العالم ارض ذات نضـارة وخصب شبيهة بهـا

قال يوسف : لو كان ذلك حول لندرة لما كان طبيعياً غير ان القلوب هامت به وراقت لمشاهدته الابصار ولكن يا العجب لماذا هذا الريحان قد جعل في بلاد يسكنها الاقوام البربرية والوحوش الكاسرة

قال فرغوسن : ومن يعلم هلاّ يأتي يوم وتصبح هذه البـلاد مركزاً التمدن لانهُ عند ما تكل الاراضي الاوربية عن ان تنبت لسكانها زرعاً وتفرغ منها وسائط المعيشة لربما يهجرونها ويقصدون هذه المحلات ويجعلونها سكناً لهم

قال ديك : وهل تصدق في قولك هذا

قال فرغوسن : بلا شك ايها الخل العزيز ألا ترى جريان الحوادث في العالم منذ ابتدائه الى الآن فانك اذا اتبعت على ممر الاجيـال مسير الشعوب ومعيشتهم ورحيلهم من بلاد الى بلاد توصلت الى نتيجتي عينها تأمل اولاً في المشرق التي كانت مهد الجنس البشري فانها قد لبثت مدة اربعة الاف سنة تغني زرعاً وتنبت نباتاً كافياً لاعواز سكانها جميعاً ولما شاخت وفسدت أكثر اراضيها اخذت الاقوام في الانتزاح عنها واسرعت متهافتةً الى بلاد الغرب التي كانت تزهو وتختال بجمال الصبوة وما زالت هذه في دورها تكفي سكانها مدة الفي سنة حتى اخذ خصبها في الخمول وبدأت تنتقص قوتها النامية يوماً فيوماً

وصارت الامراض تبلي محصولاتها وزرعها في كل سنة وكأنك بها انسان قد دهمت ايام صبوته فشاخ وهرم ووهنت قواه الحيوية وفسد منه الدم في العروق ولذلك السبب حملت الان الاقوام الاوربية تهجر بلادها وتتهافت متدفقة الى البلاد الاميركانية ليرضع من حليبها الخصب ولا يحسبن احد ان ينابيعها غير قابلة النضب بل سيأتي يوم وتنعدم كنوزها وتطمس في الدرس وتزول احراشها وغاباتها بفوس الصناعة وتضعف الاراضي التي انبتت زرعاً كثيراً فحينئذٍ تتجه الالحاظ نحو البلاد الافريقية ويتهافت الناس لاقتطاف ثمار كنوزها التي ما زالت تحتشد فيها من قديم الازمنة ويتعودون مناخ اقليمها في مدة قليلة وستصبح هذه البلاد التي نحوم عليها الان اكثر ريعاناً من غيرها وتقوم فيها الممالك العظيمة وفيها تكتشف الاكتشافات الغريبة التي تفوق لرتنا الصغار والكبير باتية عجباً ودهشة

فقال يوسف: سيدي حبذا لو رأيت ذلك

قال فرعوس مهلاً مهلاً يا يوسف فقد انكرت في رغبتك

قال ذلك وقد بان لي ان الجيل الذي فيه تفني الصناعة جميع الكنوز الارضية سيكون جيلاً سيئاً وعندي انه لا تلذ فيه المعيشة لان الناس لكثرة ما يخترعون من الالات والادوات المخيفة سيكون مصيرهم ان يُقتلوا منها وقد خال بالي دائماً ان اليوم الاخير يكون اليوم الذي فيه يخترع الناس ماعوناً عظيماً ناراً تعادل قوتها قوة ثلاث مليارات من حرارة الهواء فتأثر كرتنا من هذه القوة النارية العجيبة وتطير متشتتة في الفضاء الفسيح وتذهب كالهباء المنثور

قال يوسف: ويكون الاميركان لم يتقاعدوا عن الاهتمام في اختراع مثل تلك الالة

فقال العلامة: نعم ان الاميركان قوم يحبون شغل المواعين اعني بذلك

اختراع الالات ولكن اذا نا ولهذه الاحاديث علينا ان نتأمل مناظر هذه الارض البهية حيث اوتينا مشاهدتها

فكانت اشعة الشمس الاخيرة تتلألأ في تلك الاراضي المزينة بالاشجار الباسقة والحشائش والخضار الجميلة الشاهقة المثمرة ثمراً عجيباً ولم تخل الغابات والاحراش من فضاء فسيح في وسطها فكنت ترى فيها بعض القرى وحولها الآجام والمساحات العظيمة

ثم شاهدوا نهر المغرازي الذي ينعطف نحو بحيرة تمسابيكا وهو يمشي بين الخضار ويتناول المجاري الكثيرة المتسعة في الاراضي الحزينة وقت فيضان المياه اما الطائرون في العلاء فكانوا يشاهدونها كنسيج شلالات ملقاة على الجهة الغربية من تلك القمة

ثم شاهدوا المواشي السمان ترعى في المياض الاربعة وتتوارى بين الحشائش المتسعة اما الاحراش فقد كانت كناقة زهر تختبي فيها الأسد والضباع والنمورة ليأمنوا فيها من شر حرارة النهار

فقال ديك ما احلى هذه البلاد للصيد فان رصاصة واحدة اذا أطلقت على الجهة صادت طريدة جديرة بها فيا ترى هل لا يمكننا فحص الامر

قال فرغوسن كلاّ ايها الخليل فان الليل يتهددنا بالعاصفة والعواصف شديدة في هذه البلاد لان ارضها المسحة ميدان الشمس تشبه المدافع الكهربائية

قال يوسف تكلمت في الصواب ايها المولى لان الحر متزايد والهواء فاسد وكل ما يخص يقرب حدوث شيء خارق العادة

قال فرغوسن . ان الجو محمل بالكهربائية وكل ذات حية تشعر بحالة الهواء السابقة تناقض العناصر واقر معترفاً باني لم اتأثر قط من ذلك مثل هذه المرة

فقال ديك - حيث الامر كذلك ألا يوافقنا النزول الى الارض

قال فرغوسن - حبذ عليّ الصعود من النزول ولا اخشى سوى ان يدفعني الى خارج طريق تصلب المهبات الجوية

قال ديك أتريد ان تسير الى جهة غير التي سرنا اليها حتى الان

قال فرغوسن اذا استطعت فاني اتجه ذات الشمال مدة سبع الى ثماني درجات لعلي ارتقي الى عروض ينابيع النيل الموهومة واشاهد هنالك بعض آثار رحلة القبطان اسبيك او قافلة دي هكلين وعودا نحن الآن في الدرجة ٣٢° ٤٠' طولا وارغب في ان اتجاوز خط الاستواء باستقامة

فقاطعه ديك في الكلام وقال له انظر الى هؤلاء الزرافات كيف تتسلق الارض تخرج من الحيات وهؤلاء التماسيح التي تسبح ملتمسة الهواء لتستنشقه

قال يوسف لقد صار تعسا ولكن اما تنظران الى هذه زمرة الحيوانات التي تزاحم بعضها بعضاً في سيرها لربما هي ذئاب واظن انها تبلغ عدد المائتين

قال فرغوسن كلا يا يوسف فان هذه الزمرة كلاب وحشية باسلة لا تخشى مصارعة السباع واذا التقى بها مسافر فالتعاسة له لانها تمزقه آربا في الساعة والحال

فقال الخادم: وانا لا احد على نفسي ان اضع لهن الكمامة واذا كانت الشراسة من دأبهن فما لي ولهن

ثم تكاثف الهواء واصبح الرفيق لا يسمع صوت رفيقه واختبأت الطيور في الاشجار ودلت الطبيعة كلها على انه عن قريب ستمطر الارض بسماء امطار وابلة

وفي الساعة التاسعة مساء حامت المصورة فوق صبع قنطر مسنة وكانت ما تكاد تمتار للبصر لتكاثف الظلام

فقال ديك وهو يستنشق بملء رئتيه من ذلك الهواء المتراخي وما هذه الحال فاني اوشك ان اختنق والناس انا لا نتحرك في هذا الفضاء فلا يوافق نزولنا الى الارض

فقال فرغوس وهو في اضطراب : ألا تبالي بالعاصفة المقبلة

قال ديك اذا كنت تخشى ان يدفعك عصف الرياح فلا حيلة لك الّا النزول وتطلبان هنالك من كل عائلة

فقال يوسف : وربما لا تبدو العاصفة في هذه الليلة لان السحب عالية جداً

قال فرغوس . وهذا الامر مما يجعلني ان ارتاب في الارتقاء الى فوقها حيث يلزمنا الصعود الى علو شاهق جدا ولا نعود نعرف ليلتنا كلها اذا كنا سائرين ام واقفين

قال ديك فدارِ ان تبتُّ رأيك الان لئلا يفوتك الاوان

قال يوسف لسوء حظنا سقط الهواء ولو ذلك لكان دفعنا بعيداً عن مقرّ العاصفة

قال فرغوس : ان ذا مما يوجب الكدر فان السحب هي لنا ذات خطر مبين حيث انها حاوية مجاري متضادة قابلة ان تدفعنا في مائها وبروقاً نارية نخشى منها ان تحرقنا . ثم اذا نزلنا الى الارض وربطنا المرساة في رأس شجرة فان هبة واحدة من الريح العاصفة ترمينا الى الارض وتوهي قوانا وقوة مصورتنا

قال ديك : وما العمل اذاً وما الحيلة

قال فرغوسن: عندي ان نبقى في طبقة وسطى بين ويلات الارض واخطار السماء ريثما يفرجها المولى ويفتح لنا باب الرحمة ولله الحمد فان عندنا ماء عزيزاً لاصرام نار القصبة وثلاثة وثلاثين رطلا من ثقل الرمل نلقي منهُ عند الحاجة

فقال الصياد: ونسير معك في هذه الليلة

قال فرغوسن - لا حاجة الى ذلك يا خليليَّ بل ضعا رأسيكما في المخدع وناما بسلام واذا مست الحاجة ايقظتكما حالاً

قال يوسف واضحكن ألا يوافق ان تنام انت ايضاً اذ ليس ما يتهددنا الان

قال فرغوسن - كلاَّ يا يوسف فاني احبُّ السهاد ونحن الان غير متحركين واذا لم يحدث شيء فنبقى غداً في اعلى نفسه الذي نحن فيه

فدخل ديك ويوسف المخدع وتمددا في المركبة ورقدا ومكث فرغوسن وحدهُ ساهراً في السماء الوسيعة

ثم اخذت الغيوم بالنزول رويداً رويداً وتكاثفت الظلمات وتراكمت بعضها فوق بعض واحاطت السوداء كدائرة حول الكرة الارضية كأنها مزمعة ان تسحقها

وعلى الاثر صار برقٌ سريع في ذلك الظلام ولم ينتهِ من لمعانهِ الا قصف الرعد ودوى صوتهُ في اعماق السماء

فقال فرغوسن هيا بنا يا رفاق انهضا

فانتبه ديك ويوسف من قوة قصيف الرعد الذي رافقهُ صوت فرغوسن ورفقا ينتظران اوامر العلامة

فقال ديك - وهل ننزل

قال فرعوس . كلاَّ فانا لا نطيق النزول فلنصعد هيا بنا لنصعد الى العلاء قبل ان تتحول هذه السحب الى مياه وتعصف زوابع الرياح

ثم اضرم نار القصبة بقوة واخذت المصورة في الارتفاع

اما العواصف في تلك البلاد فانها تمتد سريعًا وتشتد كثيرًا وما مضت برهةٌ الّا اومض البرق ولمع في الغيوم ثم ارتدفهُ عشرون برقًا آخر حتى امست السماء مختلطة بشرر كهربائية اخذت في التساقط مع الامطار الوابلة

قال فرعوس قد تأخرنا في تسيير مرامنا وينبغي علينا الآن المرور مشقّقة نارية فتنا المعصة هواء قابل الاشتعال

اما ديك فما زال يراجع كلامهُ ويقول علينا في النزول علينا في النزول

قال فرعوس سواء صعدنا ام نزلنا فلا يزال خطر الصاعقة محيقًا بنا ورد على ذلك انا اذا نزلنا الى الارض تشققت قبتنا حالا باغصان الاشجار

فقال ديك : ارى اننا نعلو الان

قال فرعوس : طلاع طلاع

وما برحت البروق المتتابعة في وميض ولمعان كالاسنة في القتال والرعد في قصيف وعجيج وشوهدت السماء كأنها شعلة نارية مالحقة اللهيب والريح تهب هبوبًا شديدًا في دامس الظلام وتاوي لها السحب المستنيرة بالبروق وكأن آلة نارية عاملة من العلاء على اضرام النار ونشرها

ومكث فرعوس محافظًا على قوّة حرارة القصبة والقبة تمتد وتصعد الى العلاء وكان ديك جاثيًا على ركبتيهِ وسط المركبة وهو ماسك باطراف الخيسة لكن القبة كانت تدور دورانًا يدوخ الراس وقد اضطرب المسافرون من شدة حركتها والرياح تصدم القبة وتحوزها في بعض الاماكن فتصعط صعطًا عظيمًا ثم اخذ البرد في الهطلان واتخذ صعة ولفظ واما القبة فما انفكت تسير مرتفعة

وحولها تدور البروق بخطوط نارية يلاقي بعضها بعضاً

فقال فرغوس . في حفظ الله تعالى ها نحن بين يديه فليفعل بنا ما يشاء ومنه وحده نرجو نجاتنا من تهلكتنا وغاية يا صاحبيَّ ان نكون على حذر من كل طارقة ونائبة فربنا تخترق قبتنا ولا يكون سقوطنا الى الارض سريعاً جداً

فلم يكد يتم صوت فرغوس اذن الرفيقين لكنهما كانا يشاهدان في صمائه وهدوء تامين وسط البروق وعيناه شاخصتان باحثين النيران المحيقة بقبته

وما عكفت القبة تدور وترتقي الى فوق فمضت ربع ساعة واذا قد تجاوزت حدود منطقة السحب واخذ المسافرون حينئذ في مراقبة تلك الاشعة الكهربائية تحتهم كأكاليل نارية تتوج السحب وكان ذلك الاكليل مركوزا في اسفل المركبة وكان هذا المنظر من اجمل المناظر الطبيعية التي يشاهدها الانسان لان العاصفة اسفل والسماء اعلا مرصعة بالنجوم والكواكب وهي صافية لا غيم فيها والقمر يلقي اشعته على تلك الغيوم الخطرية

فتطلع فرغوس في البارومتر ورأى انهم في علو اثني عشر الف قدم عن الارض ونظر الى الساعة فكانت الحادية عشرة ليلا

ثم قال : شكراً لمولانا فقد زال عنا الخطر وبقى علينا ويبقى علينا ان نحافظ برهة على هذا العلو

فقال ديك . ويلاه ويلاه ما كانت ارهب تلك الساعة

قال يوسف - وقد شاهدنا هذه المرة شيئاً جديداً في رحلتنا واني مسرور الخاطر لمشاهدتي العاصفة من المعالي فانه مشهد يروق للناظر

الفصل الخامس عشر

في عبر الخضرة ومصارعة الليل والعشاء في الغربة والمبيت فيها

ولما دخلت الساعة الرابعة صباحاً تراءت الشمس من وراء الافق وتبددت السحب من السماء وهبت في تلك الدقيقة نسيم الصباح وهو نسيم رخيم ينعش الفؤاد

ثم ظهرت لديهم الارض المتأرجح عرفها اذ انهم لم يحيدوا عن الناحية التي مكثوا فيها مدى الليل كله فخفف فرغوسن حرارة القبسة وابتدأت القبة بالنزول وذلك لكي تتجه الى الناحية الشمالية فبذل العلامة مجهوده ليجد طبقة هوائية موافقة لغرضه فما انجح مسعاه بل ما برح الهواء يدفع المسافرين الى الجهة الغربية حتى اتوا على مرأى من جبال القمر المشهورة التي هي على هيئة نصف دائرة حول رأس بحيرة تنغانيكا وسلسلتها الظاهرة في الافق اللازوردي والوعرة جداً والصعب الصعود عليها واشبهت بحصن منيع يصد المسافرين عن المرور وفي بعض ذراها قامت ثلوج مستديمة

فقال فرغوسن: ها نحن في بلاد لم يأتها المسافرون فحص عنها وقد توغل القبطان برتون كثيراً في الجهة الغربية لكنه قط لم يتوصل الى هذه الجبال العظيمة بل انه انكر وجودها خلافاً لرأي رفيقه اسبيك الذي اثبت وجودها وزعم برتون انها جالت في عقل رفيقه كشبح خيالي. اما نحن الآن فقد تأكدنا وجودها ولا يعترينا الريب بذلك

فسأل ديك وقال - هل نعبر هذه الجبال

قال فرغوسن: ان شاء المولى فلا نفعل ذلك واومل وجود طبقة هوائية

يكون فيها مهب ريح تدفعنا الى خط الاستواء واذا لزم الامر انتظرنا برهة الى ان تهب ريح موافقة لغرضي كما يُعمل في المراكب التي تلقي المراسي في البحر عند هبوب رياح مخالفة لسيرها

واذ كان يتخلى سامويل الطبقات الهوائية صادف ما وافق مشتهاه فسارت القبة في جنوبي شرقي افريقية بسرعة وسطى

فتطلع في الوصلة وقال ها نحن سائرون في الجهة الموافقة وعلو على الارض نحو مايتي قدم وليس ما يصدنا عن مشاهدة الاصقاع التي نمر بها ولما كان القبطان اسبيك منطلقاً الى اكتشاف بحيرة اوكروي سار الى الناحية الشرقية ومر على خط مستقيم فوق مدينة كازه

قال ديك وهل يطول مسيرنا هكذا

قال فرغوسن ربما يطول قليلا حيث مرادنا ان نتقدم الى جهة ينابيع النيل ولكي نبلغ الحد الذي بلغه المسافرون القادمون من الشمال يجب علينا المسير مسافة ستمائة ميل ونيف

فقال يوسف وهلاَّ ننزل الى الارض لنحرك اقدامنا المخدرة

قال فرغوسن بلى ومع ذلك يجب علينا توفير زادنا ولكن عند نزولنا سيأمنا ديك لحما طريا

قال ديك هذا بين يديك يا حبيبي

قال فرغوسن ويلزمنا ايضا ان نجدد زاد الماء ولا اعلم هل تدفعنا الريح الى اصقاع قاحلة وبناء عليه يلزمنا ان نأخذ احتياطنا من ذلك القبيل

وعند الظهر جاءت المنصورة في درجة ٢٩° ١٥ طولا و٣° ١٥ عرضا وقد اجتازت بقرية ايوفو وهي حد اونيامويزي الشمالي بعد مرورها على بحيرة اوكروي

اما الاقوام القريبة من خط الاستواء فتفوق تمدناً على غيرها من اواسط افريقية ويتولاها ملوك ذات سلطة مطلقة فيجورون على رعيتهم ويعيثون بغياً عطيا والاقاليم الذي تكثر فيه السكان فتألفون معظمهم من هذه الاقاليم المعروف بقراعوا

واجتمع راي المسافرين الثلاثة على ان ينزلوا الى الارض في اول محلة مناسبة لغرضهم وكان مرادهم ان يكشفوا عليها بهمة طويلة ثم نظر فرغوسن الى افقة وجمع اطرافها ليرى اذا كان اعترتها شيء من الخلل فخفت العلامة حرارة الغصة وبعده تلك المراسي فاحدث تحرعلى حشائش كثيفة مساوية السطح يبلغ علوها نحو سبعة الى ثمانية اقدام

ولم تكن تلوي تلك الحشائش اود المركبة فوقها ولا تحتها حجارة ولا اشجار بل انها كبحر عوموم لا هادية فيه

فقال ديك اري انا نسير كثيراً في هذا البرح الفسيح لاني لا ارى شجرة يمكن ان نتعلق بها واظن انه قد قامت دون الصيد موانع ومصاعب كثيرة في هذه الاماكن

فقال فرغوسن مهلاً يا ديك مهلاً ألا ترى انك لا تستطيع الصيد بين حشائش تعلو قامتك فانا عن قريب نصل الى مكان يوافقنا

وفي الحقيقة كان مسيرهم الهوينا في ذلك البحر الخضر المقة مهب النسيم مما يطرب الفؤاد ويسر الخاطر وقد القى اسم المركبة عليها اسمي لانك كنت تراها كانها تشق الامواج والطيور ذات الالوان البهية تتطاير احياناً من تلك الحشائش ساعية باصواتها الشجية في تلك الروضة الرهيبة وقد خطت المراسي المتدلية خطاً شبيهاً بالخط الذي ترسمه السفينة في البحار

وفيما هم سائرون هكذا اذا صدمت القبة شيئاً انتفضت منه فظن

المسافرون ان المرساة تعلقت باحدى الصخور المتوارية بين تلك الاحجار

فقال يوسف . قد تعلقنا يا مولاي

فقال ديك . عليك في القاء السلم

ثم تموه بهذا الكلام الا سمع صراخ حاد في ذلك الفضاء فاندهش

المسافرون من ذلك ورفع جميعهم صوتاً واحداً قائلين . وما هذا

فقال واحد . هذا صوت غريب

وقال آخر . انه العقاب انا سائرون

وقال آخر . قد انحلت المرساة

فقال يوسف : وهو ماسك بالحبل محاول جره ان المرساة متمسكة

جيــداً

فقال ديك . ويحك وهل يسير بنا الصخر

ثم لمحت بغتة الاشخاص المسافرون شيئاً مستطيلاً ومتلويا دون

الخضرة

فقال يوسف لا ريب في انها حية رقطاء تمشي بنا

فقال ديك اهي حيــة . وذلك سلاحه متهيئاً لاطلاق الرصاص

عليهــا

قال فرغوسن . كلا ولم تصيبــا شكاً يا خليلي فان ما هذا الا

خرطوم فيل والفيل هو الذي يجرنا

فتأهب الرفيقان واستعدا لاطلاق الرصاص عليه

فقال فرغوسن . اصبرا قليلاً فان ينطلق بنا الى ناحية موافقة لنا

وبعد ان سار الفيل في ذلك الجو الاحمر تراءى لاعينهم في قمة عالية

من الخضرة باكثر جلاء وامتياز ومن قامته الشامخة العلو علم فرغوسن انه ذكر

من طائفة حسنة جداً ولهُ نابان يلمعان بياضاً ذات القناة لطيف ويبلغ طولهما يبلغ ثمانية اقدام ثم ضربوا بالرصاص في اطرافهما تعلقت بنابيه وتمكنت بهما

فما برح الفيل يسعى ويحاول التخلص منه فذهب سعيهُ هدراً

فقال يوسف وقلبهُ طافح بالسرور هيا بنا هيا يا فيلا امينا فقد تنوعت كثيراً هيئة سيرنا في هذه البلاد اذ احد فيلان يجرّ مركبتنا كما نحو احياناً السفن بعضها بعضاً ونسم السفر على هذا النحو

فقال فيلكس. والى اين ينطلق بنا (وكان سلاحهُ بيده وقد عيل صبره من انتظار امر فرغوسن لاطلاق الرصاص)

قال فرغوسن اعتصم قليلاً بحبل الصبر يا خليلي لاننا منطلقون الى جهة حسنة

ثم يوسف فما زال يحث الفيل بكل انواع الالفاظ والعبارات الطبيعية ويصرخ باعلى صوتهِ. خوخو هيا يا نجيب البراري الافريقية سر بنا سر بنا الى قدام

ثم اشتد الفيل في العدو السريع وهو يلوي خرطومهُ ذات اليمين وذات الشمال وفي قفزه كانت تهتز القبة هزة شديدة فهيأ العلامة فأساً ليقطع الحبال المعلقة عليه الرساة اذا الجأته الى ذلك الضرورة

لكنهُ قال: لا ارغب في ان اعتقهُ الا وقت الضيق

فدامت تلك المسايرة نحو ساعة ونصف والفيل لا يحس بتعب ولا كلل وقد قيل عن هذه الحيوانات ذات الخراطيم انها تعدو عدواً بليغاً ومن يوم الى يوم تشاهد في امكنة بعيدة بعضها عن بعض بمسافات شاسعة وتشبه كثيراً حيتان البحر العظيمة بجسمها وسرعة عدوها

فقال يوسف: في الحقيقة ما صيدنا الا وشبه صيد صيادي الحيتان لان ديننا لخطاف فتعلق به الفيل كما تتعلق الحيتان بخطاطيف صياديها

اما فرغوسن فاضطر الى ان يغير مسيره ويمسك من قائده لما تراءى امامهُ في شمالي المرج من تغيير هيئة تلك الاراضي اذ شاهد عن بعد ثلاثة اميال حرشا فيه الاشجار المتكاثفة فازعج الى حليفه ديك قائلاً دونك والفيل فانهُ يجب علينا توقيفه عن مسيره فرفع ديك سلاحهُ واطلق الرصاص ولما كان في مرتكز لا يتمكن به من تحكيم طلقته اصابت الرصاصة راس الفيل فسقطت على جانبه لكنهُ لم يرجع من تلك الصدمة بل بعد ما طرق آذانهُ دوي تلك الضربة زمجر في سيره واخذ يعدو عدواً شديداً يسابق الخيل

فقال ديك: ويلاه فان الرصاص لم يؤثر في راسه

قال يوسف: ان رأسهُ لاصلب من الحجر

قال ديك: وددي ان اطلق الرصاصة على كتفهِ ثم دكَّ سلاحهُ واورى الزناد فصاح الفيل بصوت هائل وما برح يعدو

فقال يوسف: سيدي ديك يلزمني ان اتي بأيدك والّا لا ينتهي العارض فدكَّ سلاحهُ واطلقا كلاهما رصاصتين فاصابتا جوانب الجسم

فعند ذلك وقف الفيل برهة ورفع خرطومه ثم عاد الى جريه وهو يهز راسهِ ودمهُ يسيل من جرحهِ سيلاناً وافراً

فقال يوسف: علينا ان نعمل بارادتهِ

فقال فرغوسن - واراه مستعرة الغيظ - لانا لا نبعد عن الغابة اكثر من ستين ذراعاً. فاوقدوا النار الدائمة فجر الفيل جرة هائلة وارتجت لها القبة ارتجاجاً عظيماً حتى اوشكت ان تتمزق قطعاً ووقع الفأس حينئذٍ من يد العلامة الى الارض

واصبح المسافرون حينئذ في حالة محيرة اضطرت لها افئدتهم لان الرسا
صكات ممكة في الفيل فلا يمكن قطع الحبل بالسكاكين التي كانت م
المسافرين وما املك الفيل يتقدم نحو الصاحب وعند دنوه منه رفع راسه قليلا
فاصابته رصاصة فقات عينه فوقف ساعتئذ واضطرب ثم انثنت ركبتاه وكشر
حانه الى الصياد

فقال ديك . هاك رصاصة في قلبك يا فيل السوء ورماه برصاصة
اخيرة

فزار الفيل وزمجر وهوهم كذا ومسارعة ثم جثى على قوائمه وعقب سرطوه
فسقط بثقله كله الى الارض على احد نابيه فحطمه حطماً وكانت تلك الساعة
ساعته الاخيرة

فقال ديك قد تحطم نابه وهو من العاج الذي يسوى في بلادنا كذ
عشرين رطلا ٣٥ دهناً انكليزياً

فقال يوسف وهو نازل الى الارض وماسك الحبل في يده منه عاذا
الثمن على حسابك

قال فرعوس : وماذا يمنعك اسمك يا مليجي ديك هل ترى قد اتينا لنتاجر
بالعاج وتنس الحي والاموال في هذه البلاد فحتت الصياد

اما يوسف فنظر الى المرساة فرآها محكمة التعليق بناب الفيل السائ
سالما ثم قفز العلامة وديك الى الارض ولبثت القبة المموجة منصبها مرتكزة
على جسم الحيوان

فنظر ديك الى الفيل قال وما احله واعظمه فاني لم ار في بلاد الهند
فيلا له قامة شبيهة بهذه القامة الجرودية

قال فرعوس : لا عجب في ذلك لان الفيلة في البلاد الافريقية تسوطرا

وجمالاً وطالما قد سعى في صيدها القوام في سواحل الجنوب ولذا قد هجروا الى خط الاستواء حيث سراهم مجتمعين بشردمات

فقال يوسف - اما الآن فاني عازم على ان اطبخ طعاماً لذيذاً مدهشاً من هذا الحيوان وانت يا ديك اذهب واصطد ما شئت مدة ساعة او ساعتين ريثما سيدي يناظر القمة ويصلح فيها ما شاء

قال فرعوس - هاك اوامراً مناسبة فافعل اذاً يا يوسف ما شئت

قال ديك اما انا فاني منطلق لاصطاد مدة الساعتين التي تنازل يوسف ان يسمح لي بهما

فقال فرعوس : انطلق يا صاحبي ولكن كن حريصاً ولا تبتعد عنا كثيراً

فتناول ديك بارودته ودخل الغاب وجعل يوسف يتمم شغله وطبخه فاحتفر في اول الامر ثقباً في الارض يبلغ عمقه قدمان واملأه حشيشاً يابساً كان منتشراً بكثرة على الارض وغصناً من شجر قد مرت من هنالك كما دل عليه آثارها وبعد ان امتلأ الثقب ووضع فوقه حطباً كثيراً عالياً عن الارض نحو قدمين واضرم فيها النار

ثم اقبل الى الفيل الساقط بعيداً عن الغاب نحو ثلاثين ذراعاً وقطع خرطومه البالغ عرضه نحو قدمين في مخرجه ثم فصل قدماً من جسمه وضم اليها احدى قوائمه اللذيذة جداً فان القوائم في الفيل هي القطع الاطيب والالطف من جميع لحومه كالرجل في الدب وكالرأس في الخنزير الوحشي

وبعد اشتعال النيران في الثقب قام يوسف الرماد والحطب منه فكانت حرارة قوية وسط الثقب فلف قدر اللحم بورق العشب ووضعها في عمق ذلك الثقب المتأجج حرارة ثم غطاها برماد سخن ووضع حطباً فوق الرماد وبعد ما اشعلها مدة رفعها فوجد اللحم قد شوي ونضج على احسن اسلوب

فاخذها وجعلها على اوراق خضراء ثم رتب الطعام على الحشيش الرطب واحضر الكعك والعرق والقهوة ثم استقى ماء عذباً من ساقية كانت جارية في تلك الجهات

واحتوت تلك الوليمة مما يطرب الخاطر وطلّ يوسف ان تناول الطعام شأنه ان يزيد النظر بهجة وسرور

وقد قال في نفسه ما احلى والذّ من هذه المعيشة لاننا نسافر في اقطار وسيعة بلا تعب ولا خطر ونأكل ونشرب في الاوقات اللازمة فيا تراه حاسباً علينا ومع هذا كله لم يكن لخواجا ديك يشاء مرافقتنا

اما العلامة فرغسن فاشتغل بفحص مدقق عن ادوات القبة الهوائية ورأى انها قد قاومت ما حصل لها من الضغط مدة مدة ولم يحصل لها خلل من ذلك ثم قاس علو تلك الارض المقيم فيها وحسب قوة القبة الرافعة عند رؤيته انها لم تفقد شيئاً من الايدروجين ونظر الى الغطاء الخارج فشاهد ان المادة الصمغية المدهون بها الغطاء لم يعترها ادنى فساد ولا يمكن ان يتخلل القبة شيء من جهاتها لا الهواء ولا الماء

ثم نظر الى الزاد فكان غزيراً وقد مكثوا في رحلتهم من زنجبار الى ذلك المكان مدة خمسة ايام ولم يفقد منه الآن ما قلّ ولم يحتج العلامة سوى الى التزود بالماء من جديد

اما الانابيب وغيرها من ادوات تخفيف الحرارة فوجدها قد ثبتت سالمة من كل عائق ولم يضر بها قط ما حصل للقبة من الاضطراب وقت ارتقائها فوق السموم واستطالتها الميل

وبعد ما فرغ من الفحص عن مصورته اخذ يرسم هيئة تلك البرية الجميلة بهم مع المرج الواسع والحرش المقابل لهم ورسم ايضاً القبة منتصبة على الفيل

ذات اللحمة الناعمة

وفي غضون ساعتين من الزمان اقبل ذيك ومعه الاحمال المدهمة واحاد بعض الحيوانات النيئة ففرض الى يوسف ان يشوي منها شيئاً زيادة على ما هيأه من العشاء

قال لهم يوسف : هوذا العشاء حاضر فتفضلوا فاسكل في الحال قد جلس ثلاثتهم على ذلك البساط الاخضر وتناولوا الطعام ووجدوا لحم الفيل لذيذاً جداً وشهياً للآكل ثم شربوا على ذكر الاوطان واخذوا في تدخين التبغ في تلك الاراضي الرحبة التي لم يسبقهم الى التدخين فيها احد قط منذ نشأتها

وكان ذيك يأكل ويشرب بفرح وطرب ويتكلم كثيراً وقد بلغ منه مبلغ الثمل حتى انه عرض على رفيقه العلامة عند ان يبنوا لهم هنالك كوخا وان يقضوا فيها ما بقي لهم من الايام في الرغد والهناء وعليه يعيشون هكذا عيشة زنسون الشهير فيكون يوسف بمنزلة صاحبه الملقب بفردي (اي الجمعة)

ولما رأى العلامة ان هذا الصقع خال من سكان قد اطمأن فعزم على ان يبيت ليلته مع رفيقيه على الثرى فقام يوسف وهيأ متراساً من النيران حول فرشهم لكي يمنع وثبات الوحوش الكاسرة التي لا بد من وجودها في تلك القفار فضلا عن انه يمكن ان رائحة لحم الفيل تجتذب في تلك الليلة بعضاً من السباع واماء آوي وغيرها من الحيوانات فأطلق كاذي الرصاص مراراً عليهن ولكن مضت ليلتهم كلها دون ان يدهمهم عارض سوء البتة

الفصل السادس عشر

في ما كان من بحيرة اوكارُوِه وبيت المسافرين على جزيرة قفرة ومشاهدتهم عيون النيل وانصباب اندريا ديمو

ولما اصبح الصباح واستيقظ الرفاق من رقادهم نحو الساعة الخامسة اخذوا يتأهبون للرحيل فحطم يوسف باقي الجبل بالفأس الذي وجده بعدما وقع من يد العلامة كما ذكر ولما جلس ثلاثتهم في المركبة ولم يعد يعوقهم عائق ارتفعت الى العلى ودفعت الريح المنصورة الى الجهة الشمالية الشرقية فقطعت ١٨ ميلا بالساعة

وكان قد حسب فرغوس درجة مركزه من علم النجوم في الليلة السالفة فعرف انه في درجة ٤٠ ٣٠ عرضاً تحت خط الاستواء اي على مدى مئة عادة وستين ميلاً جغرافياً ثم مرّوا بقرى عديدة غير مكترثين بما كانوا يسمعون من الصراخ والضجيج المتصاعد اليهم من الذين كانوا يشاهدونهم مارين فوق رؤوسهم واخذ فرغوس رسم تلك الاراضي مع ما ترآى له من المناظر ثم جاز بروات رونغهي الوعرة فكرؤس جبل اوزاغار ولما وصل الى تمبا شاهد مدينة درى سلاسل كراعواه التي ظنها مشتقة من جبال القمر وقد قرب الى الحقيقة ما كان يقال في الحكايات القديمة ان هذه الجبال هي مهد نهر النيل لانها متاخمة لبحيرة اوكارُوه وقد زعم كثيرون ان هذه البحيرة هي الخاتم الذي منه تجري مياه ذلك النهر العظيم

ثم شاهد اخيراً فرغوس من الافق تلك البحيرة المشتهاة التي بصر بها القبطان اسبيك بدون تحقيق في اليوم الثالث من شهر آب سنة ١٨٥٨ وكان

نظر العلامة اليها من كافورو وهي مقاطعة وسيعة لتجار تلك البلاد

فتحركت عند ذلك شعائر فؤاده لانهُ قرب الى مركز احدى المقاصد ذات الاهمية الجليلة التي علق بشأنها تلك السفرة الجوية فوضع المنظرة على عينيهِ وجد في التحديق فيها والتأمل بجميع نواحيها واطرافها وكانت الارض تحت اقدامهِ جدباء قاحلة وقلما يصادف فيها بعض الوديان النابتة زرعاً

ولما كانت الارض مرتفعة في جملة اماكن رآها آخذة في استواء سطحها كلما قربت الى البحيرة ثم بدأت تتراءى لعينيهِ حقول الارز ويليها حقول الشعير وغيرها من النباتات التي يستقطر منهُ الخمر ثم الموالي وهو نبات يقوم مقام القهوة وهنالك غابة كالسواد المؤلفة من نحو حسيك كما يغطيها القش وتحيط بها بساتين مزدانة بالزهور

وقد حضر المسافرون من مصورتهم هيئات ذلك القوم الجميلة الناعتة الضاربة الى لون الاصفر النحاسي وشاهدوا ايضاً النساء ذات الجسم الضخم الماشية في حقول الزراعة وقد تعجب يوسف وديك لما اعلمهما فرغوسن ان سمن هؤلاء النساء مسبب عن اتخاذهنَّ اللبن قوتاً يومياً لهنَّ

وعند الظهر وصلت المصورة الى درجة ٤٠° ١ من العرض الجنوبي وبعد مرور ساعات من الزمن دفعتها الريح الى ما فوق البحيرة

وقد دعا القبطان اسبيك تلك البحيرة باسم نيانزا فيتوريا وفي تلك الجهة اخذ فرغوسن يقيس البحيرة وكان ثماني الف متر وعند طرفها الجنوبي لقي القبطان جملة جزائر فسماها جزائر البنغال ثم تقدم الى موانزا في الجهة الشرقية وهنالك قابل السلطان فاواه بالاكرام واصافهُ بلياقة ولطف ودار حول زوايا البحيرة الثلاثة لكنهُ لم يتمكن من وجود قارب واحد ليعبر به البحيرة ويصل الى جزيرة اوكيرافوه الكبرى الكثيرة السكان وقد قيل عنها انها

مسادة من ثلاثة سلاطين مع انه لم يتحقق عنها الا انها شبه جزيرة عند انحصار المياه المحيطة بها

فالحارت المصورة الى البحيرة من الجهة الشمالية على حسب ما قدره من العلامة الراغب في ان يجدد دائرتها على جهة الجنوب اما سواحلها فكانت مملوءة ادغالا كثيرة الاشواك واجمات ملتفة بعضها على بعض وتغشيها دوالت من العروش الخالة عليها وهي ناعمة اللون ولا يطل من تلك الغلات بها مسكونة ام خالية السكنى وكثيرا ما كانت تترع افراس الماء باحراش القصب ثم تعود راكضة الى البحيرة لتتوارى في مياهها البيضاء

اما الافق المشاهد على مدى البحيرة فكان عريضا ولذا يجال الناظر بها نحو متسع والمسافة طويلة بين الطرفين فلا يمكن لمن وقف على جهة ان يبصر شيئا من الجهة المقابلة سوى الماء المتراكم ولم تتألف الملاقات بين سكان كليهما وحصوصا لان الانواء والزوابع فيها شديدة ومالة للحدوث والرياح فيها عاصفة لانها عالية ومكشوفة

فشق على فرغوسن الاتجاه فوق تلك البحيرة وكان يخشى ان تدفعه الريح الى الجهة الشرقية ولكن وافقة الحظ ودفعه ذات الشمال ولما صارت الساعة السادسة حلت المصورة على جزيرة مقفرة في درجة ٣٠° ١ عرضا و٥٢° ٣٢ طولا وهي بعيدة عن الساحل نحو عشرين ميلا اوجيا

فلقى المسافرون مرساتهم على شجرة ولما امسى المساء سكن الهواء فقضوا الليلة بالهدء والطمانينة وفي تلك الجزيرة لا يستطيعون النزول الى الارض لان الناموس والبرغش تستر الارض كسحاب متكاثف ولما نزل يوسف الى الشجرة لتمكين المرساة ثم عاد الى مركزه احس بلسع الهوام ولدغها من كل جانب ولكنه لم يسوءه ذلك بل قال ان اللسع من دأب تلك الهوام

اما العلامة فرغوسن فلم يستصوب ان تعمل فيه طبيعة تلك الهوام بل رقي ما استطاع من الجو خشية من ان يتصاعد اليه شيء من تلك البعوض الناقع اليه صديدها الخبيث

وقد عرف فرغوسن علو البحيرة فوق مساواة سطح البحر فكان ثلاثة آلاف وسبعمائة وخمسين قدماً كما حدده القبطان اسبيك

فقال يوسف وهو يحرك كتفيه ها نحن مقيمون بجزيرة

فقال الصياد كنا نستطيع ان نطوف حواليها في برهة وجيزة ولكن لا يسكنها ساكن الا هذه الهوام الطليعة الرقيقة الجناح

قال فرغوسن ان جزائر هذه البحيرة ليست سوى اكمام عالية مغمورة في المياه وقد اصابنا حظ بمصادفة هذا الملجأ على هذه الجزيرة لان سواحل البحيرة لا يسكنها الا اقوام برابرة فارقدا اذاً يا خليليّ بسلام لان الليلة رائقة

قال ديك وهل لا تحذو حذونا

قال فرغوسن لا استطيع ان اطبق جفوني فان هواجسي تجلب لي السهاد ويجافيني النعاس من جرائها وما عدا ذلك فاذا وافقتنا الرياح سرنا الى الشمال بخط مستقيم وربما اكتشفنا النهر المطلوب وهو ينبوع النيل فهل تظن اني ارقد وانا قريب من ينابيع هذا النهر الشهير

فرقد ديك ويوسف غابطة رفيقهما العلامة لان الاهتمامات العلمية لم تكن تسبب لهما الهواجس والافكار

ولما صبح صباح الاربعاء في ٢٣ نيسان رفعت المنصورة مراسيها وكانت وقتئذ الساعة الرابعة وكان غيم الظلام المحيط بالبحيرة يتبدد قليلاً فقليلاً ولكن قد هبت الريح بعد برهة وسحبت غيماً كثيفاً كان مظللاً مياه البحيرة فارتفعت المنصورة الى المعالي واضطربت في اول وهلة ثم اتجهت نحو الشمال

فصفق العلامة بكفيه علامة الفرح والابتهاج وصرح قائلاً . ها نحن في سبيل مستقيم وان شاء المولى نشاهد اليوم عيون النيل والا فلا نعود وانها ابداً وتحور الان خط الاستواء وندخل في نصف الكرة الشمالي

قال يوسف وهل تعلم يا سيدي ان خط الاستواء مارٌ هنا

قال فرغوسن نعم يا خليلي الامين

قال يوسف فارجوك اذاً ان تأذن لي لكي اشرب على صحته فالآن اني ارى ذلك مناسباً

فضحك العلامة وقال افعل ما بدا لك واشرب كاس عرق اذ شئت ولعمري ان لك فيما حاضنا ملك نكتة لا يخلو من الفطنة والحكمة

وعلى هذا النسق كان احتفال مرورهم بخط نصف الكرة الارضية من اعلا مركبتهم الهوائية

ثم هبت الريح فاسرعت المركبة بالسير فسارت ثلاثين ميلاً بالساعة فشاهد المسافرون الساحل الغربي منعطفاً قليل العوج وسهلات أوهدا وأودية المرتفعة بعض الارتفاع

وشاهدوا مياه البحيرة الهائجة تعلو بعضها كامواج البحر واستنتج العلامة ان البحيرة عميقة جداً من مشاهدته بعض الامواج تتدحرج مدة بعد سكون الهواء فرأوا تلك البحيرة كلها ولم يبصروا فيها سوى قاربا او قاربين

فقال العلامة : لا بدع ان هذه البحيرة المرتفعة المركز هي الحوض الطبيعي الذي منهُ تجري مياه الانهر التي في شرقي افريقية وما تحتمهُ السماء اليها من الابخرة تمشيه بالامطار وعندي انهُ امر ما كد ان منبع النيل من هذه البحيرة

قال ديك . وهذا حقيقة ان شاء الله

وبعد الساعة التاسعة اقترب المسافرون من الجهة الغربية فصادفوا جبالاً قفرة ومتوحشة ثم هبت الريح نحو الشرق فدفعت المحمورة الى الساحل الثاني من البحيرة فصادفوا مخيلاً وفي آخره زاوية مكشوفة في درجة ٢٠٤٠ من العرض الشمالي وفي هذه الجهة الاخيرة جبال شامخة ذات رؤوس قائمة ويخترق هذه الجبال مضيق عميق ذو ثنيات عديدة يجري فيه نهر مزبد المياه

اما العلامة فكنت تراه محدقاً نظره بتلك الجهات مع اعتنائه بادارة المركبة وكان باذلاً جهده ان لا يفوته شيء مما وجد بتلك النواحي

ثم نادى رفيقه وقال له لقد صدقت حكايات العرب المتداولة بينهم بقولهم عن نهر منه تتحول بحيرة اوكاروه الى الشمال لان هذا النهر موجود بالحقيقة وها نحن سائرون فوقه وماؤه يجري سريعاً ويحاكي سرعتنا سرعة محمورتنا وكل نقطة مما نشاهده من هذه المياه الجارية تحت اقدمنا تسير الى ان تصب في البحر الابيض وما هي الآمن مياه النيل

فصاح ديك قائلاً ها هوذا النيل وقد شارك العلامة رفيقه بانتهاجه وتعجبه معاً

اما يوسف فقال حيَّ الله النيل ومن عادة يوسف ان يحيي ايّاً كان وقت طربه وسروره

وقد قامت صخور وجلاميد بين ضفتي هذا النهر السري فاعاقت سير مياهه ومما حقق العلامة في تخميناته مصادفته كثيراً من مجاري المياه السريعة والشلالات المحكي عنها

وشاهد سيولاً كثيرة لا يحصى عديدها نازلة من اعلاء تلك الجبال المحدقة بالنهر والساقطة فيه وفي الجهة الغربية كانت تنحدر مياه السواقي وتسير جميعها وفي سيرها تحتشد سوية وتتسابق في الوصول الى ذلك النهر الاحد

في التعاظم والتجسم شيئاً فشيئاً

فقال العلامة: لا شك في أن هذا هو النيل وقد اشتغل العلماء بالتفتيش عن أصل اسمه كما اشتغلوا باستقراء منبعه فمنهم من أصّله من اللغة اليونانية ومنهم من أصّله من القبطية ومنهم من أصّله من العبرانية القديمة (١) ولكن ما لنا الآن وللأخبار المنقولة إذ قد أُوتينا مشاهدة منبع مياهه

قال الصياد: وكيف نتحقق أن هذا النهر ليس هو الأداة التي شاهدها المسافرون الذين أتوا من الجهة الشمالية وأخبروا عنه

قال فرغوسن: إذا وافقنا الهواء سنعرف حوله تعالى عمّا قريب براهين ثابتة مقنعة لا رادّ لها

ثم افترقت الجبال بعضها عن بعض وقامت مقامها القرى والضياع الكثيرة والحقول المزروعة سمسماً وذرة وقصب سكر ولما مرّت المنصورة فوق سكانها هاجوا واضطربوا وأظهروا الغضب والعدوان عوضاً عن أن يتأهبوا للعبادة إذ أحسوا أن المسافرين أناس غرباء لا آلهة وكان من قصد عبيد النيل أن يسرق منهم سكراً مكنوناً أو جوهرة ثمينة فاضطرت المنصورة أن تمكث سامية الارتفاع لئلا يبلغ إليها رقيل العبيد (والرقيل آلة يُرمى بها البندق)

قال ديك: لا نستطيع أن نحط في هذه الأراضي بدون خطر

مجاورة يوسف وقال إنما هم الخاسرون لأنهم يعدمون لذة محادثتنا

قال فرغوسن: لا بد من النزول في هذا المكان ولو ربع ساعة وإلّا فلا يمكني أن أثبت نتائج رحلتي

قال ديك: وهل لا بد من ذلك

---

(١) وقد جمع أحد العلماء الغربيين أرقام نيلوس على ما في اللغة اليونانية القديمة فبلغ عددها ٣٦٥ يوماً وهي عدد أيام السنة تماماً

قال فرغسن: لا بد منه ولو اضطرتنا الامور الى المخاطرة والمناضلة

قال ديك هذا مما يسرني واجد في ملاطفة بارودتي وتأهب لادوارها

قال يوسف نحن بين يديك مر بما تشاء واستعد هو ايضاً للمبارزة والقتال

قال فرغسن. لا تكون هذه المرة الاولى التي استخدم فيها العلم قوة السلاح لان هذا الامر جرى في اسبانيا للعلامة دربسي وهو يقيس ربع الدائرة الارضية

قال ديك طمن روعك يا فرغسن وثق بمحافظين ماهرين

قال يوسف وهل وصلنا يا سيدي

قال فرغسن كلا وينبغي لنا اولاً ان نرتفع الى العلاء لنشاهد رسم هذه الناحية حق المشاهدة

فامتد الإدروجين واذا بالمصورة علت بعد عشر دقائق الفين وخمسمائة قدم فوق الارض ومن هنالك نظروا شبكة انهر لا يحصى عديدها مختلطة بعضها ببعض تصب مياهها في النهر العظيم وغيرها ايضاً مسكات تجري عرضاً بين الآكام الكثيرة المحيطة بها الحقول الخصبة

وفيما كان العلامة ينظر الى الرسم الجغرافي قال لسنا بعيدين عن غندوكورو تسعين ميلاً بل لا نبعد عن الخط الذي بلغه المسافرون الآتون من الشمال خمسة اميال فلنقترب اذاً من الارض بتأن واحتراز

فهبطت المصورة نحو الفي قدم ونيف

وحينئذ قال العلامة يا رفيقيّ كونا على حذر فانا لا نعلم ماذا يطرأ علينا

قال ديك ويوسف: ها نحن على حذر

فسارت المصورة متتبعة اثر النهر وهي تعلوه نحو مائة قدم وحسب تخمين العلامة بلغ عرض النهر في ذلك المكان مائة متر وشاهد المسافرون سكان تلك القرى الكائنة على ضفتيه في اضطراب وشغب وفي الدرجة

الثانية شلالة قائمة علوها عشرة اقدام ولا يمكن النزول بها

وقال العلامة هذي هي الشلالة التي دلّ عليها موسيو ديسو

وكان حوض النهر آخذاً في الامتداد رويداً رويداً وبدا المسافرون يشاهدون جزائر كثيرة منتصبة في وسطه اما العلامة فما زال محدقاً بها وشدداً نظره اليها لكنه كان كالمحتار في امره اذ جعل يبحث عن مركز حتى ثم لم يكن يقع نظره عليه

فتقدم بعض السودان في القارب الى ما تحت المركبة فرآهم ديك سلاماً جميلاً باطلاقه عليهم الرصاص فلم يصب احداً بل القى في قلوبهم الرعب والهلع ولذا هربوا راكضين الى ضفة النهر

فودعهم يوسف وقال . حفظ الله وامسه يا هلال ولو كنت مكانكم لما تجرأت قط على الرجوع الى هنا لكنت اخاف جداً من وحش جوي يرمي الصواعق من العلاء على من يشاء

وفيما هم على تلك الحال اذ امسك العلامة نظارة على الفور ووجه نظره الى جزيرة منتصبة وسط النهر

وقال هناك اربع اشجار

وفي الحقيقة كانت اشجار اربع مرتفعة في طرف تلك الجزيرة

ثم قال هذه جزيرة بنبا

قال ديك : وبعده ماذا يكون

قال فرغوسن ان شاء المولى نزلنا هناك

قال يوسف ولكن ارى ان السيد خائف عليها

قال ديك : ان كلام يوسف طبق واقعة الحال فاني اعاين نحو عشرين رجلاً مجتمعين في هذه الجزيرة

قال فرعوس . وهل يمكننا هؤلاء عن انفاذ مرغوبنا فانا سنبدد شملهم

قال ديك . اذا حسن ذلك لديك فانا في يدك

وبعد ما اقتربت المحصورة من الجزيرة كانت الشمس قد وصلت الى السمت وباشرت الغروب

اما العبيد الذين هم من قبيلة مكادر فاذ شاهدوا القبة الهوائية صرخوا في الصراخ ورفع واحد منهم قلنسوته عن رأسه وجعل يهزها في الهواء فاتخذها ديك هدفاً له ورماها برصاصة فسقطت من يده متمزقة ودهشت شذر مذر وولت الشجاعة عن قلوب العبيد بمرة وخافوا من تلك العظمة الجوية خوفاً عظيماً وللحال اسرعوا جميعاً بالنزول الى النهر وحاربوا بالسباحة ومن هناك ابتدوا يضربون القبة بالخناجر والخلاهق والاسنة لكنها لم تصبها قط ضربة واحدة ثم تعلقت مرساة المحصورة بشجرة صخر ونزل يوسف الى الارض في الساعة وللحال

فقال له العلامة انصب لنا السلم وانت يا ديك تعالَ معي

قال ديك والى اين ولمَ

قال هلمّ لي بنفسك سويةً لانه يعوزني شاهد

قال ديك . هاانا بين يديك

قال فرعوس وانت يا يوسف كن امينا في حراستك

قال يوسف . كن مرتاح البال من هذا القبيل فاني مسئول بالجميع

ثم ذهب العلامة برفيقهِ الى مجموع صخور منتصبة عند رأس الجزيرة وهناك جدّ في الفحص والتفتيش واحد يمش في الامام حتى تخضبت يداهُ بالدم ثم مسك بمحاذاة بيد رفيقهِ وقال له انظر الى ههنا

قال . ارى حروفاً

وفي الحقيقة كان حروف منقورين في الصخر وظاهرين ثاميان بجلاء وبيان

وهي D A اي ا . د .

قال فرغوس "اعلم يا رفيقي وفقك الله ان ا . د . هما اول حرفي اسم اندريا ديدو وهو من سبق جميع الذين قصدوا استكشاف عيون النيل في التقدم الى هذا المكان

قال ديك ان ذا امرٌ لا ردّ عليه

قال العلامة وهل عندك اشكال في الامر الان

قال انا هذا النيل ولا ريب فيه

ثم نظر فرغوس الى هذين الحرفين الثمينين نظرةً اخيرة واخذ رسمها بدقة تامة

وبعد ذلك قال الى رفيقه هلمَّ بنا لنعود الى قبتنا

قال ديك فلنسرع لان بعض العبيد يتأهبون لمراكب والاتيان الى هذا المقر

قال العلامة لا يهمنا الان شيء اذا دامت الريح بهبةٍ دفعتنا ذات الشمال حملتنا الى غندوكورو فنعاين ابناء الاوطان

وما مضت عشر دقائق الّا حلقت المحورة بصعودها الى الاعالي ثم نشر فرغوس الراية الانكليزية في تلك البطاح دلالةً على فوزه بالنجاح



الفصل السابع عشر

في الجبل المرتعب واقوام نيام نيام وما كان من احاديث العرب عن تلك البلاد

وقد شاهد ديك رفيقه العلامة ناظراً الى البوصلة سأله قائلاً وما هو الخبر

قال العلامة انا نسير الى جهة شمال الشمالي الغربي

قال ديك . ويلاه ان هذه الجهة ليست الشمالية

قال العلامة كلا واظن انه يعسر علينا جداً الوصول الى غندوكورو وذلك مما يكدرني . غير انه على كل الاحوال فانا قد وصلنا حيال اكتشافات الجهة الشرقية بالشمالية فعليه لا يليق بنا الاسف

وجعلت المحصورة تبتعد رويداً رويداً من الجبال

ولاحت من العلامة التفاتة الى تلك درجة العرض التي امتنع على اعظم السواح قطعها وقال - هناك تلك القبائل العاصية التي عجز عنها بتاريك ودربو وميان واشباب جلات الذين تركوا لنا احسن الفوائد المتعلقة بالنيل الاعلى

قال ديك والحالة هذه قد أيدت اكتشافاتنا سابق تخمينات العلماء

قال فرغوسن اي نعم قد ايدتها كثيراً فان ينابيع البحر الابيض مغمورة في بحيرة عظيمة كالبحر وكثيراً ما نظمت الاشعار بشأنه محاولة ان تأصله من ينبوع سماوي وقد دعاه القدماء باسم اوقيانوس وقرب الى ظنهم انه جار من الشمس خطاً مستقيماً . ولاشك ان مثل هذه التخيلات الشعرية تخسر شيئاً من رونقها فعلينا ان نستقي من مياه الفوائد التي يأتينا بها العلم عند ما رواه

عرياً عن الصحة وسمعك عا فيه صحة الرأي

قال يوسف وهناك شلالات ايضاً

قال فرعوس . انما هي شلالات مكدر في ثلاث درجات عرضا ولا شيء ادق من ذلك واني لو كنا تمكنا من الرحيل فوق خط النيل

قال الصياد وكأني ارى عن بعد رأس جبل

قال فرعوس . هذا جبل تكويك المعروف عند العرب بالجبال الزغب وقد طاف تدريجاً دنو حول هذه البلاد وهو مشغل لنفسه اسم انجليف افندي اما الاقوام الساكنون بالقرب من النيل فهم اعداء بعضهم لبعض ولا ينفكون من القتال والمصارعة وعليه فلا بدّ من ان يكون دنو الذكور قد عانى من المشقات والمصاعب والمحذورات معظمها

وقد حملت الريح على المركبة مصدرة المسافرين الى الجهة الشمالية الغربية بعد العلامة في ان يجد طبقة هواء معروفة عن الاتجاه الى جبل تكويك لتنحى عنه

فقال العلامة . عليّ منذ هذه الساعة تبدأ رحلتنا الافريقية لانا فيما سبق لم نتبع الآثار من سلفنا وها نحن الان نرمي بانفسنا في بحر هذه المناور المجهولة ما فقولا لي هل تحمد همتكما ويرد نشاطكما

فصاح الرفيقان بصوت واحد وقالا كلا ثم كلا

فقال فرعوس هيا بنا هيا يا خليلي ونسير بحفظ المولى

ولما دخلت الساعة العاشرة وقد مرّ اد ذلك المسافرون فوق وهدات واحراش وقرى متفرقة وصلوا اخيرًا الى جانب الجبل المزغب فسادوه وعبروا غير عائقة

وفي ذلك النهار المخلد الذكر اي في ٢٣ نيسان مرّوا بدرجة خمس عشرة

ساعة مسافة ثلاثمائة وخمسة عشر ميلاً جغرافياً وذلك بقوة ريح شديدة

ولكنك كنت تراهم في هذه المدة الاخيرة ملتحفين بشعار كآبة لا سبب ظاهر لها وقد ملك السكوت المطلق في افئدتهم فهل يا ترى كان فرغوس غارقاً في بحر التأملات من جرى اكتشافاته ام كان رفيقاه حاملين على عاتقهما عبء الاهتمام بالرحلة البعيدة وسط البلاد القفرة والمفاوز الشاسعة وهم اذ ذاك لا يعرفون لها مدى ولا نهاية فلا شك في ان جميع هذه الامور تخللت افكار المسافرين وقد خالجها التذكر بالاوطان والخلان

اما يوسف فما لاحت على محياه الّا لوائح عدم الاكتراث بشيء واذا خطر له على بال ذكر هوى الاوطان قد قال لم تغب عني الاوطان بل انا غبت عنها وهذه علة غربتي ومع ذلك قد نظر الى سكوت رفيقيه بعين الحرمة والاعتبار

فعند الساعة العاشرة مساء القت المركبة مرساتها في جوار الجبل المرتجف وتناولوا العشاء بهناء ثم رقدوا بحراسة كل منهم

وفي الغد طرقت اذهانهم الافكار الصافية وكان الجو رائقاً والريح تتلاعب في تلك الآفاق ومهبها من الجهة الموافقة فقام يوسف وقدم لرفيقيه فطوراً لذيذاً فانتعشت منهم الاكباد وتحوّلت اخلاقهم من دار العبوس الى دار الايناس

واما البلاد التي جازوها في ذلك اليوم فهي شاسعة جداً وتخومها من جبال القمر الى جبال دربور وتلك المسافة تكاد تبلغ مسافة اوربا من اولها الى آخرها

فقال العلامة انا مازون الان بالبلاد التي زُعم منها انها مملكة أُوربا ورأى بعض اهل الجغرافية ان بحيرة عظيمة ممتدة في اواسطها فسحانم ان كان

في هذا الامر بعض ظواهر الحقيقة

قال ديك وكيف امكن افتراض ذلك الرأي

قال فرغوس . انهم افترضوه من حكايات العرب الذين يكثرون من الاخبار والاحاديث فان بعض المسافرين عند وصولهم الى كانو او الى البحيرات العظيمة تلاقوا بعبيد من الاقاليم المتوسطة فاستعلموا منهم عن بلادهم ثم جمعوا ربمة اوراق تلك الاخبار واستنتجوا منها أقيسة وذهبوا فيها مذاهب شتى وهي في جوهرها لا تخلو من بعض الصحة والحقيقة وقد رأيت الان ان حكاياتهم عن منبع النيل وقعت موقع الحقيقة وان لم توجد قولاً على محمل الصدق

قال ديك : في الحق تكلمت

فاستتلى فرغوس كلامهُ وقال . انهُ بواسطة هذه الاوراق والاخبار سُطرت الرسوم الجغرافية ولهذا سأسير في طريقي طبقاً لهذه الرسوم واصححها اذا مست الحاجة

قال يوسف . يا مولاي وهل هذه البلاد مسكونة بالاهالي

قال العلامة لا ريب في انها مسكونة ولكن بئس السكن وجميع هؤلاء الاقوام يُعرفون باقوام نيام نيام وما وُضع هذا الاسم الّا محاكاة للصوت والملك

قال يوسف : بالتمام والكمال نيام نيام نيام نيام فكأني سامعهُ

قال العلامة . لو كنت سبباً لهذا اللقب لما طابت لديك

قال يوسف : فسر لي كلامك يا سيدي

قال فرغوس : اعلم ان هؤلاء الاقوام معدودون اعوالاً يأكلون لحم بني آدم

قال يوسف - وهل ذا امر لا يشوبهُ ريب

قال العلامة ولا ريب فيهِ ومن الناس من قال عنهم ان لهم اذناب كالدواب والبهائم ولكن تحقق عندهم فيما بعد ان هذه الاذناب خاصة بجلود بعض الحيوانات التي كانوا يتزينون بها

قال يوسف : وما اغلى من الذنب فانهُ يصلح لطرد الناموس والبعوض

قال فرغوس : ربما يصلح لذلك ولكن ينبغي ان ندخل هذه الحكايات في طي الخرافات مجانسةً لحد السراج من رؤوس الكلاب الى بعض الاقوام الافريقيين

قال يوسف : ولا اغلى من رؤوس الكلاب ايضاً لانها تصلح للعواء حتى وتصلح لأن تكل بني البشر

قال فرغوس - ان الامر المثبوتة صحتهُ والموجب كل الاسف انما هو ان هؤلاء الاقوام متولعون جداً في تلقف بشرة الانسان وطالبونها بمرام عظيم

قال يوسف : اودّ ان لا يرموا في جسدي

قال الصياد وهذا حسبك يا يوسف

قال يوسف : اذا طرأ علينا يوم قحط وجوع ومست الحاجة الى ان أوكل فارغب في ان تتمتع بي انت وسيدي ولكن اذا وقعت في ايدي هؤلاء البرابرة وقضي عليّ بان أكون لهم غداء لا بد من ان اموت حرباً وكمداً

قال الصياد - حياك الله يا يوسف فقد تم الاتفاق بيننا وعوّلنا على ان نعتمد عليك وقت الحاجة

قال يوسف : سادتي انا بالخدمة

قال العلامة : انهُ يتفوّه بهذا الكلام لمعتني به وتقيته قوتاً جيداً فيسمن ويتحم

قال يوسف ان ذا رأيٌ محتمل استوجد عليه حب الذات المفرط لأن الانسان حيوانٌ

ولما كان بعد الظهر تجللت السماء بسحاب حتى يتصاعد من الارض ويمنع المسافرين عن تمييز الاشياء في طريقهم قد عوّل العلامة على ان يرمي المرساة الساعة الخامسة خشية من ان تصدم المركبة رأس صخرة وهم لا يشعرون بذلك

فقضوا ليلتهم حيثما كانوا ولم يطرأ عليهم طارق غير ان مثل ذلك الظلام اوجب عليهم مضاعفة السهر والاحتراز

وبعد الصباح قد هبت الريح بشدة وصار الهواء يدخل متعمقاً في اسفل القبة ويحرك الآلة التي كانت تدخل فيها انابيب استمداد البخار فسعوا اضطرابها بحبال شُدَّت بها وقد تمم يوسف هذا الامر باحكام وفطنة

وتفحص يوسف في فوهة القبة الهوائية وتحقق انها مسدودة سداً محكماً

فقال العلامة لنا فائدة من جهتين بسدادة الفوهة فمن الجهة الاولى لا يتلف البار الثمين ومن الجهة الثانية لا نترك وراءنا دماً قابل الاشتعال لانهُ يخشى عليهِ اخيرًا ان يلتهب ويحرق القبة

قال يوسف ولا اردأ من هذا حادث السوء في رحلتنا

قال ديك وهل اذا لا سمح الله بُلينا بهِ تهوَّرنا الى الارض بسرعة

قال العلامة كلاَّ فلا تهوُّر بسرعة بل يأخذ البار في الاشتعال رويداً رويداً وينزل قليلاً فقليلاً وهذا ما جرى للسيدة الفرنسية بلشار وهي راكبة مركبة هوائية فقد اشتعلت قبتها وهي ترمي بالاسهام النارية من مركبتها لكنها لم تسقط حالاً ولو لم تصدم في نزولها مدخنة قلبت قاربها لما كان اصابها ما اصابها من السوء

قال الصياد: اودّ أن لا يعوقنا مثل هذا العارض المشؤوم لاني الى الآن لم ارَ خطرًا في رحلتنا ولا ارى سببًا يصدنا عن الوصول الى اربا

قال العلامة: ولا انا ايضًا واعلم يا صاح ان العوارض التي طرأت على راكبي المركبات كانت دائمًا مسببة عن قلة فطنتهم او عن قصور بدا منهم في ما القبة وآلاتها ومع هذا كله فلم نسمع عن حوادث سببت الموت لراكبي المركبات الّا ما قلّ ويكاد يبلغ الواحد في الالف ولكن في العموم ليست الاخطار الّا في الارتفاع فوق الارض والنزول اليها ولذلك ينبغي لنا ان نكون على حرص وحذر لئلا يبدو منا قصورٌ وتوانٍ في الاعتناء الكامل

قال يوسف: هذا وقت العشاء يا سادتي فستكي حالًا في ان نتناول لحمًا قديدًا وبعده نشرب القهوة الى ان نتمكن ذلك من ان يصطاد لنا بعض الوحوش ذات اللحوم اللذيذة

الفصل الثامن عشر

في الابنية السماوية والاشجار السامية الارتفاع والمدمعة الشنيعه التي تمثلها الوسائط الالهية

ثم اشتدت الريح وهبت من جهات مختلفة ولم يعرف لها اتجاه ولما كانت المنصورة تثب وثبات شديدة مديدة تارة نحو الشمال وطورا نحو الجنوب ولم يستطع فرغوسن ان يصادف مهبا ثابتا

فلما نظر ديك الى الابرة المغناطيسية ورآها تضطرب وتتذبذب كثيرا قال: اننا نسير بسرعة هائلة لكننا نتقدم قليلا الى ما قدام

فقال العلامة ان المنصورة تسير اقله مسافة ثلاثين ميلا في الساعة وعليك يا ديك ان تميل بنظرك الى اسفل فترى كيف تتوارى الحقول عن ابصارك وانظر الى هذا الغاب ايضا فكأنه مسرع الى ملاقاتنا

قال الصياد اما ترى ان الدغل قد قام مقام الغاب فما مضت برهة الا وتكلم يوسف وقال هاك القرية قد قامت مقام الدغل فتأملا في السودان كيف ان الدهشة استولت على محياهم يا ما ابلدهم

قال العلامة: ومن الامور الطبيعية ان تستولي عليهم البهتة والدهشة فان الملاحين الفرنسيين عند مشاهدتهم القباب الطيارة في المرة الاولى ظنوا انها وحوش جوية فاطلقوا عليها الرصاص ولهذا لا عجب اذا حدقت السودان ابصارهم متفرجين على قبتنا

وكانت المنصورة مارة فوق قرية وهي لا تعلوها اكثر من مائة قدم

فقال يوسف طرق ذهني ان التي هؤلاء الاقوام المفرطين ايه فارغة ان أدت لي يا سيدي فاذا وصلت الى الارض سالمة من كل عائق عدوها كافة واذا تحطمت كسرًا اتحدوا تلك الكسر كطلسمات سحرية

فما فاه بهذا الكلام الّا وترى بالآية قد تكسرت ارباً اما السودان اضطربوا وصعقوا في الصراخ ثم طفقوا يأوون الى كهوفهم خوفاً من الغوايل المحوية

وبعد ان ساروا ردحاً قال ديك ها هو شجرة غريبة الشكل لانها من جنس في اعلاها وجنس آخر في اسفلها

قال يوسف - ويحك يا ديك ان الاشجار في هذه البلاد تنبت بعضها فوق بعض

قال العلامة - اما حقيقة الامر هو ان جذع شجرة تجمع عليه تراب سافي هبت الريح يوماً ووقعت بزرة نخل على ذلك التراب فنبتت النخلة كأنما زرعت في حقلة

قال يوسف - لعمري انها لصناعة جميلة ساهمتم عونه تعالى في ان اخرجها بعناية لقدرة ان ذلك مما يطرب الخاطر ويعجب الناظر وهي وسيلة طريفة لتكثير الاشجار ذات الاثمار لارتقاء الحدائق الى النمو ولا بدّ من ان يسرّ بهذه الطريقة اصحاب العقارات والاملاك الصغيرة

ثم اضطرت المصورة الى ان تعلو الارض كثيراً لتمرّ فوق اشجار باسقة يبلغ علوها نحو ثلاثمائة قدم ونيف وهي من جنس البان الطويل العمر

قال ديك - وما احلى هذه الاشجار وما اجملها لعمري لم ارَ في حياتي مشهداً بهياً كمشهد هذا الحرش ذي الاشجار القديمة الايام وارجوك يا فرعوس ان تتمهل فيه قليلاً

قال فرعوس . في الحقيقــة ان اشجار هذا الغاب من اعجب العجــائب ولكن الاعجب من ذلك هو انهُ في البلاد الاميركانية توجد اشجار اشمخ وابسق منها

قال ديك : واعجباه وهل من شجر اسمى علوًا وارتفاعًا من هذه

قال العلامة : لا شك في ذلك وتلك الاشجار ندعوها باسم ممونت تريس اي اشجار ممونث فقد وجد في بلاد كاليفرنيا ارزة بلغ علوها اربعمئة وخمسون قدمًا وهذا العلو يفوق برج لندرة (وهو من الابراج المشهورة في العلو) حتى واعظم اهرام مصر واما قاعدتها فبلغت دائرتها مائة وعشرين قدمًا وقد أستدل من الطبقات الظاهرة فيها ان عمرها يفوق الاربعة الاف سنة

قال يوسف . والحالة هذه فلا عجب في علوها وشموخهــا لان من عاش كثيرًا طال كثيرًا والشجرة التي عاشت مدة اربعة الاف سنة فمن الضرورة ان يوافق علوها طول عمرها

ولكن ما تمت حكاية العلامة وجواب يوسف ألَّا توارى الغــاب عن انظارهم ووصلوا فوق أكواخ مبنية حول ساحة مستديرة ووسط تلك الســاحة شجرة وحيدة فلما نظر يوسف اليهـــا قال ويلاه اذا كانت هذه الشجرة تأتي بمثل تلك الاثمار مند اربعة الاف سنة فلا احييها بالسلام ولا اسرُّ برؤيتها

قال هذا وأومى الى جميزة سامية العلو وقد غطي جرعها بكومــة من عظام بني آدم وقد اعي يوسف بالابصار عن رؤوس مقطوعة حديثًا كانت معلقةً على حناجر مشكوكة في قشرة الشجرة

قال العلامة . يا لها من حرب شنيعة تشبـــه حرب السوس فان الهنود في مثل هذه الحروب يسلخون رأس الاســـير الذي يقع تحت عائلة القتل واما الافريقيون فيقطعون راسهُ تامًا

قال يوسف : ان لكل فريق عادة

فما مضى برهة الا تركوا وراءهم تلك القرية ذات الرؤوس المخضبة بالدماء وبعد ذلك وصلوا الى قرية اخرى شاهدوا فيها منظراً يفتت الاكباد ويحرقها تحسراً وتأسفاً اذ نظروا جثث بعض القتلى المأكولة الى نصفها وعظاماً مجردة عن اللحم واعضاء اجسام بشرية مبعثرة هنا وهنالك وتجدب رائحتها الضباع والبنات آوى ليلتقموا منها ما بقي من اللحوم

قال العلامة لا ريب في ان هذه اجسام المجرمين وفي بلاد الحبشة ايضاً يعاقب الاثمة بعقاب ليس اقل شناعة ورداءة اذ يلقونهم عرضة للوحوش الكاسرة بعد ان خنقتهم هذه بهيئة من هيئاتها المميتة تأخذ في ان تتخطفهم على خاطرها وهواها

قال الصياد ليس هذا العقاب امرّ من المشنقة بل انما هو اشنع واقبح كثيراً

قال العلامة ان عقاب المذنبين في بلاد افريقية الجنوبية هو انهم يجعلون في اكواخهم مع ماشيتهم واحياناً مع عائلتهم ثم تضرم فيها النيران فيحترق الجميع معاً وانا احب هذا العقاب توحشاً لكي اقرّ معترفاً مع صاحبي ديك ان المشنقة عقاب بربري ايضاً وان كان اقل قساوة وشناعة من ذاك

اما يوسف فتوجه للحول فقد فلمح بنظره بعض شرذمات من الطيور الكاسرة تحوم في الافق

فنظر اليها ديك بالنظارة وقال : انما هي نسور جميلة وسرعة طيرانها تضاهي سرعة مسيرنا الجوي

قال العلامة : وقانا الله من صدمة تصدم بها هذه الطيور فقتنا فاني اخشاها اكثر من الوحوش الضاريات والاقوام المتوحشين

قال فيلك ولنا هذه الحلقة ألا تعلم انا نسدد ثقلها بالرصاص

قال العلامة احبّ عليّ ان لا احتاج الى حذفك هذه الدفعة لان قلنس قبتنا ليست من حديد ليقاوم نقرة من نقار منقارها غير اني اراها قد احتشت قبتنا ولم تعدها الينا عرانة محصورتنا

قال يوسف ولكن طرق ذهني فكرٌ يا خليلي فان الافكار تداهمني اليوم بالعشرات والمئات وهو لو امكننا ان نقطع زمرة من النسور لحية ونربطها بمركبتنا لقد حرّتنا في الجوّ على اجمل منوال

قال العلامة وقد عرضت هذه الطريقة بخاطري انما الذي يمنع نفوذ الامر هو الخاق للخروج المسيطرة عليه تلك الطيور

قال يوسف . وهلاّ يمكن ترويضها وتهذيبها وعوضاً عن اللجام تحمل عصابة على عيونها فاذا فُتحت عين اليمين سارت النسور ذات شمال والعكس بالعكس واذا فُتحت العينان وقفت ستة الطيور

قال العلامـــة : أذن لي يا حبيبي ان أفصل ريثما موافقـــة على نسورك المقطورة لان الريح لا تأكل طيرها وترى لي اين

قال يوسف : الاذن معك يا سيدي لكي ما زلت حافظاً ما رأيتـــهُ من الرأي

قال العلامة لا بأس في ذلك

وكان الطير والمحصورة اخذت في سيرانهما في تلك البطاح وعلى الورد طرق آذان المسافرين صحيح وغرير وصغير فتطلعوا من مركبتهم الى اسفل واذا ترأى لاعينهم ما حملهم على التأسف والكدر وجمع افئدتهم غماً وحسكرنا وهو مشهد قبيلتين متوحشتين في معمعة القتال يبارز بعضهم بعضاً ويقتل بعضهم بعاندة وضغن شديد وبينما هم يتقاتلون ويتناحرون مساحة الكلاب اذا مرت

المصورة فوقهم ولم يشاهدوها وكانوا نحو ثلاثمائة من محتشكين في حومة المعركة وكثيرون منهم خاضبون في دماء قتلاهم ومنظرهم مما تمجه الاعين وتأنف منه القلوب

فعند ما بصروا بالقبة الطيارة وقعوا لحظة وازدادوا ضجيجاً وسباقاً وصوبوا نحوها بالسهام فوصلت منها واحدة بالقرب منها وتمكن يوسف من امساكها بيده

فقال حينئذ فرعوس فلنرتفع الى الاعالي لئلا يصيبنا سهم ولا تكون قلبي العطلة فانه لا يجوز لنا ان نستقر في هذه الدرجة فاخذت المصورة بالارتفاع وما زال الدكر والعرار جاريين على قدم وساق فسدت السائل وتكسرت النصال وتحطمت السمر الطوال واحمرّ بساط الارض من هدر الدماء في ذلك القتال وكلما تحدل عدوٌّ الى الخصيص قتلة حصمة بضربة فقطع رأسه للحال وقد تعالت النساء في تلك الملحمة الهائلة فكنّ يتسابقن على جمع الرؤوس السابحة في الدماء المتفجرة ويذهبن بها الى آخر ساحة القتال وكثيراً ما تصارعن لحظوى بتلك غنائم الظفر الكريهة المنظر

فقال ديك وقد شقّ قلبه سماع الكدر والنفور مما شاهده في تلك الملحمة الهائلة ويلاه ما قبح هذا المشهد وما اسوأه

قال يوسف ان المحاربين اناس دون صورة قبيحة ولكن لو لبسوا الثياب العسكرية لكانوا كسائر الجنود في الحروب المدنية

فقال ديك ارغب جداً في ان اتوسط بين هؤلاء المحاربين في هذه المعركة الهائلة

قال هذا ومسك سلاحه متأهباً لاطلاق الرصاص

قال العلامة حذار حذار من هذا الصنيع فانه لا يأتينا الّا بالاذية والضرر

فلهم تأ يتنيا وقل لي ايضاً هل تعرف من من الطائفتين هي المدنة لتتوسط بينهما وتستنصر لاحداهن. فالخليق ما ان نعرُّ من هذا المنظر البشع الذي تنفر منه القلوب فلو اشرف رؤساء الجنود في الحروب على ساحات الحرب وتأملوا ما يجري فيها من سفك الدماء لذهب ذلك المشهد برغبتهم في المحاربة وحب الفتوحات

وكان احد رؤساء الطائفتين جبار طويل القامة وعريض الجسم فانهُ كان يخترق صفوف العدو ويضرب بالبأس ويشك الرمح ثم القى خطلة رمحهُ بعيداً عنهُ وكان منغمساً في الدم ورمى بنفسه على احد الجرحى ثم هدم ذراعهُ بضربة واحدة من الفأس وامسكهُ بيده رفعا اياه الى فمهِ وجعل يمضغهُ بتواتر

قال ذيك: ويلاهُ ما هذا الوحش المفترس لقد عيل اصطباري

قال هذا واطلق عليهِ رصاصة فاصابتهُ في جبهتهِ وصرعتهُ الى الارض مستلقياً على ظهره. وبعد سقوطهِ استولت الدهشة والرعب على قلوب اتباعهِ وارتاعوا من موت رئيسهم العجيب وهاجت منهم الافكار اما اخصامهم فازدادوا شجاعةً وحماسةً وعليهِ قد فرَّ معظم المحاربين من حومة القتال

فقال العلامة - هلموا يا رفاقي الى طبقة اعلى لنعد ريثما نتقدما الى مكان بعيد عن مشهد هؤلاء البرابرة لانهُ قد حصل في قلبي حاسة الغم والكدر ولا عدت اطيق النظر اليهِ

وبعد ان رحلوا برهةً شاهدوا عن بعد الطائفة المستظهرة قد انقضت على القتلى والجرحى انقضاض الجوارح وجعلت تتنازع على لحومهم النيئة لتأكلها بشراهة وحرص

فقال يوسف أُفٍّ أُفٍّ ان ذا لموجب الاستكراه الزار الزار

ولما المعمورة فشرعت في الارتفاع والامتداد وتبعهم قوم من اولئك

الدائرة المسوح وهم يصخبون في الصراخ والعويل ولكن لما دفعتها الريح الى الجنوب توارت عن المدينة الهائلة وما تسكنه الجم البشري

وكانت الارض في تلك الجهات مختلفة الهيئة والمنظر وتخططها مجاري المياه الكثيرة السائلة الى الجهة الشرقية ولا بدَّ انها تسكب مياهها في مصاب البحيرة نو وفي نهر الغزال الذي القى عنه المسافر حاب فوائد غريبة الاشكال والالوان ولما امسى المساء القت المصورة مرساتها في درجة ٢٧° طولاً و٢٠° ٤ عرضاً شمالياً بعد ان قطعت مسافة ١٥٠ ميلاً



الفصل التاسع عشر

في الغارة الليلية والصوت الصارخ اليّ اليّ وطلب الاجتهاد في نجاة المرسل

وكان ظلام الليل حالكاً لم يسمح للعلامة فرغوسن ان يميز تلك البلاد ويعرف مركزه ولما كان متعلقاً بمركبته فوق شجرة عالية فما تكاد تمكن من رؤية اوراقها المتكاثفة في ذلك الظلام الدامس

وقد توكل لحراسة مدة الثلاث ساعات التي يليها نصف الليل فقام ديك ليجلس مكانه لحرسة فرغوسن على ان لا يهمل في حراسته عن مراقبة ما يمكن ان يطرأ عليهم من الحوادث وقال قال لي اني سمعت تمتمماً ولغطاً تحتنا ولا ادري ما هو

قال ديك لربما سمعت اصوات بعض الوحوش الكاسرة

قال العلامة كلاَّ فاني اخذته شيئاً آخر وعلى كل حال عليك ان تيقظنا عند ما يروعك ادنى شيء

قال ديك - لا بد من ذلك

وبعد ان امال العلامة اذنيه الى اسفل ولم يسمع شيئاً ارتمى على فراشه وتدثر باللحاف ونام

وكانت السماء مظللة بغيوم كثيفة ولكن الريح في استكانة وهدوء ولم تتذبذب قط المصورة وان تكن معلقة بمرساة واحدة

فلبث ديك ساطراً قصة القنة وكان ساندا ذراعه على المركبة ويتأمل احياناً بما حوله من السكوت العميق وينظر تارة الى الافق كي يستقصي عن

امر وهو في اضطراب وقلق وحسب انهُ يشاهد ضياء مبهماً

وفي لحظـــةٍ ظنَّ انهُ شاهد حلياً ضياء ساطعاً عن بعد نحو مائتي قدم لكنهُ كان كالبرق السريع اذ توارى عن بصره ولم يبقَ لهُ اثر

فلم يكن ذلك الضياء الاَّ كتلك الاحساسات المبينة التي تتراءى لاعين المتأملين في ظلمات الليل الحالكة

فسكن روع ديك وذهب اضطرابهُ وجعل يتأمل في الفضـــاء واذا بصفير حادّ دوى في جوّ تلك الآفاق

فسأل ديك في نفســهِ قائلاً. هل هذا هو صوت حيوان ام طير الليل او هل هو صراخ ابن آدم

وكاد ديك يوقظ رفيقيه خشيته من خطــر يلمُّ به وهو على تلك الحال لكنهُ قال في نفسهِ: ان كان هؤلاء رجالاً او وحوشاً فهم غير قادرين على الوصول الى قتنا ثم نظر الى سلاحهِ واخذ مطرة الليل وجعل يحدق بصرهُ في الفضاء

فخيل لهُ انهُ رأى تحت القمة خيالات تتسلق على الشجرة ثم ارسل بدر الليل شعاعاً ضئيلاً من بين سحابتين فتمكن ديك من مشاهدة بعض اشخاص متحركين ومختبين في الظلام

فطرق حينئذٍ ذهنهُ تلك السعادين اللاتي صارعهـــا العلامة وهو اذ ذاك مقيم وضمهُ في المركبة ولساعتهِ وضع يدهُ على كتف العلامة

فاستيقظ فرغوس في الحال وقبل ان يستفهم من رفيقهِ عن واقعة الحال قال لهُ ديك صهْ يا فرغوس ولاتتكلم الاَّ بصوتٍ منخفض

قال العلامة: وهل من حادث طرأ

قال. نعم فليستيقظ يوسف

فلما استفاق يوسف من الرقاد اخذ الصياد في التعبير عما تراءى لهُ

فقال يوسف قبح الله السعادين فانها تودُّ ان تقتلنا

قال العلامة وعلينا باخذ الاحتياط اللازم

قال ديك اني انزل مع يوسف الى الشجرة بالسلم لفك المرساة

قال العلامة . اما انا في غضون ذلك ساعدّ الآلة لنتمكن من الصعود الى العلاء بسرعة وخفة

وقال يوسف . هلمَّ يا ديك ننزل

قال لهما العلامة . اياكما ان تستعملا السلاح اذا لم تحوجكما الى ذلك الضرورة القصوى لان لا فائدة لنا ان يدري بنا احدٌ في هذه النواحي

فاوى ديك ويوسف الى العلامة بالاشارة جواباً عن سوالهِ ثم نزلا الى الشجرة واتكئا على اغصان كبيرة كانت المرساة متعلقة باحداهنَّ

ثم وقفا لحظةً ناصتين فسمع يوسف حكاً في قشر الشجرة

فمسك بيد رفيقهِ وقال . انصت باديك واسمع

قال : اني سامع واخال الصوت يقرب منا

قال يوسف : عسى ان يكون ما سمعتهُ صفير حية

قال . كلاَّ لانهُ كان يشبه صوتاً بشرياً

قال يوسف : لصعبٌ عليَّ ان يكونوا اقواماً برابرة من ان تكون افاعي مسمة فاني لا اطيقها

ثم مضت برهةً وقال ديك . ان الحكة تزداد رويداً رويداً

قال يوسف : نعم فان الآتي الينا يتسلق ويصعد

قال ديك : انت قم في حراسة هذه الجهة وانا اتوكل حراسة الاخرى

فكانا كلاهمــا منفردين على ذروة غصن كبير نابت بخطٍ مستقيم في وسط تلك شجرة الزوناب التي تضاهي عرشاً بكبرها واتساعها

فزاد كثيف الاورق ظلاماً على كثيف الظلام ولكن قد دنا يوسف من رفيقه وأوى اليه ان ينظر الى ناحية الشجرة السفلى وقال انهم عبيد سود

ثم سمع الرفيقان كلاماً تداولته العبيد من اسفل

فرفع يوسف سلاحه مستعداً لاطلاق النار

فقال له ديك ـ مهلاً رويداً يا يوسف

وفي الحقيقة فكان بعض العبيد السود قد تسلقوا الشجرة وهم هائجون ومائجون وكانوا يسيرون على الاغصان كالافاعي وقد تحقق دوهم بما اباحة اجسادهم من الروائح الكريهة لكونها ممزوجة بالشحم المنتن

ثم تراءى لانظار ديك ويوسف رأسان وذلك عند ساقات الغصن المقيمان هما عليه

فقال ديك هيا يا يوسف اطلق النار

فاطلق الرصاص معاً وسمع لطلقتهما دوي اشبه بقصيف الرعد ثم خمد الدوي ما بين اصوات الاكتئاب وعند مرور دقيقة من الزمن غابت تلك الشرذمة السوداء

واما الذي القى اصحابنا الثلاثة في بحر القلق والحيرة هو انهم سمعوا صوتاً يخالف ذلك الصحيح ولم يكن يخطر لافهم انهم يسمعوه وظنوه مستحيلاً وهو صوت بشري نطق بالكلمات الآتية باللغة الافرنسيسة بوضوح وجلاء وهي :

A moi ! A moi ! الي الي

فاستدهل ديك ويوسف عن هذا الصوت العجيب وعادا مسرعين الى المركبة

قال لهما العلامة أسمعتما

قال ديك : سمعنا الصوت العجيب الصارخ الي الي

قال العلامة . عســاهُ صوت رجل ونسي رماهُ التعس في ايدي هؤلاء البرابرة

قال ديك . ربما هو سائح اوربي

قال يوسف . او احد المرسلين

فقال الصياد : واهًا على حظهِ فانهم يقتلونهُ ويذيقونهُ عذاب الشهداء الاليم

فقال العلامة وقد خالج صدره شعائر الاضطراب والتأسف . لا شكَّ في ذلك وهو ان احد المرسلين قد اضحى فريسةً لتوحش ذلك القوم المكروه ولكن لا نرحل من هنا الّا بعد ان نكون عملنا جهدنا وجهدنا لننجيهِ من تهلكتهِ ولا ريب انهُ لسماعهِ طلقة البارودة يكون قد خطر لهُ في بالهِ ان يدًا غريبة قد اتت لنجدتهِ بواسطة عجيبة من العناية الالهية ادركتهُ فلا نخيبنَّ اذًا املهُ يا خليليَّ . كيف رايكما

قال ديك : ان ذا الراي رايًا يا فرغوس وها نحن بين يديك فمرنا بما تشاءُ

قال فرغوس : علينا ان نهيئ منذ الان شغلنا وقفنا عند بزوغ الفجر نجدهُ في انتشالهِ من ايدي قاتليهِ

فسأل ديك رفيقهُ قائلًا : ولكن كيف نبدد شمل البرابرة السودان

قال العلامة : تحقق لديَّ الان انهم لا يعرفون الاسلحة النارية لانهم خافوا منها خوفًا عظيمًا وذهبوا راشين مرتدي المرائض فيلزم اذًا ان نغتنم فرصة اضطرابهم بهذه الواسطة ولكن لا نبدا في امرنا الّا عند الصباح حتى نرى هل يوافقنا المكان

قال يوسف : لابد من ان يكون هذا المسكين قريبًا منا لانهُ . . .

فما فاه باللفظة الاخيرة الّا اعاد الصارخ صوتهُ قائلًا · اليَّ اليَّ

فقال يوسف وهو مختلج الفؤاد · تعساً لهؤلاء البرابرة ونخزٍ لفعالهم فانهم لايزالون يعذبونهُ وعساهم ان يقتلوهُ هذه الليلة

فسك ديك يد العلامة وقال لهُ · أسمعت ما قالهُ يوسف عساهم ان يقتلوهُ هذه الليلة

قال ورغوس · ان ظنكما بعيد عن الحقيقة لان هؤلاء الاقوام المتوحشين لا يقتلون اسراهم الّا في النهار ويقتضي انفاذ فعالهم الرديئة سطوع اشعة الشمس المضيئة

فقال ديك · وهل يا ترى لا يوافق ان اتهز فرصة الظلام وانزل مسرعاً اليهِ وانتشلهُ من عائلتهِ ثم اتي بهِ الى المركبة

قال يوسف : سيدي وانا اذهب برفقتك

فقـــال ورغوس · مكانكما يا خليليَّ رويداً رويداً فان قصدكما هذا هو برهان واضح عن خلوص طويتكما وشجاعتكما لكنكما ربما تصيران ما جميعاً وعوضاً عن ان تنيلا ذلك المتنس حظاً سعيداً فانكما تحملان مصيبة التعس والويل

قال ديك · وما سبب ذلك فان هؤلاء البرابرة ذهبوا متوحشين مرتعبين ولا عادوا يرجعون الى هذا المكان

قال العلامة · اتوسل اليك طالبًا ان تسمع لمقالي ولا تنقاد لشعائر حميتك التي تحثك على بذل اقصى جهدك في خلاص المتعذب

قال ديك · أرأيتُ كيف يكون حال هذا المسكين المضطرب الفؤاد الذي لا يجيب احدٌ سؤالهُ ولا يأتيهِ معين ولا نصير وربما ظنَّ ان قد خدعتهُ حواسهُ وليس ما سمعهُ من صوت الطلقة الّا هباءً منثور واضغاث احلام

قال العلامة فما ابي اطمئن بالله الآن

ثم استوى قائماً وسط المركبة ورفع صوته صارخاً باللغة الاوربية وقال :

طأمن من روعك يا ايها الاسير المكتئب وثق بثلاثة اصحاب يحرسونك

فعزت البرابرة باصواتهم الحادة وحنجوا صارخين وهكذا منعوا الرفاق الثلاثة من ان يسمعوا جواب الاسير

فقال ديك : واسفاهُ عليهِ فانهم يدعونهُ او هم مستعدون لذبحهِ وستذهب وساطتنا هدراً ولا تكون معتب الا تعجيل ساعة قتله وشدة عذابهِ فعلينا اذاً ان نشتغل الآن في امر نجاته

فقال العلامة وكيف العمل وما الحيلة وما الذي تعلمهُ مناسباً لعملهِ فيما بين هذا الظلام الدامس

قال يوسف . آه لو كانت تتبدد هذه الظلمات بنور ساطع

قال العلامة وما الذي تصنعهُ اذا تبدد الظلام واستنار هذا المكان

قال الصياد وحينئذ تسهل علينا الامور فاني انزل حالاً الى الارض وابدد شمل هؤلاء الانذال بضرب الرصاص وافعل ما اشاء

فقال العلامة وانت يا يوسف ما الذي تصنعهُ

قال يوسف . سيدي اني اسير في الطريق الاين واتصرف تصرفاً خالياً من الخطر وهو اني اعلم الاسير المتنبي ان يهرب الى صوب معلوم

قال فرغوسن وكيف تعلمهُ ذلك

قال يوسف اعلمهُ بواسطة هذا السهم الذي مسكتهُ لما كان طائراً في الجوّ فاني اربط فيهِ ورقة واصلها اليهِ او استعمل واسطة اخرى وهي اني اخاطبهُ بصوت مرتفع اذ لا يفهم السودان لغتنا

قال العلامة . ان مقاصدكما صعبة المورد ولا تصلح لنجاة الاسير المصونة

لانهُ لم يصعب عليهِ الفرار من ايدي مغتصبيهِ واما قصدك يا ديك فانهُ ربما ينجح اذ تلقي المقذوفات النارية الرعب في قلوب الزبارة وتحملهم يهربون شذر مذر ولكن اذا خاب مسعاك وخط عليك فانك تمسي في خطر مبين ونضطر الى الاهتمام بنجاة اثنين عوضاً عن الواحد فالاوفق اذاً ان نهتم ونجد بدون ان نكون عرضة للخطر

قال الصياد . عليك ان تهتم في الامر حالاً

قال يوسف . سيدي هل انت قادر على ان تبدد هذه الظلمات

قال العلامة . ان ذا لمن المستحيل

قال يوسف . اذا تممت هذا الامر دعوتك اول علماء عصرهِ

فسكت فرغوسن لحظةً وغاص في بحر الفكر متروياً في امر النجاة وكان رفيقاهُ محدقين بهِ بعجب وقلق اذ خافت انفسهم من موقفهم الخارق العادة وما مضت برهة الا واخذ فرغوسن في التكلم وقال . انصتا لمقالي يا خليليَّ فاني فكرت فكرًا وهو انهُ لم يزل عندنا نحو ٣٦ رطلاً من الثقل حيث ما حملناهُ من الرمل باقٍ على حالهِ ولم نمسهُ قط فاظن ان هذا الانسان مع شدة ضنكه وترصرضه تحت مطارق العذاب لا يزن اكثر من واحد مما يبقى اذاً عندنا نحو ١٢ رطلاً يمكننا ان نلقيها لنرتقي بسرعة الى الاعالي

قال ديك . وكيف يكون اجراء الامر

قال العلامة . انك تسلم معي اني اذا تمكنت من وضع الاسير في المركبة والقيت عني ثقلاً يوازي زنتهُ فلا يحدث خلل في موازنة القبة ولكن اذا رغبت حينئذٍ في ان ارتقي بسرعةٍ الى الجوّ لاهرب فارًا من هؤلاء المتوحشين فيلزمني ان التجئ الى قوةٍ مضاعفة لقوة القصبة والحال اذا القيت ما بقي من الثقل في الوقت المعلوم فلا شك انني اصعد بسرعة عجيبة

قال ديك : ان الامر بينٌ لا شبهة فيه

قال العلامة . نعم القول ولكن هنا محذور وهو اني عند ما اريد النزول فيا هل يلزمني ان اقذف كمية من النار مقابلة لما اسكب القنينة من الثقل الزائد والحال ان هذا المارثين محدد مع ذلك لا يسوغ لنا ان نأسف على فقده عند ما تمس الحاجة لنجاة انسان من الهلاك

قال في الحق تكلمت يا خليلي ومن الواجب ان نبذل كل ما في وسعنا لنجاته

قال العلامة . فلنبادر اذًا الى العمل وفي هذه الامر احملا اكياس الرمل على طرف المركبة لكي نتمكن من القائها دفعة واحدة

قال يوسف وهذا الظلام الكثيف

قال فرغوسن : ان هذا الظلام يستر استعدادنا واهبتنا ولا يتبدد الا بعد نهاية شغلنا واما انتما فكونا على حذر وضعا اسلحتكما بالقرب منكما عسى ان تمس الحاجة لاضرام النار وعندنا هنا الطبنجة والبارودتان والرعدان فنحيمها ترمي سبع عشرة رصاصة نطلقها في برهة ربع دقيقة اذا شئنا ذلك . ولكن ربما لا نضطر الى هذه الطريقة القصوى فلنأخذ الان بالعمل ألعلكما على حذر

قال يوسف : ها نحن بين يديك وقد وُضعت الاكياس على طرف المركبة والسلاح بالجانب منهم

قال العلامة : فيا تحرّصا شديدًا فان يوسف مفوَّض بالقاء اكياس الرمل وديك بشل الاسير ووضعه في المركبة ولكن لا يفعلنَّ احدٌ منكما شيئًا قبل ان امرهُ به وانت يا يوسف اذهب الآن وحلَّ المرساة وارجع حالًا الى المركبة

فنزل يوسف متدليًا على الحبل وفعل ما امرهُ به سيده وعاد الى مكانه

في برهة وجيزة ضاءت حينئذ المصورة في الهواء وكادت لا تتزلزل

فنظر ورغوس الى صندوق البرج وتأكد ان عنده كمية كافية من الفارلكي يصرم القصة عند الحاجة ولا يضطر الى استعمال كرة مزن الكهربائية ثم رفع الاسوتين المتفرقتين عن بعضهما وهما المستعملتان لحل الماء من عنصريه وسدد بش من كيس الشعر قطعتي فحم مدببتين وفي آخرهما رأس حادّ فاحكمهما في طرف كل من الاسوتين

فشخص رفيقاه متأملين فيما كان يصنعه دون ان يفهما غايته اما هو اي العلامة فبعد ان قضى شغله استوى على قدميه في وسط المركبة وامسك في كل من يديه قطعة من الفحم وقرب رأسيهما الى بعضهما

في الساعة والحال استنار المكان بضياء عجيب وكانت قطعتا الفحم كشعلة نارية فبدد ذلك النور الكهربائي ظلمات الليل الحالكة المحيطة بهم

فقال يوسف متعجباً يا هي يا سيدي

فقال العلامة . مه صه يا يوسف لا تقل شيئاً

الفصل العشرون

في المرسل العازاري وانتشاله من ايدي الجبابرة وسيرته واوضاعه الادبية
وحسن مدارة العلامة فرعوس له

حوّل فرعوس توجيـه شعاع النور الكهربائي من مكان الى مكان ثم وجهه الى مكان سمع فيه اصوات اضطراب وشغب وجعل رفيقاه يتفرسان في ذلك المكان

وشاهدوا ان شجرة البوباب المتعلقة بها المرساة مرتفعة بين حقلين حقل سمسم وحقل قصب سكر ويتخللهما نحو خمسين كوخاً متشتتة المراكز ويطوف حول تلك الاكواخ رجال الطائفة الحالة في تلك القمة

ثم نظر الرفاق الثلاثة خشبة مرتكزة على الحضيض نظير الساري وذلك عن بعد نحو مائة قدم من تحتهم وعند اسفل الخشبة شاب مضطجع يبلغ عمره نحو ثلاثين سنـة ذو شعر اسود مستطيل وجسده عريٌّ صفرٌ عن الثياب نحيفٌ مهزول العافيـة مخضب بالدماء مثخن بالجراح ورأسه مائل الى صدره كما كان المسيح على الصليب

وشاهدوا في قمة رأسه شعراً محلوقاً مستديراً اشبه باكليل الكهنة

فصاح يوسف وقال انما هو مرسل هو كاهن ولا شك

قال ديك واسفاه واحسرتاه عليه

قال العلامة سنحميه الان بحوله تعالى يا صاح كي نرتاح البال يا خليلي

فلما نظرت الطائفة السوداء بالقبة الهوائية الشبيهة بالنجم ذات الذنب وانما ذنب ذو نور ساطع طلعت منهم الدهشـة والانذهال اشد مبلغ وصاحوا في صراخ الفزع والهلع فرفع حينئذ الكاهن رأسـه ولمع اذ ذاك نور الامل

على محيـــاهُ ثم مدَّ يداهُ نحو مخلصيهِ كأنهُ يتوسل اليهم صارعاً وهو كي يرى مسلماً

قال فرغوس : حمداً وشكراً لباري البرايا الذي نجاه من الهلاك اما نحن فلا يعسر علينا نشله لان الرجال السود تكبلوا بسلاسل الخوف والرعشة ومهدوا لنا سبيل الخلاص فهل انتا على حذر يا خليلي

قال ديك نعم قل ما تشاء

قال فرغوس : اطلق القصة يا يوسف

فتم يوسف امر سيده ودفع النسيم الرحيم قبة المسافرين فوق الاسير فيا كانت القبة تأخذ في النزول مع تقلص الصار اما فرغوس فكان يميل نوره نحو اولئك الرهط ويحركه قليلاً ليضيء لامعاً كوميض البرق فاضطرب السودان اضطراباً عظيماً وبادروا مسرعين الى اكواخهم وبكث الاسير منفرداً وحدهُ في محل عذابهِ وقد اصاب فرغوس قبلاً اذ وثق بما تلقيهِ المصورة مع نورها الكهربائي من الرعشة في قلوب السود

فلما اقتربت القبـــة من الارض رجع بعض السود الاكثر جسارة وجراءة الى اسيرهم اذ دروا انهُ عن قريب سيمحو من ايديهم وكانوا يصرخون صراخاً هائلاً . فمسك ديك سلاحهُ ليرميهم بالرصاص فنعهم فرغوس عن ذلك

وكان الكاهن جاثياً على ركبتيهِ اذ ليس له قوة ان يستوي قائماً وهو ليس معلق على الخشبة ولا مربوطاً بها اذ لا حاجة الى رباط لشدة ضعفه وهزله . فلما وصلت المصورة الى الارض وضع ديك سلاحهُ في مكانهِ ومسك الكاهن من تحت ابطيهِ ودفعا اياهُ الى المركبة والقى يوسف وقتئذ اكياس الرمل التي اشرنا اليها

فكان فرعون يؤمل الارتقاء سريعاً وبجهة عجيبة ولكن القبة خيبت منه الامال اذ مكثت في الجو غير متحركة بعد ان ارتفعت نحو اربعة او خمسة اقدام

فلاحت على وجهه لوائح الفزع وصاح بصوت يخالطه الرعب وقال ما الذي يمسكنا

والساعة هرول بعض العبيد وهم يصرخون بصراخ الوحوش الضاريات

فمال يوسف برأسه الى خارج المركبة وقال سيدي ان احد هؤلاء السود تعلق بمركبتنا

فقال فرعون اياك يا ديك وصندوق الماء

ففهم ديك مقصد العلامة وفي ساعته احذ صندوقاً من صناديق الماء الذي يبلغ وزنه نحو عشرين رطلاً ويعب ورماه مالاً الى الارض

فلما خفت القبة فجأة قفزت قفزة هائلة الى الجو وبلغ علوها نحو ثمانمائة قدم فشمل القوم السود الخزي والخول اذ فلت الاسير من بين ايديهم وأشتمل ملتفعا بشعاع نور ساطع

ثم قفزت القبة قفزة اخرى فجائية وعلت عن الارض نحو الف قدم

فقال ديك وقد اوشك ان يفقد موازنة حسه وما هذا

قال فرعون . لا تعجب يا ديك فقد رمى الذل الاسود قتيلا

فمال يوسف بالحال برأسه الى اسفل وشاهد العبد الاسود ماشراً ذراعيه وهو يدور في الهواء كدولاب ثم سقط على الارض متهشم

فامتد فرعون العلامة السلكين الكهربائيين وعاد الظلام الى احتباكه وكانت الساعة اذ ذاك الواحدة بعد انتصاف الليل

وفي تلك الدقيقة استفاق العربي من غشيانه وفتح عينيه فقال له

العلامة أتشرك فانك نجوت من الهلاك

فأجاب المرسل باللغة الانكليزية وقال وهو يتبسم تبسم الاكتئاب · نعم اني قد نجوت من ميتة شنيعة فاني اشكر معروفكم يا اخوتي على صنيعكم وجميلكم ولكن ارى ان ساعتي قد اقتربت وايامي مضت فعن قريب ارحل من هذه الدنيا الى الآخرة

ثم عاد الى سباتهِ اذ كان ضعفهُ منهوكاً الى الغاية

فقال ديك · - واسفاه عليهِ فانهُ في حالة النزاع

قال العلامة - كلاَّ يا ديك ثم كلاَّ لكنهُ خائر القوى لشدة العياء والعذاب فلنحملهُ تحت الخيمة ليرقد هناك

فمدوا ذلك الجسم النحيف المهزول تحت الخيمة بلطافة وغطوهُ بلحفهم وكان اذ ذاك مغموراً بآثار العذاب والجراح المتضمخة بالدماء وقد اثر فيها الحديد والنار تأثيراً بليغاً . فغسل العلامة جراحهُ ثم غطاها بسائل جسمهُ من حرقةٍ ككتان وكان حاذقاً في هذه الصنعة ويداري المريض كطبيب ماهر ثم اخذ قليلاً من الدواء المقوي من خزانتهِ وسكب نقطاً منهُ على شفتي الكاهن

فمسك المريض حينئذ يد طبيبهِ دلالة على الممنونية والحظوى وما كاد تلفظ بكلام الشكران اذ قال لهُ اشكر معروفك · ايها الفاضل . . .

ثم رأى فرغوسن موافقاً ان يترك الكاهن لينام ويأخذ راحة تامة فجذب نحوَ حواليهِ ستار الخيمة ورجع الى مركزهِ لادارة القبة الهوائية

وقد حصت موازنة القبـة مع وجود الضيف الجديد بثقل ثلاثين رطلاً وبالحالة هذه لم يكن فضل القبة لازماً ليستقرّ المسافرون في علوّ مناسب وبعد بزوغ الفجر هبت ريح لطيفة دفعتهم نحو غربي شمال الغرب

فذهب فرغوسن برهةً لينظر الى الكاهن فرآهُ مغمياً عليهِ

فقال ديك حفظ لنا المولى هذا الصيف الجليل الذي منهُ الرجاء. قل يا فرعوس هل لنا امل بشفائه

قال فرعوس الامل به تعالى واظن انهُ يبرأ بالمداراة وطيبة هذا الهواء الرائق

فقال يوسف وهو مضطرب الفؤاد اواه كم كابد هذا المسكين من مرّ العذاب ولكن أتعلمان يا خليليَّ انهُ اكثر شجاعة منا اذ تجرأ على الاقدام الى هذه البلاد وحدهُ دون رفيق

قال الصياد: لا شك في ذلك

فما اراد العلامة في ذلك النهار ان يقطع رقاد المريض بل تركهُ تائهاً في مغاور غشيانه العميق لكنهُ كان يدنو منهُ احياناً ويتحقق من اوجاعهِ وهذا ما اقلق بال فرعوس بشأنه

وعند المساء مكثت القبة ثابتة في الجو وسط الظلام واستمرت مدى الليل كلهُ واراد فرعوس ان يحرسهم جميعاً واعتاض عن الرقاد بالسهاد

وفي الغد عند الصباح كانت القبة قد اتجهت قليلاً نحو الغرب واستبان النهار رائق الجو خالياً من هيكل غاشية ونادى المريض اصحابهُ بصوت حسن فسرَّ لذلك الرفاق الثلاثة ورفعوا عنهُ ستار الخيمة فاستنشق ذلك النسيم الرخيم نسيم الصبا ببهجة قلب ورُوح لا مزيد عليه

فسألهُ فرعوس قائلاً - كيف حالك اليوم

قال الكاهن ربما احسن من البارحة ولكن انتم من انتم يا اصحابي لاذكركم في صلاتي الاخيرة فاني ما شاهدتكم الى الآن الا كاني في حلم ولا اكاد اعرف ما جرى لي ولكم عند ما سعيتم في تخليصي من التهلكة

فقال العلامة نحن مسافرون انكليزيون قد قدمنا على ان نجوز بلاد

لوريقية ناقة الهوانية وفي ميوريا تشرها ناقادك من ايدي معذبيك

قال المرسل . ان للعلم ابطالا

قال الصياد : وللدين شهداء

قال العلامة . وهل انت مرسل

قال : اني كاهن من رسالة الاباء العازارية وقد هداكم المولى لتأتوا الي وتنشلوني من العذاب فليحمد الله تعالى اما حياتي فقد قدمتها ضحية ولكن ارجوكم ان تخبروني عن احوال اوربا وخصوصاً عن احوال البلاد الافرنسية اذ انتم قادمون من اوربا وانا لم اسمع قط خبراً عن تلك البلاد منذ خمس سنوات

قال ديك وقد خطت الدهشة رسومها على محياه : انت اذاً مقيم وحدك بين هؤلاء البرابرة منذ نحو ٥ سنوات يا عجب

قال المرسل انها امس عيّنة مات السيد مخلصاً ليفديها وما هم الا اخوتنا لكنهم جهلاء متوحشون وليس ما يعلمهم ويعلّمهم سوى الديانة وحدها

اما فرغوسن فاخذ يحدث المرسل عن احوال البلاد الافرنسية بشرح مطول

فاصاخ المرسل باذنيه سمعاً لمقال فرغوسن وكانت عيونه تسكب العبرات من الاماق ثم هيأ له العلامة شيئاً من شراب الشاي وسقاه اياه فشربه بسرور وابتهاج وحينئذ تمكن من ان ينهض قليلاً من فراشه واستوى عليه وتبسم ثغره بلطافة اذ شاهد نفسه محمولاً على اجنحة الرياح في جو رائق كثير الصفاء

ثم قال لاصحابه : انكم في الحقيقة مسافرون ذوو شجاعة وبسالة وستنجحون في مساعيكم وتشاهدون الاقارب والخلان والاوطان

ولحال أمسك عن التلفظ بكلمة اخرى اذ خارت قواهُ واضطرَّ الى ان يسبط على الفراش وقد انحطت قواه انحطاطاً شديداً حتى انهُ لما ارتمى بين يدي فرغوس مدة بعض ساعات كان كالميت لا يبدأ حركة ولم يتمالك العلامة عن اظهار حاشهِ وكدره وقال في نفسهِ هل ترى يفارقنا سريعاً هذا المرسل المسكين الذي انتشلناه من ورطة هلاكهِ

ثم ضمد جراحهُ من جديد واستعمل كثيراً من ذلك الماء الساقي عدة ليبرد غليل احشائهِ الملتهبة وبذل غاية جهدهِ وذكائهِ في مداراتهِ وملاطفتهِ . فكانت تنتعش روح المريض رويداً رويداً بين يديهِ واخذت حواسهُ اذا لم نقل حياته في الرجوع اليهِ

واخبر المرسل المسافرين سيرة حياتهِ بوجيز العبارة وقد تلقى العلامة كلام الكاهن من فيهِ بصعوبة اذ خانتهُ اللغة وافتهتهُ لشدة ضعفهِ وعيائهِ وقد كان طلب اليهِ فرغوس ان يتكلم باللغة الافرنسية لكونها اسهل عليهِ اما هو فيفهم بسهولة ما يقال فيها

اما المرسل فكان قد وُلد في قرية ارادون من مقاطعة بُرْبِيهان في شمالي فرنسا وقد عظمت منذ حدوثة اطماره الى اعتناق العيشة الكهنوتية فدخل رسالة الآباء العازارية المؤسسة من القديس المجيد منصور دي بول قاصداً بذلك خوض المشاق في الاسفار مع كمون نداتهِ وزهدهِ في الدنيا واباطيلها ولما بلغ من العمر زُهاء ٢٠ سنة هجر وطنهُ قادماً الى سواحل افريقية ثم اوغل في البلاد حتى وصل الى القبائل الحالة في مصبات النيل الأعلى بعد ان قاسى ما قاساهُ من المشقات والاتعاب والجوع والعطش وهو مع ذلك صابرٌ على حالهِ مسرور القلب والخاطر متضرع الى ربهِ تعالى يحمدهُ في ارشاد تلك الاقوام وهدايتها الى السبيل المستقيم غير انه لم ينجح وزُذِلت ديانتهُ

ودهمت غيرته باطلاً وعومل بسوء المعاملة جزاء على احساناته وخيريته فحبس عند قوم بربري من قبائل ياميزة وكابد في سجنه من الشتائم والاهانات والعذاب . لكنهُ ما برح يعلم ويعظ ويبتهل اليه سبحانهُ وتعالى واذا في ذات الايام تبارزت طائفة مع تلك الطائفة التي كان محبوساً عندها فشتتت شملها ومزقتها حزائق وادهمتها طوارق وانزلت بها البوائق كما هي من عادة تلك الاقوام الوحشية ولولم يحسب الكاهن الاسير قتيلاً لكان نابهُ التعس والويل .

واذ نجا لم يشأ ان يرجع الى ورائهِ بل دخل في اواسط افريقية وهو يقضي معيشته في الرسالة والهداية وكانت ايامهُ زاهرة حين أعدّ عدواً وذلك لمواظبته على تعليم الدين المسيحي واحتمال ما يلزم فيهِ من المشقات والاهانات . ثم طاف حول تلك الاقاليم البربرية مدة سنتين مستطيلتين متمماً تدرس تلك القوة الالهية الفائقة الطبيعة التي كانت تدفعهُ اليها . وبعد سنة كان قد اقام عند قبيلة من قبائل ييام ييام المدعوة براهوي وهي من البالغات في التوحش وكان من وفقة بعض الايام قد مات كبيرهم فظلموا الكاهن وقالوا انهُ هو السبب في موتهِ الغير المنتظر وعزموا على ذبحهِ وكانوا يعدونهُ مدة نحو اربعين ساعة وقد قرَّ رأيهم على ان يقتلوهُ في الغد عند الظهر بحسب رأي العلامة ولما سمع طلقة الاسلحة النارية صاح بصوتهِ وقال : اليَّ اليَّ وقد خيل لهُ انهُ تائه في مغارة الحلم واذا بصوت العلامة قد اتى وطيَّب بالهُ وروعهُ

وبعد ما انتهى من قصتهِ قال لا اتأسف على ذهاب روحي الى خالقها وخالصها

فقال لهُ فرغوسن . لا تيأس بعد من الحياة وانا بالقرب منك وبحييك بعونهِ تعالى من الموت كما نجياك من آفة العذاب

فقال الكاهن وهو صابر على مصابهِ . حسبي ما نلت من مكارم المولى

فيتمجد اسمهُ تعالى لاني حظوت قبل موتي بمشاهدة اعجائب افاصل وتمت لفة وطني

ثم عادت قواه الى ضعفهـا وقضى النهار بين الرجاء والخوف وكان ذلك مرتاع الفؤاد ويوسف يمسح من عينيه الدموع على الفراد

وكان مسير المصورة غير سريع وكأنك بالريح قد ارادت مداراة حياة المريض وملاطفته

ولما امست قد لمح يوسف في الافق الغربي ضياء عظيماً على وُجدوا في عروض اربع جسوهُ نحوا شمالياً اذ ترآءت السماء شاعلة ناراً فامعن العلامة في الفحص عنهُ بتدقيق ثم قال انما هذا هو بركان يقذف النيران

فقال الصياد - ولكن الا ترى ان الريح تدفعنا الى ما فوقه

قال العلامة - هب انها دفعتنا اليه فانا نجوزهُ في علوّ نأمن به من غائلة نيرانه

وبعد مرور ثلاث ساعات باتت المصورة حيـلا درجة ١٥° ٢٤ طولاً و٣٢° ٤ عرضاً وامامه فوهة البركان النارية تقذف سيول مواد مدوّنة مختلفة الاجناس وتدفع منها قطع صخور الى علوّ شاهق ومن المجاري النارية ما كان يشبه الشلالات المزبدة بتساقطها من الفوهة الى اسفل فوقف المسافرون ذلك المشهد البهي لكنهُ كان ذا خطر عظيم لان الريح ما زالت تهب بهم وتدفع المصورة الى ذلك الجوّ المضطرم هبياً

ولما لم يمكنهم تجنب هذا العائق بل لزمهم ان يجوزوهُ فاضرم العلامة حرارة القصبة الى ان باتت المصورة علوّ ستة آلاف قدم وكانت بينهم وبين البركان مسافة نحو خمسمائة ذراع

وقد استطـاع الكاهن المريض من فراشه ان يشرف على ذلك الخيال

الناري ويتأمل بمواده المرمية المدفوعة منهُ بشدة كسهام ملتهبة

ثم قال . انهُ مشهد بهيّ مستطاب من كوّن الكون واعجب في خلائقه الرفيعة والهائلة معاً

واما المواد النارية المندفعة من ذلك البركان فكانت تنزل متساقطة على سفح الجبل وتنبسط على الارض فراشاً من لهيب النار المتقدة والمتأججة . وفي الليل كنت ترى اسفل القبة مضيئاً من سطوع النيران المتصاعدة ومنها كانت تتصاعد الى القبة حرارة شديدة . فما تمالك ورعوسن ان بادر بالترحال هرباً من وقوع الويل والاخطار

فقبل انتصاف الليل بساعتين من الزمان لم يعد يبين الجبل الناري الاّ ككتلة حمراء في الافق وما زالت المصورة سائرة بالامن والسلام في طبقة جوية اقل ارتفاعاً



الفصل الحادي والعشرون

في موت الكاهن ودفنه والمقر الذهبية واضطراب يوسف في جمع الاموال وما حصل لهُ من الكآبة

وكانت ليلة بهية تطرب الخاطر فاضطجع الكاهن واهي القوى ونام غائباً عن حواسهِ

فقال يوسف: أواه على هذا الشاب الذي لم يبلغ بعدُ من العمر سوى ثلاثين سنة فان رقادهُ ربما هو الرقاد الاخير

قال العلامة: سيطفئ نور حياتهِ بين ادرعنا وقد ضاق تنفسهُ اكثر مما كان قبلاً وما لي حيلة لاقرحهُ

فقال يوسف بغضب وحنق: قبحهم الله اولئك الصعاليك المجرمين الذين انزلوا بهِ التنكيل وترى كيف قد وجد هذا الكاهن المتنسك باعثاً ليشفق عليهم ويعذرهم ويسامحهم على زلتهم وآثامهم

قال العلامة: ما قد أوتي من السماء بليلة بهية عساها ليلته الاخيرة ولكن لا يعود يذوق عذاباً شديداً ولا يكون موته الا رقاداً رائقاً

ثم تلجلج المارع بعض كلمات فدنا منهُ العلامة ورأى ان نفسهُ ضاق جداً والتمس الهواء فصعد له ستار الخيمة واستنشق حينئذٍ نسيم تلك الليلة الشائقة حيث النجوم والكواكب ترسل اليهِ نورها المرتجف والقمر يحتمهُ ببياض شعاعهِ

فقال بصوت ضعيف: اني متوجه راحل عنكم الان يا اصحابي جازاكم الله على جميلكم اسالهُ تعالى ان يوفي عني احسانكم ويلقكم مناكم

قال له ديك: لا تقطع الرجاء بعدُ فان ما هذا الأضعف وقتي زائل وكيف يأتي الموت في مثل هذه الليلة البهجة

قال المرسل ان الموت بحسب عيني ولامة مماس مدعوني الأمة فانه بداية الامور الابدية ونهاية الاهتمامات العالمية ارجوكم يا اخوتي ان تصلوني جاثياً على ركبتيَّ

فانهضه ديك قليلاً وقد استولت الخيبة على قلبه اذ رأى اعضاءه الخائرة الفاقدة القوى قد ترضرضت

ثم صاح قائلاً: الهي الهي كن لي راحماً وشفوقاً

وقد اضاء وجهه لامعاً كانه لابس انوار الحياة الجديدة وصاعد الى الاعالي بارتفاع عجيب عن الدنيا التي لم يبق فيها فرحاً ولا ملذة وذلك في تلك الليلة التي كانت تلقي عليه رونقها اللطيف

ثم منح البركة لرفقائه الذين لم يؤانسهم سوى يوم واحد وكانت تلك البركة حركته الاخيرة وارتمى بعد ذلك بين اذرع الصياد المغرورقة عيناه بالدموع السخينة

فاشرف عليه العلامة وقال هذه دقيقته الاخيرة يقضي فيها نحبه

وللحال ركع الرفاق الثلاثة سجداً ليصلي كلٌ على حدة بسكوت تام

وبعد برهة قال فرغوسن غداً عند الصباح ندفنه في هذه الاراضي الافريقية التي سقاها بعرقه ودمه

وفي تلك الليلة اقام كلٌ من الرفاق الثلاثة حراسة الميت في الاوقات المعينة لهم ولم يتفوه احدٌ منهم بكلمة بل اعتاضوا عن التكلم بذرف الدموع وصدعة الفؤاد

ولما اصبحت كان يهب الريح من الجنوب والمنصورة سائرة سيراً بطيئاً فوق صحصح كائن على جبل وصادفوا في طريقهم افواه براكين مطفأة وخنادق مرروعة والارض كلها خالية من نقطة ماء واحدة وقد قصع لدى

المسافرين فحل تلك الاراضي وحسبها مما شاهدوا من الجلاميد المتراكمة بعضها فوق بعض والاراضي المحورة

ولما عزم العلامة على دفن الميت عند الظهر اراد النزول الى حندق بين صخور ذات كهف اصلي ليكون له ذلك الخندق عزلة وملاذ يأوي اليه قتسه لئلا تصدمها الرياح عند نزولها الى الارض حيث ان تلك الناحية كانت خالية من الاشجار التي عليها المرساة ولكن لم يمكنهم النزول الا بعد كيسة وافرة من النار لسبب القائهم اكياس الرمل عند انتشال الكلاب الى القبة كما كان انبأ به العلامة رفيقه ديك

ففتح حينئذ فرغوسن لولب القبة الخارجة واذا بالادروجين قد اخذ في التنقص ونزلت المصورة في الخندق نزولاً بطيئاً

وبعد ما مسَّ المسافرون ارض الخندق اطلق العلامة اللولب . اما يوسف فقفز الى الخارج حالاً وما زال ماسكاً بيده الواحدة طرف المركبة وفي اليد الاخرى يلتقط من الارض حجارة ويضعها في المركبة حتى وازت ثقلهُ ثم جعل يجمع بيديه الاثنتين ويكوم حجارة اخرى الى ان بلغ وزن ما وضعهُ نحو ثمانين رطلاً وبساعتهِ استطاع العلاّمة ورفيقه ديك ان ينزلا الى الارض وبقيت المصورة في موازنة تامة وكانت قوّتها الصاعدة غير قادرة على رفعها عن الارض في تلك الحالة

الّا انهُ لم تلجئهم الضرورة الى وضع حجارة كثيرة لان ما جمعهُ يوسف من القطع الصخرية كان ثقيلاً جداً وحمل فرغوسن على ان ينتبه اليهِ ثم تطلع في الارض فكانت مفروشة بالقطع الصخرية الكثيرة والجلاميد البركانية فقال في نفسهِ : هذا شيء جديد كشفناهُ

اما ديك ويوسف فابتعدا قليلاً ليجدا محلاً يصلح لدفن الميت وفي ذلك

الخندق احس المسافرون بحرارة زائدة لان شمس الظهر كانت ترميه باشعتها الملتهبة على الخط المستقيم

ولما وجدا الحل المناسب ربما اولانتقر الصخور المروشة وعرقا الارض وحفرا فيها نفقا عميقاً لاتستطيع الوحوش الكاسرات ان تنبشه وتنال جثة الميت لتغتذي بها

ثم وضعا فيه جثة الشهيد باحترام ووقار

وبعد ذلك طمّا القبر بالتراب ووضعا فوقه حجارة صخرية على هيئة ضريح

اما العلامة فكان جائصا نحو الفكر ولم يسمع سمعاً لصوت رفيقيه لكي يذهب معهما ويطلب مخبأ يلتجي فيه من حرارة الشمس الشديدة

فقال له ديك فيم تفتكر يا عزيزي سامويل

قال: انأمل يا ديك بمصادفة غريبة في الطبيعة وصدفة عجيبة في القدر أتعلم يا ديك في اي ارض دفن هذا المسكين البائس الذي يكفر بالعالم وبباطنه وبذاته ايضاً

قال الصياد: ما قولك يا صاح

قال العلامة: ان هذا الكاهن الذي دفن القبر يرقد الان في معدن ذهب

صاح ديك ويوسف قائلين معاً: ويلاه مسكين يرقد في معدن ذهب

قال العلامة نعم في معدن ذهب لان الحجارة التي ندوسها فكانها بدون قيمة ولا ثمن انما هي معدن ذهب كلي النقاوة

قال يوسف تكرارًا: ان ذا لمن المستحيل يا سيدي

• قال العلامة - اذا فحصت قليلاً فلا تلبث ان ترى بين الحجارة الخزفية والصخرية كثيراً من القرالذهبية الخالصة

فبادر يوسف بالحال كانسان فاقد العقل وجعل يجمع تلك القطع المشتتة وكان ذلك راغباً في ان يجدو حذوه واذا بالعلامة قال ليوسف : خفض رابط البال يا صاح ولا تدع الطمع . .

قال يوسف تكلم ما تشاء يا سيدي

قال : ما هذا وكيف فيلسوف مثلك . .

قال يوسف : لا توجد فلسفة تصدني عن جمع هذه الاموال

قال فرعوس : مهلاً يا يوسف تأمل ماذا تنفعنا هذه الاموال اذ لسنا قادرين ان نحملها معنا

قال يوسف ولمَ لا نقدر ان نحملها

قال : لانها تثقل قتنا وقد كنت ارغب في ان لا اطلعك على هذا الامر خشيةً من ان يجلب عليك الاسف والندم

قال يوسف : وكيف وهل تاركين هذه الكنوز المذخورة لنا . نعم هي لنا أيليق ان لا نكترث بها

قال : احرص على ذاتك يا صديقي لئلا تصاب بحمى المال ألم تعلم من الميت الذي دفناهُ الآن ان نحتقر اشياء العالم الباطلة

قال يوسف : بالحق قلت ولكن على جميع الاحوال هذا ذهب . وانت يا سيدي ذلك ألا تساعدني لاجمع قليلاً من الكرات والاربوات الذهبية

قال الصياد متبسماً : وما الذي نفعل بها هل اتينا نطلب الغنى والثروة فما لنا ولها

قال العلاَّمة ان الكرات والاربوات ثقيلة ولا تودع في الجيوب بسهولة

فقال حينئذٍ يوسف : أفلا نستطيع ان نحمل من هذا المعدن بدلاً من ثقل الرمل

قال العلامة : لا بأس فاني اسمح لك بذلك ولكن على شرط انك لا تبتئس عند ما تلقي رزماتٍ من ذهبك خارجاً عن المركبة

قال يوسف : ويلاه كيف نلقي رزمات من الذهب ولكن هل كل هذا ذهب خالص

قال نعم يا ايها العزيز فان هذا المكان حوض كوّمت فيه الطبيعة كنوزها مذ اجيال وهي ما يُغني بلاداً واصقاعاً بتمامها . فان الكنوز التي أُودعت بطن هذه المغارة القفرة تحاكي كنوز بلاد أُستراليا وكاليفورنيا

قال يوسف اذاً لجميع هذه الكنوز ستذهب هدراً لا ينتفع بها مرء

قال انه من الممكن ان لا ينتفع بها انسان ولكن على كل حال فاني اسلي عنك الهمّ واكثر المستحوذين على قلبك

قال يوسف وقد لاحت على وجهه شعائر الندم : لعمري ان ذا امرٌ عسير

قال العلامة : مرادي ان ارسم لك اعلاماً واضحة تدل الى مركز هذا المكان فاذا رجعت الى الاقطار الانكليزية اعلمت به رفاقك اذا خال لك ان الاموال العزيزة توليهم السعادة والحظوة

قال يوسف : دعني من هذا الحديث يا مولاي فاني ارى الحقّ في كلامك ومن الواجب عليّ الصبر والتحمل واما الان فاسمح لي ان املأ المركبة من هذا المعدن الثمين ومهما نلقي عند نهاية السفر يكون ربحاً لنا

ثم اخذ ينقل الحجارة من الارض الى المركبة بخفة الفؤاد وما لبث ان جمع نحواً من العشرة من القرا الصخرية المنثور فيها الذهب كي صواب دي

صلاة عطية

وكان ينظر اليه العلامة مبتسمًا وفي غضون ذلك تطلع على مركز مدفن الكاهن فوجد انهُ في درجة ٢٣°٢٢ طولا و٥٥°٤ عرضًا شماليًا ثم رمق رمقة اخيرة لقبر ذلك الرجل الفرنسي وعاد الى مركبته

وقد رغب في ان يرسم صليبًا من خشب ولو غير متقن ليضعهُ على القبر وسط تلك القفار لكنهُ لم يجد شجرة واحدة نابتة في جوارهم فقال الى رفيقه الصياد ان الله عارفٌ بهذا المكان وكفى

وكان فكر فرغوس مشتغلا في امر مهم جدًا وهو انهُ لكان اكرم نال جزيل من تلك الكنوز الثمينة لو أُوتي وقتئذ بشيء من الماء تعويضًا لصندوق الماء الذي رماهُ عند تمسك العبد الاسود بالقبة ولكن ما الحيلة وهو مقيم في تلك المغاور الماحلة والقفار القاحلة . فاشغل هذا الامر باله وهيج بلباله اذ انهُ مضطر بالضرورة القصوى الى اضرام نار القصبة بالماء واذا ما عطشوا فليس عندهم ما يرد غليلهم ولهذا عزم ان لا يبرح فرصة تمكنهُ من تجديد زاد الماء .

فلما اتى فرغوس الى المركبة وجد القطع الصخرية الكثيرة التي كان كومها يوسف الطبيخ فطلع اليها ولم يقل شيئًا ثم جلس الصياد في مكانهِ وتبعهما يوسف وقد ارشق كنوز الحدق بين الطمع والحرص . فاضرم فرغوس قصبة القبة فتحي القال الانبوب الذي على شكل الحرفي واخذ الإدروجين في السريان وامتد النار اما القبة فلم تتزحزح من مكانها

فنظر يوسف الى سيده بقلق واضطراب

فناداه العلامة باسمه

اما هو فكان صامتًا ولم يجب سيده

فقال له العلامة اما تسمعني يا يوسف

فاوى يوسف بالاشارة دلالة على كونه سمع صوت فرعوس لكنهُ لم يشاء ان يفهم ما يقولهُ له

قال فرعوس ارجوك ان تتكرم عليَّ من سعادتك وتلقي حاناً من هذا المعدن خارجاً عن المركبة

قال يوسف ولكن اما اذنت لي يا سيدي . . .

قال فرعوس . ما اذنت لك الّا ان تضع شيئاً مقابل الثقل

قال يوسف ومع ذلك . .

قال فرعوس . أ تريد اذاً ان نستقر في هذه القفار الى ابد الاباد

فنظر يوسف حينئذ الى الصياد نظر اليأس والقنوط اما هذا فابتسم تبسمة من ليس له مقدرة على تعنيف الاديب

قال فرعوس والى متى يا يوسف

قال وهو شرٌّ عنيد أ لا تشتعل قصبتك

قال فرعوس الا ترى ان القصبة مشتعلة واما القبة فهي لن ترتفع اذا لم تلقِ شيئاً من الاحمال التي ثقلت بها المركبة

فحرك يوسف اذنه ثم اخذ نقرة صخرية وهي الاصغر والاخف ثقلاً وجعل يستعرضها ويقلّبها من يدٍ الى يدٍ فكان وزنها نحو ثلاثة او اربعة ارطال انكليزية فرماها وهو ينظر اليها بشوق

اما المنطورة فاستقرت غير متحركة من مكانها

فقال يوسف واظنّنا من حالتنا لم لا تزال عليها

قال فرعوس : لم تزل على ما نحن عليه فداوم شغلك يا يوسف

وكان ديك ينظر الى يوسف ويضحك . ثم القى يوسف نحو عشرة ارطال ولم

فتحركت القبة فعلا الاصفرار وجهه ولاحت عليه لوائح الكدر

قال فرعوس الا تعلم يا يوسف ان وزن ثلاثتنا يبلغ نحو سبعين رطلاً ويعسر عليك ان تلقي ثقلاً يضاهي ثقلنا ليكنا الارتفاع

فصرخ يوسف بقلب جريح : لا حولَ ولا قوةَ الّا بالله وكيف القي سبعين رطلاً

قال فرعوس هيا يا ابي هيا والق ايضاً شيئاً لنعلو عن الارض

فتمسى يوسف الصعداء واخذ يرمي الحجارة من القبة وفي خلال ذلك كان يتطلع فرحاً ويقول ها نحن نرتفع

اما صوت العلامة فكان يجيبه قائلاً لسنا في ارتفاع بل ما زلنا على حالتنا

ثم قال اخيراً . ها القبة قد تحركت

قال العلامة - ارم ثم ارم

قال يوسف - اوَ تتاكد لك يا سيدي ان القبة تطلع الى العالي

قال العلامة ارم ولا تتعب عن الرمي

فاخذ يوسف بقرة اخيرة بيأس وكدر ودحرجها الى الارض فارتفعت المنصورة نحو مائة قدم وسار المسافرون دون ذلك الحمل بمساعدة حرارة القصبة

قال العلامة اعلم يا يوسف وفقك الله انك لا تزال محافظاً على مال جزيل واذا توقفنا وتمسكنا من حمله الى النهاية كمالك لان تكون غنياً الى آخر يوم من عمرك

فسكت يوسف ولم ينطق بكلمة بل قعد مضطجعاً على فراشه المدني فاستثلى فرعوس كلامه وقال للصياد - أ طرت يا ذيك كيف فعلت قوة

هذا المدن في نفس ذات شهامة نجيبة وقلب سليم رائق فكم من الشهوات والاهواء بل كم من الاثام لكان يهيجها نفس مثل هذا لو شاع سر اكتشافه لعمري ان ذا لما يحسر الكبد ويفجع الفؤاد

وفي العشية كانت قد تقدمت المصورة في الجهة الغربية نحو تسعين ميلاً وهي بعيدة حينئذ عن زنجبار بخط مستقيم الف واربعمائة ميل



الفصل الثاني والعشرون

في دنوّ المسافرين من الصحراء وليالي خط الاستواء وتقلقل زاد الماء وما صمموا عليه من المقاصد والنوايا

فتعلقت المصورة في شجرة قامت منفردة في ارض قفرة وقد يبست صمغاً وقضى المسافرون ليلتهم بامان وهدوء وذاقوا فيها لذة النوم اذ انهم قد تشوقوا الى الرقاد لما اثرت في فؤادهم الاهتمامات التي ادركتهم في اليومين السالفين

وفي الغد عند الصباح عادت السماء الى صفائها وبزغت الشمس متلألئة فاورت زناد الحرارة ثم ارتفعت القبة في الهواء وبعد امتحانات عدة وجدوا ريحاً خفيفاً دفعهم الى شمال الجهة الغربية

فقال العلامة. اننا لا نتقدم يا رفاقي الى ما قدام وعلى ظني اننا قد جزنا نصف الطريق في رحلتنا هذه مدة عشرة ايام ولكن اذا دامت الحال على هذا المنوال من السير البطيء لزمت ايام وشهور لنصل الى آخر المجال ومما يزيدنا شكاية على شكاية هو ان الماء عندنا سينفد عما قليل

قال ديك: الامل ان نجد ماء قبل نفاد ما بقي منهُ لانهُ من المستحيل الا نصادف نهراً او جدولاً او بحيرة في فسيح هذه الصحراء كلها

قال العلامة. هذه بغيتي وغاية مشتهاي

قال ديك: وهل لم تعوّق مسيرنا تلك الاحمال الباهظة التي ثقل بها يوسف مركبتنا

قال هذا قصداً في شكاية يوسف من باب المزح اذ انهُ قد كاد يصاب بمس مصاب رفيقهِ عند اطلاعهِ على تلك النقر الذهبية ولكن لما كان قد كظم شدة حرصهِ ولم يتظاهر بما انطوى عليهِ حينئذٍ فؤادهُ اتسم سمة انسان

ذي تبصر في الامور وكان يضحك لهوًا وهزءًا من رغبة يوسف في حشد الاموال

ورماهُ يوسف بلحظة مؤثرة اما فرعوس فثابر على السكوت وافكارهُ موجهة باضطراب سري نحو مغاور الصحراء ومسافتها الشاسعة فانهُ في تلك القفار كثيرًا ما تنقضي اسابيع عدة ولا تجد فيها القوافل بير ماء لترتوي منهُ فتهلك عطشًا ولهذا كان متشددًا حرصًا في مراقبة الاراضي المخصصة لنقل الماء فيها ريثما تجتمع

فهذه الاهتمامات مما جرى لهم من الحوادث السالفة عيرت منهم القلب والخاطر وقلت مسامرتهم واحاديثهم الى السكوت وخوض بحور الافكار والهواجس

اما يوسف الخادم الهادي البال فقد تحوَّل من هيئة الى هيئة بعد ما اطلع على تلك الذخيرة الثمينة والاموال الجزيلة فلازم الصمت واخذ يحدق حدقهُ حرص الى تلك الحجارة المكومة في المركبة ويتأمل بها كثيرًا ويفكر في نفسه قائلاً اليوم لا قيمة لها اما بعدُ فيبين عظم اثمانها

وكان منظر تلك البقاع والفدافد هائلاً ومما يكل المرء في سلاسل القلق والهلع ويرميه في وهدة النحس والنكال اذ امتدت الصحراء في الامتداد والتوسع ونذر الزرع في الارض ولم يعد يرى للاكواخ من اثر بل باتت الرمال البيضاء والحجارة المحمرة كجمر النار وبعض الاعشاب الشائكة ثم شاهدوا في تلك البادية القفرة سلسلة صخور ذات رؤوس حادة عرية من كل ترابٍ وهيئتها هيئة الصوان . فانتبه فرعوس الى ذلك الجدب وفكر فيه كثيرًا

ولم يتيسر لهم ان يروا اثرًا للقوافل تجولت على خوض بحور تلك القفار

اذ لم يرَ عظم من عظام الناس او الحيوانات وكان لا بد من بلوغ بحر عظيم من الرمال التي تتقلب بعضها على بعض كامواج طامة

فتفكروا في الرجوع الى الوراء غير ان ذا من المحال لقلة الماء الحاصل فاقتضت الحال ان يتقدموا الى قدام وكان يودّ العلامة لو انّ عاصفة تهب وتعصمهم عن تلك الاصقاع ولكن ابن الغيوم والسحب وابن الريح العاصفة فانقضى النهار كله ولم يجوزوا فيه اكثر من ثلاثين ميلا

فواهًا لو بعد راد الماء ترى ما الذي لقد اصابهم بالحقيقة لم يبقَ عندهم من الماء سوى ثلاثة عشر لترًا ونصف ولذا وضع فرغوسن ثلثه على انفراد لكي يبلّوا قلوبهم عند التهابها بنار العطش من جرا تلك الحرارة الشديدة البالغة الى ٩٠ درجة انكليزية وابقى الثلثين الآخرين لاضرام نار القصبة ولكن هذه الكمية لا تحصل سوى ٤٨٠ قدمًا مكعبًا من النار والحال كانت القصبة تنفق نحو تسعة اقدام مكعبة في برهة ساعة من الزمن فالحالة هذه كان معهم ما يكفيهم مشيًا مدة اربعة وخمسين ساعة لا غير وقد حُسب هذا كلهُ بتدقيق

فقال العلامة لرفيقيه: ما بقي لنا غير اربعة وخمسين ساعة وحيث قد صممت النية على ان لا نمشي في الليل لعلنا نصادف جدولًا او نبعًا او مستنقع ماء فوته فيكون عدد الايام الذي يتيسر لنا فيها المسير ثلاثة ونصف وقد اضطررت الى ان اعلمكما بهذه الحالة المهمة التي نحن عليها لانهُ لم يبقَ عندنا الّا القليل من الماء ووضعت شيئًا منهُ لنرد غليل عطشنا فمن الواجب علينا من الآن ان لا نبذره ولا نستقيه الّا عند اللزوم

قال الصياد . افعل بنا ما تشاء يا فرغوسن ولكن لم ننظر بعد الى قطع الرجاء ألم تقل انهُ باقٍ لنا ثلاثة ايام ونصف

قال العلامة: نعم يا عزيزي

قال يا ترى ما النفع من الاسف والتحسر فما لنا اذاً ولهذا المعسكر دعْ هذه المدة تمضي وبعدها نفكر فيما يلزم عملهُ واما الآن فعلينا ان نضاعف صبرنا وتقانا

وبعد العشاء توزع الماء باقتصاد وشحٍّ واضيف اليهِ قليل من العرق لان كثرتهُ لا تفيد تبريداً بل التهاباً

وفي الليل قرّت القبة على صفصف بان كأنهُ في انخفاض عظيم وما تكاد كان يبلغ علوّ سطحهِ عن مساواة سطح البحر نحو ثمانمائة قدم . فضاء نور الامل في قلب فرغوسن لهذه الحادثة وتذكر ما حسبهُ اهل الجغرافية من وجود بحيرة في قلب افريقية ولكن هب ان تلك البحيرة موجودة في الحقيقة فكيف الوصول اليها من كون السماء رائقة ولا فيها تغيير البتة

فمر الليل الصافي مع صفاء سمائهِ المتلامع باشعة الكواكب والنجوم وردفهُ النهار الوضاح باكثر صفاء ورواق وسطعت فيهِ اشعة الشمس بشدة الاحتراق ولما كانت الساعة الخامسة قال . هيا على الرحيل ولكن استقرّت المصورة برهةً جامدة في ذلك الجوّ الرصاصي لا تمشي ولا تلوي

وقد كان في امكان العلامة فرغوسن ان يحايد تلك الحرارة الشديدة بارتفاعهِ الى طبقات عالية فلم يمنعهُ عن ذلك سوى قلة الماء لانهُ لو اراد الصعود الى العلاء لاقتضى الامر انفاق كمية وافية من الماء وهذا من المستحيل فاكتفى بحفظ قبتهِ في علوّ مائة قدم عن الارض وهناك حركات تهب ريح خفيفة تدفعها نحو الافق الغربي

ثم فطروا قليلاً من اللحم المملح وبعد الظهر كانت القبة قد سارت بعض الاميال

قال العلامة وقتئذٍ : انا لا نستطيع ان نمشي باكثر سرعة من هذه

فلسنا نحن الآمرون بل مأمورون ونطيع بصبر جميل

قال الصياد حبذا لو صنعت لنا الآلة الدائمة في هذه الواقعة

قال العلامة : لا شكَّ في ذلك يا ديك ولكن على شرط ان هذه الآلة لا تحتاج ماء لتعمل حركتها والا تكون الحالة واحدة فانه الى هذا اليوم لم يخترع منذ شيء قابل الاستعمال . والقبات الطيارة هي الان كما كانت السفن قبل اختراع البخار وقد مكث الناس لاختراع آلاته مدة ستة آلاف سنة فلنا والحالة هذه وقت طويل للانتظار

قال يوسف . تبّاً لهذه الحرارة الفادحة . قال هذا وهو يمسح عرقه الجاري من جبينه قاطراً

قال فرغوسن . لو حوينا الماء لكان لنا فائدة من هذه الحرارة اذ انها تبسط الإدروجين الذي في القبة ولا يتطلب اللولب الذي على هيئة الدرعي لهباً شديداً . نعم انهُ لو لم تكن الماء على وشك الفروغ لما لزمنا ان نقتصد في توفيرها . قبح الله العبد الشقي الذي اخسرنا ذاك صندوق الماء الثمين

قال ديك : وهل تندم على ما فعلت يا صموئيل

قال كلاَّ يا ديك حيث قد انقذنا المرسل الميتنس من ميتة شنيعة ولكن لو بقي عندنا صندوق الماء الذي رميناه لكفانا مسيراً مدة ثلاثة عشر يوماً وفي هذه المدة لامكنا ان نجوز القفر كلهُ

قال يوسف : وهل لم نقطع نصف الطريق في رحلتنا الافريقية

قال فرغوسن اذا اعتبرنا ذلك بالنظر الى المسافة فنكون قد قطعنا نصف الطريق واما اذا اعتبرناهُ نظراً الى المدة ومكث الريح في سكون فلا اعلم اين يكون نصف الطريق واظن ان الريح مائلة الى العدم

قال يوسف : دع عنا هذا الحديث ولا تتأسف على حالنا فقد نجونا في

مدة سفرنا من كل آفة. ومهما جرى لنا فاني ماسك بحبل الامل ولا تخيب ثقتي بل انا اقول لكما انا سنجد ماء عند الاقتضاء فليطمئن منكما البال وليذهب عنكما كل نحس وملال

اما الارض فكانت آخذة بالانخفاض من ميل الى ميل والمرج الذي قبالة كان ينتهي عند الرمال . فقام هناك الحشيش المحرق مقام الاشجار الجميلة الكائنة في الجهة الشرقية ومن النباتات ما كان قريباً من العرق في نحو تلك الرمال وصخور كثيرة متساقطة من جبال بعيدة قد تحطمت في سقوطها وتبعثرت حصى مسنونة في تلك البادية وستذوب وتصير رملا خشناً وبعده تحولها حرارة الشمس الى حب ناعم للغاية

قال العلامة . هناك يا يوسف افريقية كما كنت تتصورها ولذا قلت لك انه يلزمك ان تشدد حيل صبرك وقناعتك

قال يوسف نعم سيدي ان ذا امرٌ طبيعي حرارة ورمال وهل يليق ان نطلب شيئاً آخر في مكان كهذا ثم قال ضاحكاً اعلم اني ما كنت اثق كثيراً بفضلك واحتراسك لان في ذلك تناقض وهل يا ترى تحملنا العذاب والشقاء لنأتي من بلادنا ونجد هنا نضارة اراضينا وبساتيننا فهذه هي المرة الاولى التي فيها ارى ذاتي منفياً في افريقية حقيقة ويسرني ان اذوق شيئاً من حلاوة مقرها

وعند المساء قرر العلامة ان المنصورة لم تخطُ عشرين ميلاً في ذلك النهار الشديدة حرارتهُ ولما توارت الغزالة في طي الشفق خيم تلك المفازة ظلام مدلهم وحر معاً

وكان الغد نهار الخميس وهو اول يوم من ايام شهر ايار اما الايام فكانت تلي بعضها بعضاً بسياق واحد من شأنه ان يلقي المسافرين في وهدة القنوط

واليأس وكل صباح يماثل الصباح الذي عبر . وما زالت الشمس عند الظهر ترميهم باشعتها الفادحة والليل يزيد الحرارة ثقلاً والهواء قد اضحى تنفساً لا نسمة وخيل له عما قليل سيزول ذلك المس الطبيعي من تلقاء ذاته

اما العلامة فرغسن فاضمر في قلبه تلك شعائر الكدر التي دهمته من جراء تلك الحالة المجهة وما برح متمسكاً بسيما الطمانينة والرزانة كانسان محنك قد تمرّن على اقتحام الاخطار وخوض المنايا وكان ضابطاً سطوته ويتطلع في مراصد الآفاق كلها علّه يصادف ما يهديه الى منبع ماء فما شاهد الا اقتطاع الاصقاع والاراضي النباتية وانبساط الرمال كبحر طام لا نهاية له

ثم هاجمته افكار المسؤولية التي تحمّلها على عاتقه بسبب استرفاقه ديك ويوسف اعزّ اصحابه الذين اقتادهما بقوة الصحبة او الخدمة . فتلاعبت في ميدان دماغه جيوش الافكار واطرق برهةً وان لم يظهر على نفسه ادنى ارتباك فسأل نفسهُ هل تصرف حسناً باقدامه على تلك الرحلة الخطرة وهل لم يسلك طريقاً محرمة او لم يحاول في سفره مجاوزة حدود الاستطاعة وهل لم يترك الباري سبحانهُ وتعالى لاجيال متأخرة معرفة تلك البلاد المجهولة

فصدمتهُ هذه الظنون وتخللت عقلهُ في وقت واحد كما يحدث للمرء في ساعة ييأس فيها من الخلاص . واذ لم يستطع ان يُشتت جيوش الهموم الواثبة عليه قد كاد ان يخرج من حدود الرشد والصواب وبعد ان تقرر في عقله ما وجب عليه اهماله فبلا احد يهتم بما يجب عليه فعلهُ ساعتئذٍ فقال في نفسه . هل يا ترى هو امر مستحيل الرجوع الى الوراء ام هل ليس في طبقات الجو العالية مجاري رياح قادرة ان تدفعهُ الى بلاد اقل محولاً وجدباً . فانهُ قد عرف الاصقاع التي مرّ بها لكنهُ جاهل الاماكن التي يتجه اليها ولما صادفتهُ حيرتهُ عزم على ان يشرح لرفيقيه واقعة الحال كما هي بمطلق الحرية . فصور لهما الامر جلياً

ودعسكرهما بما قد تم من العمل واوضح ما بقي عليهم منهُ واكد انهم بحصر المعي قادرون على الادبار والرجوع الى الوراء وبعد ان فرغ من شرحهِ التمس منهما ان يعرضا لهُ رأيهما

فقال يوسف . ليس لي رأيٌ سوى رأي سيدي وما هو مزمع ان يكابدهُ من المشقة ساكابدهُ انا ايضاً باكثر جزءةٍ وبسالة منهُ والى حيثما سار اسير انا والى حيثما مضى مضيتُ معهُ

فقال العلامة : وانت يا ديك

قال ديك : اما انا يا خليلي صموئيل فلست بقاطع حبل الآمال ولعمري قبل ان اقدم معك على السفر لم اعمل قط عن اخطاره ومخاوفهِ ولكني عزمت على ان لا اكترث بهذه الاخطار ولا اعتبرها طالما رأيتك قائماً بيا . فانا لك جسداً ونفساً واما رأيي في الحالة الحاضرة فهو ان نداوم رحيلنا وننتهي الى الغاية واظن ان اخطار الرجوع الى الوراء تضاهي اخطار التقدم الى ما قدام . فهيا اذاً على المسير وثق بصداقتنا نحن الاثنين

فتحرك قلب فرغوسن من مثل ذلك الكلام وقال : عافاكما الله يا صاحبيَّ الاحتفاء . فهذا الذي كنت أؤملهُ من حبكما وتعلقكما بصداقتي وقد اجدياني كلامكما شجاعةً وبسالةً فاشكر معروفكما وحبكما

ثم قبض ثلاثتهم بعضهم على يد بعض دلالةً على تجديد مباني المحبة والوداد والامانة

فاستأنف فرغوسن كلامهُ وقال . انصتا لقالي يا رفيقيَّ . انهُ عوجب تقويمي لسنا بعيدين عن خليج غوينه اكثر من ثلاثمائة ميل فلا يمكن ان تكون الصحراء بلا نهاية حيث ان ساحل غوينه كثير السكان ومعروف لحد مسافة بعيدة من البحر المحيط . فاذا لزم الامر ذهبنا الى تلك الجهة ومن المستحيل ان

لا نصادف في طريقنا بئراً او غوطة لنجدد زاد الماء . ولكن ما نحن في احتياج اليه الآن انما هو الريح التي بدونها نستقر ثابتين وجامدين في الصحراء .

قال الصياد : صبراً جميلاً يا خليلي

مر ذلك النهار المستطيل وهم ينتظرون حركة في الجو فلم يظهروا علامة تلقي في قلوبهم شعاعاً من الامل بل توارت الشمس وراء الافق وهي ترمي رمال الصحراء باشعتها النارية

فانفق فرغوس مائة وخمسة وثلاثين قدماً مكعباً من البخار لاضرام نار القصبة مع انهم لم يسيروا سوى نحو خمسة عشر ميلاً وردّوا لهيب عطشهم بكمية من الماء تبلغ نحواً من لترين

ثم حلّ الليل بسكون عظيم ولم يطب للعلامة رقاد

الفصل الثالث والعشرون

في مناقشة فلسفية وظهور السحابة في الافق وظهور رقة ثانية
ومشاهدة القافلة وغرماء في الصحراء

فلما اصبح الصباح واشرق نور الشمس الوضاح ما زالت السماء رائقة نقية لا حراك في الفضاء فارتفعت المصورة الى علو خمسمائة قدم وما تكاد انتقلت قليلاً الى الجهة الغربية

فقال العلامة ها نحن في قلب القارة وها هي بحور الرمال الطامة تحت اقدامنا . فيا للعجب كل العجب لما هذا النظام الغريب في الطبيعة ولست يا ترى يبت الزرع هناك بالقرب من حدود الرمال وها هذا الفحل والجدب مع ان الاراضي هي في خط عرض واحد ومرمية بالاشعة عينها

قال ديك . ايها الخليل ان علة ذلك ليس من شأنها ان تقلقي وان ما يهمني انما هو الحال الذي نحن عليه فلا اهمية خلافه

قال العلامة دعنا نتفلسف قليلاً على ذلك فان التفلسف لا يجلب علينا اذية

قال ديك . هلم نتفلسف ما نشاء فان الوقت طويل وانا لانكاد نمشي في هذه الافلاك . فكأن الريح خائفة الهبوب او راقدة في سرير الراحة

قال يوسف . اما انا فاشركما انه لا يطول بنا الحال لاني ارى سحابة في الجهة الشرقية

قال العلامة : نعم وفي الصواب تكلم يوسف

قال ديك . ولكن هل ترى ستلك هذه السحـــابة وتأتينا عطر وريح

عاصي

قال العلامة : سترى ذلك في وقته

قال يوسف : عيد ان اليوم هو الجمعة فقلما اتى بأيام الجمعة

قال العلامة : ان شاء المولى سيذهب عنك اليوم هذا الوهم الباطل

قال يوسف وهو يمسح العرق الوافر السائل من وجهه حمداً ولكنك أقر ما هذه الحرارة الشديدة . نعم ان الحرارة نافعة وخصوصاً في الشتاء ولكن في الصيف على المرء ان يتحرز منها على قدر استطاعته

فسأل الصياد وعوس وقال هلاّ تخاف ان تضر حرارة الشمس القادحة قفتنـــا

قال كلاّ يا صديقي لان المـــادة الصمغية التي طلي بها القماش الحريري تحتمل حرارة عظيمة جداً فقد وصلت احياناً حرارة القصبة الى مائة وثمانيـــة وخمسين درجة انكليزية ولم يتأثر منها غطاء القبة الداخلية الصغيرة

اما يوسف فكان نصره حادًا ويرقب الاشيـــاء فاحس تميز من المطرات فقال وهو ينظر الى السماء . انها سحابة في الحقيقة يا خليلي

فكانت هذه السحابة متصفة في السماء كثيفة متجمعة من غيوم صغيرة ولكنها لم تتغير قط هيئتها ومن هذا استنتج العلامة ان ليس فيها ريح تحركها

وقد تراءت في الافق منذ الساعة الثامنة صباحاً ومع ذلك لم تتقدم قبالة الشمس الا بعد الساعة الحادية عشرة ثم توارت وراء هذا الستار الكثيف وفي تلك الساعة انفصل من هذه السحابة الغيم الاسفل ممتداً عن خط الافق الذي تلألأ على اثر ذلك نوراً وبهاء

قال العلامة ان هذه السحابة منفردة فلا نتقي منها انظر اليها يا ديك أليست هيئتها كما كانت صباحاً

قال ديك . لعمري لا تزل كما كانت وعليه لا ارجو منها ريحاً ولا غيثاً عسى انها تدحرجها كثيرا

قال العلامة : هذا ما اخشاه حالة كونها في علوٍ شاهق

قال ديك ايها الصديق صاموئيل هلمَّ ننلاقي هذا الغيم الذي لا يريد ان ينشر علينا لواء سحائبه

قال العلامة . انظرْ انا لا نجني من هذا العمل ثمرة البتة بل نريد انفاقاً للمار ومن ثمَّ للماء ولكن نظرًا لحالتنا الحاضرة فلا يسوغ ان نهمل شيئاً عسى ان يكون فيه خيرٌ لنا فهلموا بنا نطلع

ثم اذكى رماد لهيب القصبة فانتشرت الحرارة وللحال صعدت القبة بقوة الادروجين الممدّد

فوصل الى السحابة في علو الف وخمسمائة قدم ودخل في ضباب متكاثف ودام حفظهُ برهةً في تلك الطبقة ولكن لم يجد فيها ادنى مهب ريح حتى وكانت خالية من الرطوبة وما تكاد ترطبت الاشياء التي لمستها . اما المنطورة فلما اقتحمت تلك البخارات مشياً باكثر سرعة من الاول ولكن بنوع زهيد جدًا وهذه كانت الفائدة الوحيدة من الصعود الى السحابة

وفيما كان العلامة يتأمل بكدر ما حازهُ من النفع الطفيف في ارتقائه الى الاعالي واذا بيوسف قد صاح متعجباً وقال - واعجبا واعجبا

فقال لهُ سيدهُ : وما الذي تراه

قال يوسف - مولاي وسيدي ديك ما بالكما لا تنظران الى الامر العجيب الغريب

قال ديك : وما هو قل عاجلاً

قال يوسف : اعلما انا لسنا وحدنا في هذا الخلاء بل هنا لصوص سارقة قد قلدونا في صنعتنا

قال ديك لفرغوس : وهل يا ترى اصابه جنون

ثم شخص يوسف صامتاً متأملاً باندهاش وانذهال فنظر اليه فرغوس وقال : هل تكون الشمس قد فعلت في دماغه واختلّ منهُ العقل

فقال ديك ليوسف أ لا تقول لي اميرًا

فقال له يوسف . انظر يا ديك

ودلهُ على مركز في المسافة الجويّة

فصاح ديك مندهشاً وقال . لعمري هذا مما يوجب الانذهال . تطلع يا صاموئيل تطلع

فقال العلامة بسكون نظرت يا رفيقيَّ ما تنظران اليه

قال ديك : قبة مثل قبتنا ومسافرون مثلنا ايضاً

في الحقيقة كانت قبة هوائية تحوم في الهواء بمركبتها ومسافريها وذلك بعيداً عن المصوّرة بخمسمائتي قدم وهي تتبع الطريق التي هم سالكوها

فقال العلامة لم يبقَ لنا الآن الا علينا السلام بالدلائل والاشارات فخذ يا ديك رايتنا وانشر الوانها بارائهم

فالظاهر ان المسافرين المقيمين في تلك المركبة فكروا كما فكر هؤلاء في دقيقة واحدة لان الراية ذاتها اعادت الاشارات والحركات نفسها التي ابداها الصياد

فقال ديك : وما المعنى بذلك يا فرغوس

قال يوسف : انما هم سحاري يهزأون بنا

فقال العلامة ضاحكاً : المعنى يا بني انك تفعل هذه الاشارات لتمسك يا ابها الخل الوفي وتأويل ذلك انا نحن امسنا في تلك المركبة والخلاصة ليس تلك القبة الا صورتنا

قال يوسف : سيدي من بعد اداء الاحترام الواجب لحضرتك اقول لك اني لا اعد كلامك من الصدق بل اعده هزؤاً منك

فقال له العلامة قف على طرف المركبة يا يوسف وحرك ذراعيك فتحقق صدق مقالي

ففعل يوسف ما امره به سيده وشاهد حركاته قد أُعيدت تماماً

قال العلامة : انما هذا لعمري وهو حادث بسيط من حوادث انعكاس النور ويحدث من تحول الهواء الغير المتساوي الحاصل في طبقات الجو والسلام ختام

قال يوسف . ولا عجب عندي من ذلك

وكأنه لم يشأ ان يصدق هذا المقال فراجع حركاته تكراراً بانواع مختلفة

قال ديك . ولا اعرف منية فيه يبهش النظر وقد قرت منا الخواطر لمشاهدة صورتنا وجهاً بازاء وجه . ألا تقرأن يا صديقي ونقسكما الهولي انها ذات هيئة لطيفة وهيبة مهيبة

قال يوسف كيفما فسرت وشرحت فان الحادثة من العجب العجاب

وما لبثت صورة القبة ان اخذت في الاندثار رويداً رويداً ثم ارتفعت السحابة الى علو باسق وتحولت الصورة فلم تحاول هذه ان تتمها ومضت ساعة من الزمان واذا بالسحابة قد توارت عن العيان

واما الريح الطفيفة فانتقصت قليلاً فقليلاً وكادت تكمل حيز العدم وعندها اقترب العلامة الى الارض ايضاً

وقد كان منظر القبة ملأ عيونهم الهم والفكرة في احوالهم ولكن لما توارى عن النصر رجعوا الى ما كانوا عليه من الافكار الحزنة وهم يكابدون حرارة عظيمة جداً

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر اشار يوسف الى وجود شيء نادر فوق بحر الرمال وما لبث ان عرفه حيناً وهو نخلتان نابتتان على مسافة غير بعيدة

فقال العلامة . اذا وجد نخل فلا بدّ من وجود نبع ماء ام بئر بالقرب منها ثم اخذ المنظرة واسكد تخمين يوسف

فصاح حينئذٍ قائلاً : ها الماء والحمد لله ها الماء فلا شكّ انهُ واجد هنالك وكيفما سرنا سنصل اليه في نهاية الامر

فقال يوسف : والحالة هذه أيحسن لديك ان نشرب شربة ريثما نبلغ الماء لان الريح قاطعة منا النفس

قال العلامة . فلنشرب اذاً يا صاح

فشربَ ثلاثتهم ليترًا كاملاً ولم يبقَ لهم بعدُ الا ثلاث ليترات ونصف لا غير

ثم قال يوسف : يا ما الذّ الماء وانفعها لعمري لم اذق قط في حياتي لذةً في الشرب كاللذة الحالية

قال العلامة : هذا ما يجديه الانسان من المانع

ولما كانت الساعة السادسة حامت المنظرة فوق النخلتين

فلما تأملوا بهما رأوهما شجرتين تخيفتين يابستين شبه شجر بلا لحم لانهما خاليتان من الاوراق ومائلتان الى الفناء اكثر منهما الى البقاء

اما فرغوس فخالج صدرهُ الاضطراب عند ما حدّق نظرهُ فيهما

ثم انحدروا تحت اقدامهم حجارة بئر مكسورة بلا ترتيب وقد صريت

اشعة الشمس القادحة تلك الحجارة وكادت تحولها الى رمال ناعمة جداً ولم يروا للرطوبة من اثر . فانقبض قلب صموئيل من ذلك المنظر ولقد كان كشف لرفيقيه ما يحجره من الخوف لو لم يسمع تأوهما وهتافهما فالتفت ورأى عن بعد في الجهة الغربية حقلا طويلا مرسوما من عظام مبيضة وشاهد حول النبع كوماً من تلك العظام فعلم من ذلك ان قافلة وصلت الى ذلك الحد من الصحراء فالذين كانوا ضعفاء فيها سقطوا على الرمل قليلا فقليلا واما الاشداء فبعد ان كابدوا اقصى التعب وجرّوا انفسهم الى تلك العين قضوا عندها نحبهم وذاقوا كأس حمام المرة

فنظر المسافرون بعضهم الى بعض وقد علا الاصفرار وجوههم

فقال ديك: لا نزلنّ الى هنا بل فلنهرب من هذا المشهد الهائل لا نكد فان البئر عنده لا تحوي نقطة من الماء

قال العلامة: مهلاً يا ديك يلزمنا ان نقف على الحقيقة لئلا تتشوش ضمائرنا فيما بعد ويدركنا الندم حسبان ان قضينا ليلتنا هنا او في محل آخر . وقد قام نبع ماء من زمن مديد في هذا المحل عسى ان يكون له اثر الى الان

حطت المنطورة على الارض ووضع يوسف وديك كمية من الرمل موازنة لوزنهما وترلا عن المركبة مبادرين الى البئر فدخلاها بشرح لعسى رملا ورأيا ان العين ناشفة من سنين عديدة وحفرا قليلا في الرمل الناعم فلم ينظرا اثراً للرطوبة

ثم طلعا من الجب متوجعين ناكليل من العرق على جبينهما مكسوري القلب والخاطر والرمل اذ ذاك قد غطاهما فولت الشجاعة مدبرة وقام مقامهما القنوط واليأس

فلما نظر اليهما العلامة عرف قلة فائدتهما من النزول الى البئر وقد كان

عالماً بذلك من قبل وشعر في ذاته بانه سيد الان وصاعداً تقتضيه الحال ان توازي شجاعته ومروءته شجاعة ومروءة ثلاثة رجال

وكان يوسف قد القى نظرة متروية ورماها وهو عصاب بين العظام المشتتة على الحصيص

وعند العشاء مُدَّ سماط السكوت التام ولم يتفوه احدٌ بالكلام بل اصطادوا صيداً نكره شديد مع انهم لم يتناسوا بعد شدائد العطش وبوائسه ولكنهم قانطين بالنظر الى ما اقبل عليهم من الحظ

الفصل الرابع والعشرون

في العطش وتندم الملاحة واستقصاء القصبة ومراقبة الصحراء الشاسعة وانفراد الملاحة وسقطه وما رواه يوسف من القصد الثابت

فلم تبلغ المسافة التي ساروها في النهار كله أكثر من عشرة أميال ووفقوا للمسير في تلك المدة مائة واثنين وستين قدماً مكعباً من الماء

ولما كان السبت صباحاً تأهب المسافرون للرحيل وبعد برهة أخذوا بالمسير

ثم قال : عندنا ما يكفينا مشياً مدة ست ساعات فإذا عبرت هذه المدة ولم نكتشف بئراً ولا عيناً فالله يعلم ماذا يصيبنا

فقال يوسف : ان الريح ضعيفة جداً يا مولاي

وبعد ما ظهر لوائح الخوف والكدر قد علت وجه سيده قال : أومل انها ستهب عما قليل

اما املهم في هبوب الرياح فكان باطلاً اذ ان السماء رائقة صافية واشتدت الحرارة كثيراً حتى ان الترمومتر الاسكايري تحت ظل الخيمة دلّ على الدرجة المائة والثالثة عشرة

اما يوسف وديك فكانا مضطجعين الواحد بجانب الآخر وهما يحاولان الفرار من الفكرة في تلك الحالة الهائلة سواء بالرقاد ام بالخدر وقد استطال لديهما الزمان طويلاً مملاً لقلة شغلهما ولا شيء يجلب الضجر والارتباك مثل البطالة اذ لا يستطيع المرء ان يزيل عنه ذكر اكداره ورزاياه بشغل من الاشغال في ذلك الوقت كان اشتغالهما متوقفاً على التفكر والتحسر في تلك الواقعة الجمّة الانكاد وليس ما يلهيهما عن تصورها نصب اعينهما

ثم علق العطش يذيقهم مرّ العذاب والشقاء والعرق الباقي لم يكن من

شأنهِ الآن يريد سفك دم التياأنا وفي الحق والصواب يدعونهُ اهل افريقية
حليب العربة . وما تكاد كان باقياً نحو لترين من الماء السخن فكنت ثلاثتهم
يحدقون بصرهم بتلك القطرات الثمينة دون ان يجسر احدٌ منهم ان يبل منها
طرف ثمره فيا لها من حالة هائلة ترتعد منها الفرائص وترتاع منها القلوب
اذ لم يبقَ معهم من الماء الا تلك الصفصية الحقيرة وهم مع ذلك لم يزالوا في
قلب الصحراء

فعاص فرغوسن لجة الافكار ودهمتهُ الهواجس والقلق فلم يستطع ان
يتجلد فما الاستة للقتال فسأل نفسهُ قائلاً يا ترى هل تصرفتُ حسناً في
اموري أما كان يوافق غرضي لو حفظتُ ذلك الماء الذي حليتهُ هدراً الى
غاز الإدروجين لكي الثِ مستقرّاً في الفلاة نعم اني سرت بعض السير ولكن
ما هي المسافة التي جزتها فانها لا تستحق الذكر والاعتبار . فلو بقيا في الوراء
مسافة نحو ستين ميلاً فما الذي كان ضرّ ما حيث ان الماء فرغ الان في هذا
المكان وان قامت الريح ألا يا ترى تهب هنالك كهبها هنا ولربما يكون هنا
باقل حدة اذا هبت من الشرق . الا اني مشيت طمعاً في نوال الأرب
ولكن ما انفقتهُ من الماء الكثير كان كافياً لان استقرّ مدة تسعة ايام في
هذه الصحراء . فما اطول تسعة ايام ومن يعلم ماذا كان قد طرأ في مدتها من
الحوادث . غير انهُ ربما لو حفظت الماء لوجب عليَّ الارتفاع بانقاد شيء من
الثقل وعند نزولي كنت افقد غازاً جزيلاً فغاز القبة هو دمٌ وحياة لها

فتصادمت هذه الافكار في عقله فيا له يقبض على راسهِ بيديهِ متأملاً
مدة ساعات برمتها

ولما كانت الساعة العاشرة صباحاً قال في ذاته لا بدَّ ان امتحن امراً في
هذا الامر لعلهُ خيراً . فها اني اصعد الى العلاء لاستقصي طبقةً تجري مهب

ريح تدفع قبتنا الى قدام ولا بدَّ لي من هذا الاختصار ولو اسقتُ الماء التي هي غاية حياتنا

وفيما كان رفيقاه راقدين اضرم نار القصبة واستدارت القبة لامتداد الادروجين وارتفعت بخط مستقيم بما عظم من السرعة فسعى العلامة في ان يجد بها من علو مائة قدم الى علو خمسة الاف قدم ليصادف سمبة ذهب هدراً ولم يستفد شيئاً وتبين لديه ان الريح عديمة الوجود حتى وفي اعلى حدود الجو

وفرغ الماء اخيراً وامتنع ضغط النار وطفيت القصبة لنفاد النار واصبحت آلة بغير لا فاعلية لها ثم تقلصت القبة الهوائية واخذت في النزول رويداً رويداً على الرمال في نفس المكان الذي طلعت منه

فانتصف النهار وهم في درجة ١٩°٣٥ طولاً و٦°٥١ عرضاً بعيداً عن بحيرة تشاد نحو خمسمائة ميل وعن جهات افريقية الغربية نحو من اربعمائة ميل ونيف

فنزل ديك ويوسف الى الارض وذهب عنهما الخدر

ثم قال الصياد: وقفنا اذاً يا خليلي

فاجاب العلامة بصوت الهيبة - لا بدَّ من الوقوف

ففهم الرفيقان مآل كلامه وكان سطح الارض على مساواة سطح البحر لسبب انخفاضه هناك ولهذا وقفت القبة في موازنة تامة وعدمت الحركة على الاطلاق

وبعد ان وضعوا فيها رملاً موازياً لثقلهم نزلوا الى البر وهم غائصون في معاور التفكر ولبثوا ساعات لا يتحادثون ولا يتفاوضون في امر . ثمَّ هيَّأ يوسف العشاء وكان لحماً وكعكاً وبعد ان اكلوا شيئاً يسيراً شرب كلٌّ منهم جرعة من الماء السخن

ولما جنّ الليل وبدد الدجى ضياء النهار لم يسهر احد لحراسة القبة ولكن لم يرقد ايضاً احد لشدة الحرارة واشتعال الفكر. ولما اصبح الصباح اخذ فرغوسن نصف اثر الماء الباقي ووصفهُ جانباً وقصدوا ان لا يمسوهُ الّا وقت الحاجة القصوى

فما مضت برهة الّا قال يوسف أُفٍّ اواه لقد ضاق صدري من الحرارة المتزائدة

ثم تطلع في الترمومتر وقال: لا عجب من ذلك فان الحرارة في درجة مائة واربعين

فقال الصياد: ان الرمل يلهب الاعضاء ويحلل البدن فكأنه خارج من اتون ناري يا رباه ما هذه الحال فاننا لا نرى اثراً لسحابةٍ في السماء لعمري ان ذا مما يزعج العقل ويبلي عداء الجنون

قال العلامـــة: لا تقطعنّ حبل الرجاء يا رفيقي لان مثل هذه الحرارة يعقبها دائماً رياح عاصفات في مثل هذه القطعة من الكرة ويكون قدومها سريعاً كالبرق اللامع وان كانت الان السماء في صفاء ورواق عظيم فمع ذلك يمكن حدوث تغييرٍ مهم باقل من ساعة

فقال ديك: ولكن لا بد من ان يسبق ذلك دليل ام اشارة

فقال العلامة: اني ارى ميزان الهواء مائلاً الى انخفاض في الزيبق

قال ديك: اجاب الله دعاءك يا خليلي صموئيل لاننا قد تسمّرنا في هذه الارض كطيرٍ مكسور الجناح

قال فرغوسن: ولكن هنا فرق بيننا وبين الطيور يا ديك لان اجنحتـــنا لا زالت غير ممسوسة ولم يضر بها شيء. وأُومل ان يتيسر لنا العمل بها بعدُ

فصاح يوسف قائلاً: آه ثم آه من ريح تذهب بنا وتنقلنا الى عين ام بئر

حينئذٍ لا نعود نحتاج الى شيء . . فان زادنا كافٍ والماء ننتظر شهراً بتمامه ولا نحتمل عداناً واما العطش فهو شرّ مصيبة وبلية

فلم يكن العطش وحده عاملاً على تعذيبهم بل كان عقلهم مضطراً لمراقبة الصحراء مراقبة دائمة لان الرمال كبحر عطعطم ليس فيها تلٌّ ولا عوجٌ ولا حصاة واحدة تقف انظارهم عليها . وقد جرح فؤادهم انبساط تلك الصحراء المتساوية السطح واصابهم بالداء المعروف بداء القفار . ولعمري ان النظر الى زرقة تلك السماء غير المتغيرة والتأمل في اصفرار تلك الرمال المحرقة المدى مما يفضي بالمرء الى الهلع والرعبة وكانت حرارة الجوّ الملتهب نامية متزايدة وكأنها بارتجاف لهيب الاتون المضطرم فاذا ما تأمل العقل بذلك الرواق البليغ خاب منه كل امل من النجاة ولم يجد بُدّاً من الهلاك في هاتيك الطلول ولا يجال بذهنه ما من شأنه ان يفرج همّه لان الاتساع المديد نوعٌ من الابدية

ولهذا لما فرغ الماء عند المسافرين الثلاثة وهم مقيمون في تلك الصحراء الحارة اخذوا يشعرون بالتصورات الغريبة الخالية من الصواب وقد كبرت عيونهم واضطرب شعرهم

فلما رأى الحكيم الطـالام رحيم الحسق قد عزم العلامة على ان ينقض تلك الحالة المقلقة بسيرٍ سريع . فاراد ان يطوف تلك الصحراء مدة ساعات لا للاستقراء بل للمشي

فقال الى رفيقه : هلمّا بي يا رفيقيّ لنسير مدةً لان السير يجدينا نفعاً جزيلاً

قال ديك : انك تطلب مني امراً مستحيلاً لاني لااستطيع ان اخطو خطوة واحدة

قال يوسف : احبُّ عليَّ الرقاد يا مولاي

قال : ولكن سيحلب علينا الرقاد او الراحة صبراً يارفيقي . فانقضا اذاً هذا الخمود والارتخاء وتماليا معي عشي . ما بالكما لا تسمعان

فلم يجبه رفيقاه على سؤاله ولما ذهب وحده يمشي في تلك البيداء الشاسعة المتلألئة بالنجوم والكواكب المرصعة في القبة اللازوردية . ورأى خطواته الاولى مضحكة له جداً اذ انها خطوات انسان واهن لم يمارس المشي من رهة طويلة لكنه علم انه يجني نفعاً من هذه الرياضة فسار بعض الاميال نحو الجهة الغربية واخذ عقله يتشدد واذا بغتة اصابه داء الأوام (هو دوار الرأس) فظنّ في نفسه انه على حافة الهاوية وان ركبتيه انثنتا والقت الصحراء في قلبه رجفة الرعب والهلع . فتوارت المنصورة عن عينيه في حلكة الظلام وثقلت على رأسه احمال الخوف والفزع وهو المسافر المشهور في الشجاعة والجراءة فحاول الرجوع الى الوراء ولكن كان سعيه باطلاً ثم نادى فلم يجبه احد حتى ولا الصدى وسقط صوته في الفضاء كما يسقط حجر في هوة لا قياس لعمقها ثم ارتمى على الرمل مضطجعاً حائر القوى وليس له رفيق في وسط ذلك القفر الصامت الرهيب

وبعد انتصاف الليل عاد الى حواسه وهو بين يدي يوسف خادمه الامين لأنه اي يوسف لما رأى ان قد طالت غيبة سيده اخذه القلق وهرول ماً الى يتبع آثاره المطبوعة على الرمل فخلا . ثم فوجده مغشياً عليه

ولما افاق قال له : ما الذي اصابك يا مولاي

فقال له العلامة : ليس ذلك شيئاً بل هو ضعف وقتي

قال يوسف : نعم ليس ذلك شيئاً ولكن انهض واستند عليّ لنرجع الى محطتنا

فاتكأ العلامة على ذراع يوسف وعاد في الطريق التي سلكها قبلاً

فقال يوسف - لم خاطرت بنفسك يا نفسي بلا فطنة

ثم قال ضاحكاً ' وربما كنت تخلصت من اللصوص ولكن ما لنا ولهذا الحديث فلنتكلم بخير

قال العلامة - قل يا يوسف ما بدا لك فاني مصغ لكلامك

قال يوسف : لا بد من ان نعمد لعمل لان حالتنا لا تدوم على هذا المنوال اكثر من بعض الايام واذا لم تهب الريح علينا بهبها هلكنا لا محالة

فلم يأت العلامة بجواب

فاستتلى يوسف كلامه قائلا يجب ان واحداً منا يبذل نفسه حبا برفيقيه ومن الصواب ان اكون انا ذلك الواحد

قال فرعوس : وما المراد بقولك وما هو قصدك يا يوسف

قال يوسف - انما هو قصد سهل جداً فاني اخذ معي زاداً وامشي دائماً الى ان اعلم مكاناً في غضون ذلك اذا اهتديتما الى هبوب ريح موافقة فتسافران ولا تنتظراني واما انا فاذا وصلت الى قرية اقصي مخلتي بعض كلمات عربية احدها منك حظاً فاما اني اتيكما بالمساعدة اللازمة واما اني اترك جلدي هنالك فما قولك دام فضلك

قال العلامة - ان قصدك خال من التعقل والفطنة لكنه جدير بشهامة قلبك يا يوسف فان ذا الامر مستحيل ولا نتركك تذهب عنا

قال يوسف : سيدي لا بدَّ من ان نحص امراً فان هذا لا يجلب عليك مضرة لاني اقول لك تكراراً انك لا تنتظراني عند هب الريح وفي حصر المعنى انا ارجو النجاح في مطلوبي

قال العلامة - كلاً ثم كلاً يا يوسف فلا نفترق اصلاً بعضنا عن بعض

لان الافتراق يزيدنا غماً على غمٍ فانهُ قد كُتب ما جرى لنا وربما قد كُتب ايضاً انه سيحدث جلاءهُ في المستقبل · علينا اذًا ان ننتظر بصبرٍ جميل

فاصبر لصيفٍ ملَّ يوماً نزلا   لم يلبث النازلُ ان يرتحلا

قال يوسف عليك كما قلت يا مولى · ولكن دعني اقول لك اني لا اصبر ما تأخر عن يومٍ واحد ها قد بلغنا يوم الاحد او بالحري الاثنين لانها الساعة الواحدة من بعد انتصاف الليل فاذا مضى الاثنين ودخل يوم الثلاثاء ولم عش باشرت قصدي لا محالة

فذا انساب العلامة الى مقابل خادمهِ وبعد قليل طلع المصورة وجلس في قاربها بالقرب من ذلك الذي كان غائصاً في بحر السكوت المطلق ولو انه غير نائم حقيقةً

الفصل الخامس والعشرون

في اشتداد الحرارة وفروغ آخر نقطة من الماء وبلوغ اليأس ومحاولة ديك قتل نفسه وهبوب السموم

فلما اصبح الصباح في اليوم الثاني كانت اول نظرة العلامة الى ريق الميزان ورأى انهُ ما تكاد انخفض انخفاضاً طفيفاً

فقال في نفسه : ما من شيء جديد

فخرج من المركبة وتطلع في الجو ليفحص عن حالة الهواء فلم يجد سوى الحرارة نفسها والنقاوة المألوفة في الجو وثبوت الحال على المنوال القديم من دون دليل ينبئ عن تغيير قريب الامد

فصاح حينئذ قائلاً - وهل اذاً يجب علينا قطع الامل على الاطلاق

اما يوسف فكان صامتاً غائصاً في عمق افكاره ومتأملاً مما صممهُ من القصد الثابت

اما ديك فاستفاق من النعاس مريضاً وقد تشددت قواه الحيوية بنوع خارق العادة فكلهُ العطش بسلاسل بؤسه وصده انتفاخ لسانه وشفتيه من التفوه بالكلام

وقد فكروا فيما مضى ان نقطات من الماء كانت لا تزال محفوظة في آنية والرفاق الثلاثة لهم علم بها فجعلوا يرددونها في افكارهم وقلوبهم مشتاقة اليها اشتياقاً عظيماً دون ان يجسر احد على الارتشاف بها

ثم اخذوا ينظرون بعضهم الى بعض واعينهم زائغة تائهة وقلوبهم مفعمة حرصاً وحشياً وكان ديك على الخصوص حاملاً كل الحمول لاستحكام مما لا يطيق المرء الاستمساك عنهُ فقضى النهار كلهُ غائصاً في بحر الهذيان وهو

ذاهبٌ آيب ويضج باصوات الفة مختشمة ويعض قبضة كمه وكأنك به قد تأهب لفتح عرقه ومص دمه

ثم صاح قائلاً : ويلاه ويلاه من هذه البلاد بلاد العطش والجفاف فالاصح ان تدعى بلاد اليأس والقنوط

قال هذا وسقط على الارض واهناً محطّ القوى ولم يبق له سوى صفير تنفسه بين شفتيه الظامئتين

وعند المساء نظر يوسف ايضاً مسنده داء الخوف فخيل له ان الصحراء الشاسعة تحاكي بحيرة عظيمة فيها ماء رائق صاف فخال يرتمي مراراً على تلك الرمال الملتهبة ليرتشف منها وكان ينهض عاطلاً وشفتاه ملوثتين بالتراب

حينئذ كان يقول لها بصوت وحنق . ويلا وتعساً لك يا ايتها البحيرة المشؤمة فان ماءك مالحٌ للغاية

وفيما كان العلامة وديك متمددين لا يبديان حركة خارق يوسف فكرٌ ان يأتي ويروي غليل ظمأه بتلك النقطات المحفوظة من العلامة الى ساعة الضيق الاخيرة فوثب على المركبة زاحفاً على ركبتيه وكشف الاناية الحاوية ما فضل من الماء واذ حدق فيها عينيه اخذها بيده وحملها على ثغره

في الساعة والحال سمع صوتاً قادماً متقطعاً يصرخ ويقول ـ اسقني اسقني

فما كان هذا الا صوت الصياد الذي رأى يوسف يشرب الماء فدبَّ مقبلاً اليه وجثى امامهُ على ركبتيه باكياً فتحرك قلب يوسف حباً وشفقة وبكى هو ايضاً وناول ديك الانية فافرغها الصياد في فيه الى آخر نقطة منها

ثم قال ليوسف : اشكر فضلك يا خليلي وعزيزي

اما يوسف فلم يسمعهُ اذ سقط على الرمل واهناً وغاب عن حواسه

فمن يا ترى يعلم ما جرى في تلك الليلة الهائلة . . ولما اصبح الثلاثاء استيقظ الرفاق الثلاثة وصعدت الشمس كرتها تصب نارا عليهم ورأوا لحمهم آخذة في الجفاف واليبس رويدا رويدا ولما اراد يوسف ان يقوم على قدميه لم يستطع حراكا وهذا اوحى اليه من المستحيل ان يتم ما نواه من العمل

ثم جال ببصره حوله فشاهد العلامة جالسا في المركبة محطم القوى مكتف اليدين على صدره وهو يشخص في المسافة شخصة الله نظر الى نقطة خيالية . اما ديك فكان مطروحا بجانب النصر وهو يحرك رأسه ذات اليمين وذات الشمال كوحش صار محبس في القفص ثم وقف بجانبه واحدق بسلاحه (القرابينة) الموضوعة في المركبة بالقرب منه

وبعده نهض متشددا بقوة خارقة للطبيعة وقال آه ثم آه . ثم انقض وأكبا كالمجنون وخطف القرابينة واحكم فوهتها على فيه

فوثب عليه يوسف وقال له : سيدي سيدي ما بالك

فقال الصياد شاهقا دعني واذهب عني

وبعد كلاهما يتصارعان ويتنازعان

فقال ديك . زح زح عني والا قتلتك

اما يوسف فلبث ناشبا فيه بيديه وتصارعا برهة ولم يلتفت اليهما العلامة وفي غضون القتال أطلق الرصاص من السلاح فتة مدوى الصوت في الهواء وعندها قام العلامة واجال بصره حواليه

وفيما هو على هذه الحال اذا تشدد بصره على الفور ومد يده نحو الافق وصاح صارخا : هالك هالك هالك

وقد خالج تلك الالفاظ حركة حماسة شديدة حتى افترق يوسف وديك

عن مصهما وجعلا يتطلعان الى مصهما

فكانت الهواء مضطربة كما يضطرب البحر ويتموج يوم تقصف فيه العاصفة وقامت امواج مزبدة من الرمال تنتشر وتلتف بعضها على بعض وعامود سحابي آتٍ من جنوب الشرق مستديرًا متقلبًا ساريًا بسرعة عجيبة والشمس اذ ذاك مستترة وراء سحابة كثيفة فارسل ظلها ساقطة حتى المصورة وجعلت الرمل الناعمة تتكرر كرور الجزيئات المائية ولم يزل ذلك الموج الرملي متقلا اليهم

فاشرقت انوار الامل على قلب فرغوس وتلألأت على محياه

ثم صاح قائلًا - نعما نعما هوذا السموم قد اقبلت

فقال يوسف ولم يفهم معنى ذلك - نعما نعما السموم

فقال ديك بصوت التعب واليأس دع السموم تهب فانها تسقينا كأس الموت

فقال له فرغوس - كلا يا ديك فانها تأتينا بكأس الحياة

وجعل يرمي من المركبة ما كان فيها من الرمال

فهم اخيرًا رفيقاه وشرعا يساعدانه في عمله ثم جلس في المركبة

فقال العلامة - والآن يا يوسف احكم على بالقاء نحو خمسين رطلا من معدنك

فبادر يوسف الى اجراء امر سيده مع انه شاعر بتألم لسبب ذلك واذا بالقبة الهوائية علت عن الارض وارتفعت

فقال العلامة: قد حان اوان ارتفاعك يا قبة الخير

فاتت السموم بهيا السريع كالبرق اللامع وكادت عوبتها تسحق المصورة وتلاشيها وقد امطرت عليها الرمال كالبرد

فصاح العلامة الى يوسف وقال . ارم بعد من الثقل يا يوسف

فالقى يوسف قطعة كبيرة من المعدن الذهبي

وقال . هوذا رميت فليطرب منك الخاطر

فارتفعت حينئذٍ المصورة فوق موجة الهواء ولما وصلت الى العلاء

انحدرت ساعة على ذلك البحر المزبد بسرعة لا حدَّ لها

فلم يتكلم احدٌ من الرفاق الثلاثة بل كانوا شاخصين ومتأملين وقد

زادتهم ريح العاصفة

وبعد الساعة الثالثة خمد الاضطراب وسقط الرمل على الارض وكوَّم

فيها الروابي وعادت السماء الى زرقتها الاصلية

عندها وقفت المصورة عن المسير فحامت بالقرب من غوطة هي كجزيرة

خضراء عائمة على سطح ذلك البحر الرملي

فقال العلامة . هوذا الماء هوذا الماء ولا ريب في ذلك

وللحال فتح اللولب الأعلى فانسرب غازٌ من الايدروجين ونزلت القبة

حتى لم تبعد عن الغوطة الأخضر مائتي قدم

ولما المسافة التي قطعها المسافرون في برهة اربع ساعات بلغت مائتين

واربعين ميلاً اي زهاء مسافة ١٠٠ ساعة

وبعد دنو القبة من الارض قد نزل ديك ويوسف فنزعين عن المركبة فقال

لهما العلامة كونا على حذر وخذا معكما البواريد

فوثب ديك على قرابينه وضبط يوسف بارودته وتقدما سريعاً حتى وصلا

الى الاشجار ودخلا تحت تلك الخضرة الرطبة فاستبشرا من ذلك بماء عزيز

لكنهما لم يكترثا ببعض آثار حديثة عريضة رُسمت في تلك الارض الناعمة

وفيما هما يمشيان اذا سمعا زئيراً عن بعد نحو عشرين قدماً

فقال يوسف : انما هنا زئير اسد

فقال ديك مغتاظاً : دعهُ يزأر فاني اود معاركته . ترى حسكم لنا اقوياء عند القتال

فقال يوسف : ولكن حذار حذار وليرشدك التأني والحرص لان حياتنا نحن الثلاثة متعلقة بعضها ببعض فاذا ذهبت حياة الواحد حصلت حياة الاخرين في خطر

فلم يصغِ ديك لكلام يوسف بل تقدم كأسدٍ ضارٍ وشرار الحماسة والحسارة تقدح من عينيهِ وسلاحهُ مذخور في يديه . وفي ظل صخرة كان سبع ذات ناصية سوداء مستكناً كامناً للقتال فما بصر بالصياد الاّ وثب عليهِ ولكن ما كاد استوى قائماً حتى بادرته رصاصة خرقت قلبهُ كالصاعقة وجندلتهُ على الارض ميتاً

صاح يوسف قائلاً : عافاك الله عافاك ياسيدي

اما ديك فبادر الى النهر عدواً ونزل اليه على درج رطب ثم تمدد امام عين ماء بارد وغمس شفتيهِ فيهِ بلهوجة ثم حذا حذوهُ رفيقهُ يوسف ولم يعد يُسمع لهما سوى لعق الماء ليرتويا من شدة ظمائهما

فبعد ان شرب يوسف تنفس وقال : حذار حذار ياديك لا تطمعنَّ في الشرب فان الطمع ضرٌّ مانع

اما ديك فلم يلتفت اليهِ بل ما زال يروي غليل عطشهِ وقد غطس في ذلك الماء اللذيذ راسهُ ويديه وكانهُ يحاول الثمل بمثل تلك الخمرة

فقال يوسف . وسيدي فرغوس هلاّ تفكر فيهِ

فما انتبه الصياد الاّ بعد ذكر العلامة فرغوس فتناول ملأ آنية كان قد احضرها معهُ واراد الطلوع على درج النهر

فاندهش اندهاشاً عظيماً اذ وجد نافذة البئر قد سدها جسمٌ عظيم هائل كثيف جداً ثم ارتد يوسف نظيره اذ كان تابعاً له

فقال حينئذٍ . ها قد نجونا في شرّ الحبوس

قال ديك . ويلاه ما الذي سلك وما هذا الامر . .

فا فرغ من كلامه الآخير زئيراً مخيف وقتئذٍ من هو ذلك العدو الناسل السادُّ مدخل البئر

فقال له يوسف . انهُ سبعٌ

قال ديك . كلاً بل هي لبوةٌ نحس الله طالعها ولكن فلتصبر قليلاً علىّ بتدبيرها

ثم جعل يدخر سلاحهُ بسرعةٍ ونشاط

وما مضت برهة الآضرم النار فكان الحيوان قد توارى عن الابصار

فقال الى رفيقه : هيا بنا هيا

فقال يوسف كيف نطلع وبعد لم تقتلها رصاصتك لانها لو كانت ماتت لتدحرجت الى هنا وهي الان واقفة جارحاً ومتأهبة لتثب على من يخرج منا لولا فهو يكون فريستها وصيدها

قال الصياد : وما الحالة اذاً وهل نلبث في هذه البئر محبوسين ورفيقنا وغوس ينتظرنا بفروغ صبر

قال يوسف . فلنجذب اليها الحيوان خذ باروديتي واعطني سلاحك

قال ديك . وما مرادك ان تصنع

قال : سترى الان

فاخذ يوسف بُردتهُ وجعلها على رأس السلاح واطلعها الى فوق كطعمة للبوة ففحصت اللبوة فكان ديك يترقبها عضرتها برصاصةٍ اصابت حسكتها

فتدحرجت جينيفر على الدرج وهي دائرة وقلبت يوسف فظنَّ هذا انها عزمت
في حتفهِ واسرعها لتفترسهُ واذا بضربة ثانية اصابت اللبوة فكان اذ ذاك
فرعوس قد ظهر على عتبة الشرفة وبارودته معهُ والدخان منها متصاعد فزحف
يوسف من تحت اللبوة وجثا فوق جثتها واعطى مولاه فرعوس آية الثناء

في دهشةٍ عيَّ احدها العلامة الى فيهِ واذرع عندهما وحينئذٍ اسدى
المسافرون الثلاثة شكراً جزيلاً من صميم الفؤاد الى عناية الرحمن التي حفظتهم
من شر الغوائل ونجتهم بنوع عجيب من كوارث الحدثان

الفصل السادس والعشرون

في الليلة المبهجة وقصة حبس ابروس وانحطاط البارومتر
وطلوعه والتأهب للرحيل وثوران الزوبعة

فكانت ليلة مبهجة تطرب الخاطر اذ قضوها في روضة اريضة تحت ظل اشجار ناضرة بعد ان تناولوا طعاماً لذيذاً قوّى ابدانهم ولم يهملوا شرب الشاي والعرق الممزوج بالماء

وكان قد طاف الصياد تلك الروضة بجميع آفاقها واستقرأ سائر انحائها وادغالها فلم يجد في ذلك الفردوس الارضي دابّاً حيوية واذ اطمأنّ تماماً قد رقدوا حيناً متمتعين بغطيطهم وذاقوا في نومهم لذة الراحة وولى عنهم مدبراً عسكر الهموم والبلايا العابرة

ولما كان الغد وهو السابع من شهر ايار اشرقت الشمس بانوارها الساطعة فلم تخترق كثيف الاشجار والآجام الملتفة التي تظللهم بظلها وقصد المسافرون الاستراحة في تلك الروضة منتظرين هبوب الريح الموافقة ولم يصدهم عن ذلك مانع اذ كان زادهم جزيلاً وافراً اما يوسف فنقل ادوات مطبخه الى تلك الخيمة وكان يشكّل طبخ الاطعمة ويبذر الماء بلا توفير ولا اكتراث

فقال الصياد : يا للعجب من هذا الفرح العجيب بعد ذلك الضيق وهذه الافراح بعد تلك الهموم والاتراح وهذا الريحان بعد ذلك المحول وهذا الغنى بعد ذلك الفقر فلله درّ من قال·

رأيت الدهر مختلفاً يدورُ فلا حزن يدوم ولا سرورُ

ولعمري لقد ناهزت افتقاد حياتي في تلك الساعة الهائلة

فقال فرغوسن : لولا يوسف لما كنت الآن تحدثنا على اختلاف احوال الدهر وانقلابها واقبال الدنيا وادبارها

فمدّ ديك يده الى يوسف وقال لـهُ . خليلي وصديقي لا شلت يداك الحسنتان

قال يوسف . لا يحمل الامر مثل هذا الشكران عليك ان ترد لي العوض اذا مست الحاجة الى ذلك غيرانهُ احبُ عليّ ألّا احتاج الى مثل تلك المعاونة

قال ورعوس . يا لضعف طبيعتنا وما اسهل انحطاطنا لامر طفيف

قال يوسف : أ لعلك مشير الى القليل من الماء الذي تلعب بدونه فهذا دليل الى ان الماء لمحضرٌ كلي الضرورة لحياة الانسان

قال ورعوس لا ريب في ذلك والذين يحرمون الأكل يحتملون عدمهُ اكثر من الذين يحرمون الشرب

قال يوسف . نعم هذا صحيح اذ انه عند الضرورة يأكل الانسان كل ما يصادفهُ حتى وشبههُ ولو كان ذا الطعام مما لا تحتملهُ المعدة بسهولة

قال الصياد . ان البرابرة لا يهتمون هذا الامر ولا يصعب عليهم

قال يوسف . أجل ولكن هم متوحشون وبرابرة وقد تعودوا اكل اللحم النيء فهذا مما تشمأز منهُ طبيعتي غاية الاشمئزاز

قال العلامة في الحقيقة ان هذا مما تنفر منهُ الطبيعة نفوراً شديداً ولهذا لما حمل الى اوربا السواح الذين دخلوا قلوب افريقية الاخبار عن بعض اقوام برابرة كانوا يقتاتون بلحم غير ناضج فلم يؤخذ كلامهم على محمل الصدق وفي مثل هذه الظروف وقع لخمس بروس حادث غريب ومضحك جداً

فقال يوسف وقد تمدد برماه على الحصرة البصة : احك لنا هذا الحادث ما . لنا . فقال لسمعهُ

قال ورعوس · سمعاً وطاعة اعلمــا وفقــكما المولى ان جمس بروس رحل اسكتلندي من اقليم استرليـك وقد طاف بلاد الحبشة كلها حتى وصل الى بحيرة تيانا قصداً في اســكتشاف عيون النيل وذلك من ســنة ١٧٦٨ الى سـنة ١٧٧٢

ثم رجع الى بلاد الانكليز ولم يُشهر فيها رحلاته الا سنة ١٧٩٠ فلم تتصدق اخباره عن اقوام تلك البلاد بل أُدخلت في طيّ الخرافات والخزعبلات وعلى الخصوص من حيث ان اخلاق الحبشة واطباعهم الغريبة تنافي الطباع الانكليزية وتختلف عنها اختلافاً عظيماً ومن جملة ما رواه جمس بروس ان شعوب افريقية الشرقية يأكلون لحماً غير ناضج

فهاجت هذه الرواية قوماً جزيلاً ولم يرتضِ احدٌ بان يصدقها ولما كان بروس على جانب من الشجاعة وحدة الطبع اغتاظ كثيراً من شك الناس في كلامه وفي ذات يوم كان رجل من بلاد وطنه جالساً في قاعة ادمدح فاخذ يبيد على سامعه اي سماع بروس المقالات بعينها التي اعتاد على المزاح بها اهل تلك المحلات ضحكاً على روايات بروس وصرح امامهُ بصوت عالٍ ان اكل اللحم النيء هو من المستحيل ولا يمكن تصديقهُ فلم يجاوبهُ بروس على كلامهِ بل خرج برهةً ورجع اليهِ بقطعة من اللحم الغير الناضج بعد ان غمسها بالملح والبهار على نسق الافريقيين ثم قال لهُ: سيدي لقد سببت لي اهانة عظيــمة وشتمتني باظهارك لي شكاً فيما رويتهُ وزعمك ان ذا من المحال فتأكيداً لصدق كلامي اجبرتك على اكل هذه القطعة اللحمية الغير الناضجة فاما انك تأكلها والّا . . . . . فخاف الانكليزي حينئذٍ واذعن لامر بروس ولما تناول قطعة اللحم كشر عن اسنانه دلالةً على اشمئزازه ونفوره · اما بروس فما زال محافظاً على استكانته ورزانته ثم قال · ولنفرض سيدي ان القصة التي نحن في صددها غير صادقة

في الآن وصاعداً اقلهُ لا عدت تقول انها من الامور المستحيلة

فقال يوسف نعم الجواب جواب بروس فلو كان اصاب ذلك الرجل نجمة من تساولهِ العجم اليهِ لكان قد نال جزاءهُ ولكن يا ترى اذا رجعنا الى بلادنا وشكَّ الناس في رحلتنا ....

قال فرغوس : فماذا تصنع حينئذٍ

قال يوسف : اني سأُطعم الذين يشكون في رحلتنا قطع المصورة بلا ملح ولا بهار

فضحك الرفيقان من المساط يوسف المزاحية وهكذا مرَّ النهار باحاديث لطيفة ثم عاد الهم الامل مع القوة ومع الامل الجرأة واخذ الماضي بالاضمحلال تجاه المستقبل بسرعة عجيبة

وقد عرت ليوسف السكنى في ذلك المأوى المطرب وودَّ لو انه لم يكن مضطرًا الى مجاوزتهِ اصلًا اذ اصبح لديه ذلك المكان كمملكة احلامه وطن نفسه انهُ مستقرٌّ في نفس بيتهِ . ثم طلب من سيدهِ ان يبينه عن موقعه وسطر في سجل سفرتهِ انهُ في الدرجة ١٣°١٥ طولًا و٣٢°٨ عرضاً . اما ديك فلم يجزن سوى على امر واحد وهو عدم تمكنه من الصيد في ذلك المكان وساءهُ خلو محطهم من بعض الحيوانات الكاسرة

فقال العلامة : كأنك يا عزيزي ديك نسيت حالًا ذلك الاسد وتلك اللبوة

فقال ديك بصوت الازدراء . هذا شيء لا يذكر ولكن في الواقع ان وجود ديك الوحشيين الذين اذقناهما كاس الموت مما يجعلنا نحس بقرب بلادٍ اكثر خصباً وريعاناً

قال فرغوس : ان برهانك يا ديك غير سديد لان هذه الحيوانات تجوز غالبًا مسافات شاسعة لتصورها من الجوع والعطش والاحذر بنا ان نكون على

حرص وحذر في الليلة المقبلة ونضرم النيران لئلا تدهمنا داهية

قال يوسف : وهل نضرم النيران لنزيد حرارة على الحرارة الحاصرة ومع ذلك فلا بأس من اضرامها وفاقاً لمرادك ولكني عند قطعي واحراقي تلك الاشجار البهية الخريئة النعم فلا بد لي من الشعور بتأسف باطن وتأسف

قال العلامة : حاشا لنا ان نحرق الغاب باسره فنحافظ عليه ما امكنا حتى اذا بلغه غيرنا يجد فيه ملجاء وسط الصحراء

قال يوسف - نعم القول ولكن هل تظن يا سيدي ان هذه الروضة عرفت من المسافرين

قال العلامة لا شك في ذلك لانها مثوى لقوافل المسافرين في اواسط افريقية فلو اتوها الان زائرين لما سررت الا ما قل حسبما يُرى لي

قال يوسف - وهل يوجد بعد في هذه الاقطار من اقوام بيام بيام البالغين في التوحش

قال العلامة : لا ريب فيه اذ ان هذا الاسم يعم جميع الاقوام الكائنين في هذه الاقاليم وجميعهم ذات عوائد متماثلة

قال يوسف : اعتز اعتز ومع ذلك فان هذا امرٌ طبيعي لانهُ لو كان اهل البدو على ذوق اهل الحضر فاين يكون الفرق بين كليهما مثلاً ان هؤلاء الاتام الافاضل اعني بهم البرابرة لا يقتضي لهم التوسل والترجي ليتلقفوا التطعمة الحمية التي اتلفها الاسكندي المذكور انفاً بل والاسكندي بعينهِ

وبعد ان قال يوسف هذا ذهب يورث النار لحراستهم في الليل لكنهُ لم يشعل الا قليلاً من الحطب وذهب ذلك الاحتياط هدراً اذ لم يقع شيء يكدر صافي رقادهم ويقلقهم ادنى قلق

وفي الغد لم يتغير الهواء بل استمرَّ على استكانتهِ وهدوءِ وما برحت القبة

الهوائية عديمة الحركة ولم تتذبذب اصلاً لتدل على ادنى سعة في الجو

فاخذ الهم يثقل قلب فرغوس من جرى تلك الحال لانها اذا طالت على ذلك المنوال فيبعد زادهم وبما كانوا سابقاً محتاجين الى الماء اصبحوا حالياً في غاية الاحتياج الى الطعام وذهبوا فريسة للجوع الكثير

لكنهُ نظر الى ميزان الهواء فرأى فيه انخفاضاً كثيراً فطار باله وهدأ روعهُ لان انخفاض الزيبق دليل واضح على تغيير قريب في الجو فعزم على ان يتأهب للرحيل ويصير منتهزاً الفرصة الاولى عند هبوب الريح . فملأ صندوق اذمار النار وصندوق ماء الشرب ثم اخذ يوازن القبة الهوائية فاضطر يوسف الى ان يبذل جانباً عظيماً من معدنهِ العالي القيمة ولولا الطمع عاوده مع عودة الصحة والقوة فتدلل كثيراً قبل ان اذعن لسيده . اما هذا اي فرغوس فبين لهُ انهُ لا يستطيع حملان ثقل عظيم وجعلهُ يختار ما بين الماء والذهب فلم يتم ان يوسف التي على الرمل كمية وافرة من حجارته العزيزة

ثم قال - هذه ذخيرة مسحورة لن يأتي غداً من المسافرين فانهم يندهشون عند ما يجدون كنزاً في مثل هذا المكان

قال الصياد واذا اتى عالم في الصدفة وعثر على هذه الحجارة المعدنية فاذا عساه يظن بها

قال العلامة : كن على يقين يا صديقي ان فحصهُ يكون عظيماً ولا بد من انه يشهر ذلك التعجب في صحف ومباومات عدة بكلام مطوّل جداً وسيأتي يوم نسمع بهِ عن مصادفة طبقة معدنية ذهبية في وسط رمال افريقية

قال ديك : ويكون يوسف سبب هذه الحادثة

فتبسم يوسف لهذا المقال وعزى فؤادهُ على ما فقده من المال الوفير اذ تصوّر في بالهِ انه يكون سبباً لانخداع احد العلماء وشحهِ كذا باوهامهِ الباطلة

ثم انتظر العلامة تغييراً في الهواء مروح الصدر فيما بقي من النهار لكنه خاب املا اذ اشتدت الحرارة ولولا ظل الاشجار لذاقوا حرّاً لا يُطاق ووصل الترمومتري الشمس الى درجة ١٤٩ انكليزية فكان اخيج الرمضاء يجري في الجو مجرى السيول وبلغت الحرارة اقصى درجة مما صادفه السواح في الصحراء

بعد ما جن الليل اقام يوسف سور الحصار كما في الامس ولما كان العلامة وكنادي ساهرين كلٌ منهما في وقت حراسته لم يحدث قط شيء جديد

ولكن لما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك ساهراً في دوره انخفضت الحرارة على البغتة وتجلببت السماء بجلباب السحاب والغيوم واحلولك الظلام

فصاح يوسف في الحال الى رفيقيه ايقاظاً لهما من الرقاد وقال لهما انهضا انهضا فقد انقلب الهواء

قال العلامة وهو ينظر الى السماء · حان حيناً الاوان عيرل هذه الزوبعة فلنسرع الى المنصورة مبادرين

فكان لا بد من الاسراع الى المنصورة لانها كانت مائلة لشدة الزوبعة وحرارة المركبة على الرمال فلو كان قد القي شيء مما حوته المركبة من الثقل لطارت القبة الى الجوّ وخيبت منهم كل امل في الطعن بها

اما يوسف النشيط فقد عدا عدو خيل السباق ووقف المركبة فيما كانت القبة منبسطة على الرمل وساعدت الاعراق ثم جلس العلاّمة في موضعه واضرم القصبة ورمى ما زاد عنده من الثقل

فالقى السواح نظرة اخيرة الى اشجار الواحة التي كانت تنثني من توالي

الروسة ردهموا متوازين في ظلّ ظلام الجوّ مع هبوب الريح الشرقيّة في علو مائتي قدم عن الارض

الفصل السابع والعشرون

في راي احد علماء الفرنسيس والمرور بمملكة ادامودا وجبال اتلنتيكا
وجبل سوة ومدينة يولا وجبل باجلة وجبل منديف

وبعد ما رحلت القبة اخذت تسير مسيرًا سريعًا جدًا وطالما قد تمنى السواح الابتعاد عن تلك الصحراء التي كادت تدفنهم في رمالها وتوليهم الويل والتعس

ولما كانت الساعة التاسعة وربع صباحًا شاهدوا حشيشًا يتمايل في تلك الرمال فاستدلوا بها على ان الارض قريبة منهم كما استدلّ على قرب الارض ذلك الرحال الشهير الذي اكتشف بلاد امريكا اعني بهِ خرستف كولمب وبصروا بنباتات خضراء تترنم بين الحصى المشيرة الى قرب الصخور والجبال وكانت قصيرة جدًا كأنها تخشى الظهور بازاء الرمال المحيطة بها

ثم رمقوا في الافق اشكالًا متموجة لكنهم لم يميزوا رسمها لما على قمتها من الغيم وعلى كل حال كان المطر الساقط ابدًا في الزوال والاضمحلال

فقرأ العلامة السلام على تلك الارض الجديدة وقلبهُ اذ ذاك مفعم فرحًا والتهابًا وكاد يصيح كالبحري الرقيب في السفينة هوذا الارض هوذا ارض

ثم مضت ساعة وتراءت تلك الاماكن لاعين العلامة بمنظر وحشي لكنها لم تكن متساوية السطح وجرداء كالاولى بل كان افق السماء البعيد ينقش بصورة بعض اشجار

فقال الصياد: قد وصلنا اذًا الى بلادٍ متمدنة

قال يوسف: ما هذا الكلام فانه بعيد عن الاصابة اذ لم نرَ حتى الان اهلًا لهذه البلاد

قال فرعوس - لا يطول بنا المجال حتى نرى سكاناً ان بقي سيرنا على ما هو عليه

فقال يوسف : سيدي هلاً نزال في بلاد السيد والسودان

قال فرعوس : بلى حتى نبلغ بلاد العرب

قال يوسف : أ لعلهم العرب العرباء اصحاب الابال

قال فرعوس : كلاً ليس من الابال في هذه الحال الا ما قلّ جداً واذا طلبتها وجدتها في الجهة الشمالية بدرجات

قال يوسف : قد ساءني هذا الخبر

قال فرعوس : ولماذا يا يوسف

قال يوسف : لو انقلبت الريح وصدتنا عن السير لكانت الابال تجليبا نعماً جزيلاً

قال العلامة : وكيف بعثنا

قال يوسف : سيدي قد طرقني فكرٌ وهو انا نقطرها في المرككبة فتجرنا ونحن فيها وما قولك يا سيدي

قال العلاّمة - قد طرق هذا الفكر غيرك قبل ان تأتي به فان احد علماء الفرنسيس اصحاب العقل والذكاء (١) الف حكاية وذكر فيها مركبة مقادة بجمال ثم وثب عليها اسد وافترسها واتلع معاً لحبال العصم الرابطها بالمركبة واخذ في جرّ المركبة وعلمّ جرّاً . الا يا ترى يا يوسف ان السفر على هذا النسق تخيل من الطراز الاول ولا مناسبة له مع نوع سيرنا

فلما رأى يوسف ان رأيه اتى لنا غيره قبله خجل واحتصم ولكنه اخذ يفتكر بحيوان يستطيع ان يفترس الاسد ولما لم يجد من له سطوة على سيد

(١) وهو العالم مبري

الهائم رجع ينظر الى البلاد ويتأمل هيئتها وشكلها وما تحويه من الغرائب مشاهد بحيرة ذات سعة وسطي وحولها آكام لا تستحق ان تُدعى جبالاً ورأى اودية كثيرة نضرة وفيها الاشجار المتنوعة الاجناس ملتفة بعضها ببعض وهناك الابلاس وهو جنس من النخل ذات اوراق عظيمة يبلغ طولها نحو خمسة عشر قدماً وساقها متسعرٌ بالاشواك الحادة والروائح الزكية تفوح من ذلك النبات المشهور عقدة العرب وهي متصاعدة الى طبقة الجوّ السائرون فيها السواح فتنتهم ولم تخلُ تلك الروضة البهية من شجر جوز السودان والنوّاب والموز وغلافها

فقال العلامة : وما احلى هذه الروضة الانيقة

قال يوسف هوذا الحيوانات فيها قليل نشاهد الناس

قال الصياد : كم هي جميلة تلك الغيئة هل ترى من المتمتع صيدها

قال فرغوسن : وما الحيلة لنقف يا خليلي ونحن مقذوفون بهذا المهب السريع الشديد دع عنك هذا المرام وامهل قليلاً فسوف تجازى على صبرك واحتمالك

وفي الحقيقة ان منظر تلك البهائم كان من شأنه ان يهيج الحيلة وقد احسّ ديك بوثب قلبه وتقلصت اصابعه وهي قابضة على السلاح

واما حيوانات ذلك الصقع فتضاهي ازهارها بهاء ورونقاً والثيران تترعرع في حشيش غليظ وتتوارى في خلالها لعلوها وكثافتها والفيلة الرمادية اللون والسوداء والصفراء ذات القامة الباسقة تمر مرور ام دومة في وسط الغابات والاحراش وهي تحطم وتقرض وتجلب الخراب والدمار حيثما سارت . ومجاري المياه تمرّ في انحدارها من اعلا الاكام المشجرة هابطة نحو الجهة الشمال وهناك مجاري الماء تغتسل وتنضح في اعتسالها وغيرها من البهائم ترى مصطبغة

على شواطئ البحيرة

وكان ذلك المكان عجيباً غريباً لما يأوي من الحيوانات الكثيرة المتنوعة الاجناس والطيور العديدة المحصي عددها وذات الالوان المشكلة وهي تحوم متلألئة فوق النباتات الباسقة والخضار الانيقة

فلما رأى العلاّمة مثل هذا الخصب وهذه النضارة الطبيعية علم ان هذه مملكة ادامونا

ثم قال ها نحن نسطو الآن على الاكتشافات الحديثة فاني اتبع مسعى السواح الذين سبقوني واسير في الطريق التي لم يطيقوا تكميلها فهذا من حسن حظي وان شاء المولى سنلحق عن قريب اكتشاف القبطانين برتون واسبيك باكتشافات العلامة برث . فهناك تركا الانكليزيين واتيا الى هنا لمصادفة الهمبرجي وعما قليل نصل الى آخر محطة وصل اليها هذا العالم الجسور

قال ديك يخال لي من المسافة التي جزناها انه يوجد بون عظيم بين الاماكن التي قصدها السواح المذكورون

قال العلامة . تعال نحسب هذه المسافة خذ الخارطة ونظر في اي طول هو راس البحيرة اوكاروه حيث وقف السائح اسبيك

قال ديك : انه واقع على التقريب في الدرجة السابعة والثلاثين طولاً

قال فرغوس : وما هو مركز مدينة يولا التي سنصل اليها ان شاء الله في نهاية النهار وقد بلغها برث الشجاع

قال ديك : مركزها في الدرجة الثانية عشرة طولاً

قال فرغوس : فاذاً الفرق هو خمس وعشرون درجة وكل درجة كناية عن ستين ميلاً فيكون اذاً الحاصل الف وخمسمائة ميل

قال يوسف: لعمري ان ذا مشقة جيلة لمن يودّ التنزه ماشياً

قال العلامة: لابد لنا من قطع مثل هذه المسافة فضلاً عن ليونكستون وغيره الذين لا يزالون مقيمين في قلب افريقيــة ولا تبعد بياسا التي اكتشفوها كثيراً عن بحيرة تنغانيكا المكتشفة من برتون ولا يعمي هذا الجيل الا ونعرف جميع هذه الاماكن. ثم نظر العلامة الى البوصلة وقال: ولكن ارى الريح تدفعنا كثيراً الى الجهة الغربية وكنت اودّ لو دفعتنا الى الشمال وعكس ما الحيلة

وبعـــد ان سارت المنصورة مدة اثنتي عشرة ساعة وصلت الى حدود بلاد اليكريسيــة اي السودان وسكان هذه البلاد الاولى من عرب الشول رعاة المواشي البادية. وفي الافق تراءت رؤوس جبال اتلنيكا الشاهقة التي لم تدسها بعد قدم رجل افرنجي ويقال ان علو تلك الذرى عن سطح البحر نحو سبعة آلاف وثمانمائة قدم

ثم تراءى لاعين السواح نهر حقيقي عرف العلامــة انه نهر سوه لوجود المنامل العظيمة المحيقة به وهو من اصباب نهر الجزر الكبيرة وقد دعاه الافريقيون مسح المياه

فقال العلامة لرفيقيه: سيأتي يوم يكون فيه هذا النهر سبيلاً طبيعياً لمد سلك الملاقات الى داخل اليكريسيـــة وتوالي سفينة انكليزية تحت رئاسة احد قباطنيّ المشهورين في الحذق والمهارة فتنزلة وتصل به الى مدينة يولا وعليه فلسنا تائهين في بلاد غير مجهولة

ثم شاهد السواح عبيداً كثيرين يعتنون بحراسة الحقول وزراعة الحبوب ولما كانت تمرّ فوقهم المنصورة كشهب الكواكب ترى الاندهاش مستولياً عليهم وبالتالي اقصاه واغربه ولما امسى رقبوا السواح بعيداً عن مدينة يولا بارسعين

الف ميل وامامهم كانت تقوم في الافق البعيد قنا جبل منديف للاذان

فامر العلامة بالقاء المراسي فتعلقت برأس صخرة سامية العلو عيران ريح شديدة الهبوب احدثت تلاطم القبة الهوائية حتى انهـا قد التمت وتلوّت وحصلت مرارًا في خطر عظيم لان تتمزق فما نام العلامة ليلته كلها الّا وهو في سهاد وكاد احيانًا يقطع حبال المراسي ليمر هاربًا من الروعة ثم بعدهُ هدأت الريح قليلًا ولم يعـد يخشى العلامة من تذبذب المصورة

وفي الغد كانت الريح اخف هبًا لكنها دفعت السواح عن مدينـة يولا وقد اشتاق العلامة لرؤيتها لانها قد بنيت حديثًا من الفلّان ولكن اذ لم يكن لهُ حيلة سوى الصبر سار مع هبوب الريح الى الجهة الشمالية مائلًا قليلًا الى الجهة الشرقية

فسأل ديك ان يحط برهةً في تلك البلاد الكثيرة الصيد ووافقـهُ يوسف على ذلك اذ قال انهم في احتيـاج كلي الى اكل اللحم الطري اما العلامة فلم يقد الى ميتها لانه يخشى تلك الاقوام البربرة ويرى القسـة مرشوقةً بسهامهم

وكانت تمتد تحت المصورة قرى وضيـاع كثيرة ذات اكواخ طويلة ما بين المروج المفتشة بزهور مصحية

وما انفككت الريح تدفع القبة الى جهة شمال الشرق رغمًا عمـا بذلهُ فرغوسن من المجهود لتسييرها فاخذوا يتقدمون الى جبل منديف المتوارى بين السحب والغيوم ورؤوس هذا الجبل الشامخة تفصل حوض النيجر من حوض بحيرة تشاد

ثم شاهدوا الجبل المعروف باسم باجله وفي جانبهِ اثنا عشر قرية متعلقة بهِ تحاكما اطلالا اصطفوا على حضن امهم وقد عظم هذا المنظر جالًا لاشراف

السواح عليه من العلو وكانت الخنادق تتراءى لهم مغطاة بالزروع المتنوعة الالوان

وبعد الساعة الثالثة بعد الظهر قابلت المنصورة جبل منديف وبما انه لم يتمكن العلامة من الحيدان عنه قد اخذ يهتم في مجازه فرفع حرارة القصبة الى مائة وثمانين درجة واذا بالقبة علت عن الارض اكثر من ثمانية الاف قدم وعندما كانت اعلى طبقة وصل اليها السواح في رحلتهم الجوية صدمها اعتراء البرد واضطروا الى ان يلتحفوا باغطيتهم خشية من المضرة ولكن لم يستقروا برهة هناك الا اخذوا بالنزول الى الارض بواسطة تخفيف حرارة القصبة وقد كادت تتمزق القبة لشدة تمددها والتماحها واستطاع مع ذلك العلامة ان يحقق كون اصل ذلك الجبل جبلا ناريا امست فوهاته المطفئة لججا قعيرة جدا

وفي الساعة الخامسة اطلت المنصورة من ريح الجنوب فنزلت في منحدر الجبل تزول الهوينا ثم وقفت في بقعة خالية من كل شجر وسط غاب وليس فيها ساكن اصلا ولما مست الارض مكنها يوسف لئلا تفلت هاربة وقفز ديك من المركبة وبارودته في يده وعدا في ذلك الفضاء المخصب ثم عاد سريعا بكمية وافرة من الحطب وجنس من دجاج الغاب فهيأها يوسف للطعام فاكلوا وشربوا بلذة وانشراح ورقدوا بسكون واطمئنان تامين

الفصل الثامن والعشرون

في مدينة مصصية وصعود احد المشايخ للقبة الهوائية والكلام عن السواح دمام وكلارتون وودي وموصل وما كان من الحمام الشاغله بذرا المرسلة من والي قرباق

ولما كان الغد وهو الحادي عشر من شهر ايار سارت المنصورة بهب الريح وكان السواح يثقون بها ثقة الوثقة بالسمية المتينة

ولم تكن ثقتهم بها خالية من الدعم اذ انهم كانوا قد ساروا مسافة عظيمة ونجوا من كل ما من شأنه ان يورطهم في لجج الاخطار والمهالك كالرمص والزوابع والمنازل والمطالع ويسوغ القول ان العلامة كان يقيدها كيفما شاء وكأنه بمجرد الاشارة . ومع انه لم يكن عارفًا ما هي البلدة التي تنتهي فيها رحلته لم يخشَ بتةً سوء العاقبة غير انهُ كان مشددًا حرصهُ وحذرهُ من الوقوع بايدي الاقوام الدائرة المتعصبين الخالين في تلك البلاد ويوعز الى رفيقيه ان يترقبا دوامًا كل طارق

ثم انحنت الريح تدفعهم قليلًا نحو الشمال ولما صارت الساعة التاسعة نصرا عن بعد مدينة مصصية الكبيرة المبنية على اكمة مرتفعة بين جبلين شاهقين في العلو وهي في مركز حصين جدًا اذ لا يُستطاع الدخول اليها الا من طريق ضيقة وقعت بين غاب وغدير

وفيما كانت المنصورة مارة فوق المدينة شاهد السواح شيخًا محمولًا فوق حيالة وهو متسربل بثياب ذات الوان باهرة وامامهُ مبوقون وقوم يُسرعون يزيحون الاغصان لئلا تعيق مسيره في الطريق

فنزل العلامة قليلًا ليتأمل هؤلاء الاقوام عن قرب ولكن كلما دنت منهم القبة الهوائية لاحت على وجوههم امارات الدهشة والهلع ولم تمض برهةٌ

الا اسدوا في العدو على قدر همة خيلهم

اما الشيخ فلبث وحده منتصباً قائماً ولم يتحرك من مكانه ثم اخذ قرابينهُ وذبحها وجعل ينتظر متفطرساً فدنا منهُ فرغوس الى نحو مائة وخمسين قدماً وقرأه السلام بالعربية

فعند ما سمع الشيخ هذا السلام العربي خرَّ ساجداً على الحضيض ولم يستطع العلامة ان يلهيهُ عن السجود

فقال العلامة : انهُ لمن المستحيل ان لا يعتبرنا هؤلاء الاقوام عترة خلائق فائقة الطبيعة حيث ان الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد قد حسبوا من نسل فائق الطبيعة البشرية واذا ما حدّث الشيخ الساجد لنا قومهُ وملائه عن هذه الصدفة الغريبة فلن يقصر عن تعظيمها وزخرفتها وتجود له القريحة العربية بتصوراتها المدهشة وهكذا يأتي يوم تحكي فيه الحكايات العربية عنا على اساليب شتى

قال الصياد : هذا مما لا يسر الخاطر لانا اذا زعمنا في عدد هؤلاء الاقوام فالاجدر بنا ان نعتبر عندهم اناساً وهذا من شأنه ان يجعلهم يخالون حسناً ماهية قوة التمدن الاوربي

قال فرغوس - سلمت معك في هذه القضية ولكن ما هي حيلتنا في ذلك فانك تتعب باطلاً اذا اردت ان تشرح لعلماء هذه البلاد عن آلات القباب الطيارة فلا يدركون كلامك ويصرون على زعمهم ان ما رأوهُ فائق الطبيعة

فقال يوسف : سيدي قد اشرت الى الافرنج الاولين الذين قدموا على هذه البلاد فهل تتكرَّم علينا بذكر اسمائهم

قال فرغوس : اعلم يا صديقي انا سائرون الآن في الطريق التي سلكها

الضابط دنهام وقد اقتتلَ سلطان سدارا في عين مصيبة كان بلي مملكة البرنو ولحق بفرد الشيخ على قبيلة الفلاحين وحصر هنالك محاصرة المدينة فلم تنفع موارد الشيخ اصلاً بل تبدد هو وجنوده بقي الفلاحين فانتهز هؤلاء فرصة النصر ليستلوا سيف الانتقام وجرحوا يقتلون اعداءهم وينهبونهم ويسلبون اموالهم وقد جردوا الضابط دنهام من اثوابه ولو لم يختبئ تحت بطن حصانه ويعدو به عدو خيل السباق لما رجع اصلاً الى مدينة كوكا عاصمة البرنو

قال يوسف: ومن ترى كان الضابط دنهام

قال فرعوس: كان انكليزيا ذا شجاعة وبسالة وقد طاف معه فرقة رحالة الافريقية من سنة ١٨٢٢ الى سنة ١٨٢٤ قاصداً مملكة البرنو وذلك بمعية القبطان كلابرتون والعلامة أودني ورحلوا من طرابلس الغرب في شهر اذار ووصلوا الى مورزوق قاعدة فزان وساروا في الطريق التي سلكها فيما بعد المعلم برث بعد ما قصد الرجوع الى اوربا ثم وصلوا الى كوكا بالقرب من بحيرة تشاد في ١٦ شباط سنة ١٨٢٣. وقد اكتشف دنهام اشياء كثيرة في مملكتي البرنو وسدارا وعلى شطوط البحيرة الشمالية وفي غضون ذلك اي في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الاول سنة ١٨٢٣ تقدم القبطان كلابرتون والعلامة أودني الى داخل السودان حتى بلغا صقاتو وقضى أودني نحبهُ في مدينة مُرمُر وهو عيان من التعب والضنا كله

قال ديك. قد ادَّت اذاً هذه البلاد الى العلم خراجاً جزيلاً بالضحايا العديدة التي قضت فيها

قال فرعوس. نعم يا خليلي فان هذه البلاد بلاد سوء والشؤم حالٌّ فيها فيها انما سائرون الان بخط مستقيم الى مملكة برغي التي قطعها فوجل سنة ١٨٠٦

قصد الدخول في مملكة واداي وهناك احتفى ولم يُعرَف له اثر وقد أُرسِل ذلك الشاب البالغ من العمر ثلاثة وعشرين سنة فقط ليساعد العلاّمة برث في اشغاله وقد تلاقيا معاً في الواحد من شهر كانون الاول سنة ١٨٥٤ ثم طفق فوجل يستقرئ عن تلك البلاد وفي سنة ١٨٥٦ ارسل كتباً وذكر فيها رغبته في الدخول الى مملكة واداي والبحث عنها حيث لم تدسها بعد قدم اوربية فالظاهر انه بلغ وارة عاصمة واداي فمن الناس من قال عنهُ انه أُسِر هناك ومنهم من قال انهُ قتل اذ حاول الصعود الى جبل مقدس . غير انه لايسوغ ان يسلم حالاً في موت المسافرين لان هذا يصدر عن ظلمهم فكثيراً ما شاعت الاخبار الرسمية عن وفاة العلامة برث فثبت انّ هذه الاشاعات حقاً وغماً . ومن الممكن اذاً ان يكون فوجل أُسِر عند سلطان واداي طمعاً في فديته . فعزم البارون دي نيمس على الذهاب الى واداي عاصمة المبينة في القاهرة سنة ١٨٥٥ واما الان فتوجهت جوقة سواح من ليبسيك ومنهم العلامة دي هكلين وقصدوا وجود اثر لفوجل وعن قريب يتضح لنا ما كان نصيب ذاك الشاب الشجيع(١)

ثم توارت مصيبة عن اصطدامهم وظهرت لهم بلاد مدارا الجزيرة الخصب والريحان ومنها غابات الأقاقيا والماش ذات الزهور الحمراء ونباتات القطن والنيل . وهناك تجري مياه نهر شاري المزبدة وهو لايصب الا في بحيرة تشاد عن بعد ثمانين ميلاً من ذلك المكان

فاخذ العلامة يدل رفيقيه على ذلك النهر في الخارطات الجغرافية المرسومة من المعلم برث

---

(١) من بعد ان تمت رحلة العلامة فرغوسن وردت الرسائل من المدينة وهي موجهة من مدحعر رئيس الجوقة الجديد ومنها اتضح الخبر المشؤم عن فاجعة فوجل هذه الدنيا

وقال لهما: رأيتما يا خليليَّ ان ابحاث هذا العالم الحاذق هي في غاية الدقة والضبط لاننا سنهبط مستقيم الى اقليم لغوم وربما الى قرية عاصمته وهنالك كان سياح احد الانكليزيين المدعو تول وهو بالغ من العمر نحو اثنتي وعشرين سنة فقط. وهنا كان قد لحق بالضابط دنهام في افريقية منذ بضع اسابيع فما لبث ان صادف فيها المنيــة. فتعساً وويلاً لهذه البلاد المشؤومة فانه حق يقال عنها انها مدفن الافرنج

فشــاهد السياح بعض القوارب تارة في مجرى نهر شاري وهي تبلغ من الطول نحو خمسين قدماً واذ كانت المنصورة عالية عن الارض نحو الف قدم لم تجذب اليها التفــات السودان. اما الريح فبعد ان كانت شديدة الهبوب اخذت تنقص وتخف شيئاً فشيئاً

فقال العلامة وهل ترى يصيبنا الزواق صنكا في ساق الرمان

قال يوسف لا بأس من ذلك اذ لا عدنا نخشى بعونه تعالى لا قلة المــاء ولا غول الصحراء

قال العلامة علينــا ان نخشى اقواماً برابرة فاقوا قساوة وفظاظة

قال يوسف: هوذا شبه مدينة

قال العلامة: انما هي مدينة قرناق واري ان النسيم يدفعنا اليها فاذا شئنا رسمنا هيئتها وحصونها

قال ديك: وهلاّ نقترب من الارض

قال العلامة: هذا امرٌ سهل لاننا نحن فوق المدينة دعني ارم قليلاً لولب القصة فلا نلبث ان نأخذ بالنزول

بعد مرور نصف ساعة وقفت المنصورة فوق المدينة على مائتي قدم

قال العلامة: انا اقرب الى المدينة من انسان واقف على قمة كنيسة

القديس بولس ويتفرج منها على مدينة لندرة يمكنا اذاً التطلع على حاضرها

قال ديك : اني اسمع صوت مطارق فما عساها تكون

فجعل يوسف يحدج بصره ويشدد نظره فرأى ان تلك الضجة صادرة من الحياكين الكثيرين الذين يطرقون نسيجهم الممدود على اوتاد طويلة وذلك في وسط الساحات

ورأوا عاصمة لندن كانها على سطح منبسط ويحق لها اسم مدينة لان بيوتها متساوية الصفوف وطرقها عريضة وكان سوق الصيد قائماً في ساحة فسيحة وسط المدينة وهنالك مشترون كثيرون لان العدات البحريات تُرغب كثيراً وتُباع بقيمة وافية

فبعد ما نصروا بالمنصورة اصابهم ما اصاب غيرهم قبلاً اذ انهم شرعوا اولاً بالصحيح ثم اتبع ذلك الصحيح سكوت الدهشة العظيمة وتركت الاشغال ووقفت وزال صوت المطارق اما السواح فما برحوا واقفين لا يتحركون وهم يتأملون اولئك الاقوام الكثيرين ثم نزلوا ايضاً نحو ستين قدماً

فخرج حينئذٍ والي بلاد لندن من مقرّه وهو حامل راية الخضراء ومعه اصحاب الموسيقى الذين كانوا يضربون في ابواق من قرون الجاموس ذات صوت أبح ثم اهاب به قومه وحاول العلامة ان يسمعهم صوته فلم يطق ذلك

وكان لذلك الشعب جبهة عالية وشعر متجعد وانف أقنى وهم متصفون بالعرفة ولا يخلون من الذكاء والفطنة ولكنهم مضطربون لظهور المنصورة . ثم تحقق السواح ان جنود الوالي اخذوا في الاحتشاد والتأهب لمحاربة عدو لم يسبق له مثيل اذ شاهدوا الخيالة يتسابقون في الخيل ويعدون الى انحاء شتى فنشر يوسف الرايات المشكلة الالوان فلم يحظَ بنتيجة البتة

ثم مضت فترة وطلب الشيخ الى قومه ان يبعثوا له بخطيب خطبة بالعربية

المروحة بلعة الهيدي فلم يفهم العلامة ولا كلمة واحدة لكنه علم بلمة الوماء العمومية ان الوالي يدعوه للذهاب دعاء صريحا . فود العلامة الذهاب ولكن لم توافقه الريح ولم يستطع الحراك من مكانه فاغتاظ الوالي من هذا الرسيح وأحد دعاوه ورجاله يمرون ويصحون ليحملوا الوحش الخوي على الاطلاق

في الحقيقة كان هؤلاء الزعماء مما يوجب الاستغراب والاعجاب فانهم متدثرون على جسدهم بخمسة او ستة قمصان ملونة وعلويهم لبعة كبرا اتساعا وشعها ترى كانها منسمة ومحض حشو . فقال العلامة لرفيقه ان هذه الهيئة واسطة عندهم لمراعاة السلطان والتحول في خاطره ودوار العقل مما يدل عندهم على الطمع . وكان هؤلاء الناس الفخام يتحركون ويومون بالايدي ويصرخون ويصحون وخصوصا واحد منهم كان صخما جدا فظن به انه وزير اول في تلك الولاية لان الضخامة كما قيل لها اعتبار عظيم في تلك الديار

وكان العبيد السود ايضا يصحون مع ارباب الحكومة ويتحركون كالمساجين وبالجملة كنت ترى نحوا من عشرة الاف ذراعا مرتفعة ومتحركة باضطراب للهوى

فلما رأوا ان حركاتهم لم تجد نفعا بل ذهبت هدرا وعدوهم راسخ لا يتأثر منها حملوا يتمسكون بوسائط اخرى فاصطف الجنود المتسلحون بالقوس والنشاب قاصدين رشق القبة بالسهام الآلات المصورة احدثت حالا بالارتفاع لئلا يصيبها ضرر من القسي فاخذ الوالي حينئذ قرابينة ووجهها نحو القبة الهوائية فلما رأه ديك مستعدا لاطلاقها وهو اذ ذاك يرصده رماه برصاصة فكسر السلاح بين يديه

فبعد هذه الضربة الغير المنتظرة اضطرب الكبار والصغار وتفرقوا طرائق وولوا الادبار هلعا ووجلا ودخل كل كوخه فمضى النهار باسره ولم يظهر احد

منهم البتة بل اصبحت المدينة خاوية خالية كالصحراء

ثم جن الظلام منسدل الليل ولم تهب الريح مطلقاً فاضطر العلامة الى ان يلبث قائماً بلا حركة فوق الارض علو ثلاثمائة قدم ولم يرَ ويرايسي ظلام الاصطراخ والبيوت بل كان السكوت المطلق مستولياً على المدينة كي بادية مقفرة فحسب العلامة من هذه التصبة فخاً يجب الحذر منه مضاعف انتباهه وسهره

وقد اصاب حق الاصابة في حدسه وسهره لانه ما انتصف الليل الّا ظهرت المدينة كأنها شعلة متأججة ناراً واصبحت الخطوط النارية تتصلب كالشبكة وكأنك بالمدينة قد لبست حلة النار وتشعت شعتها في الآفاق

فقال العلامة : هوذا امر غريب فيه العجب العجاب

قال ديك : ساعفي الله فكأني ارى الحريق يتصاعد الينا

وفي الحقيقة كانت تلك الحلة الملتهبة والمتأججة ناراً ترتفع نحو المصورة والاصوات المضجة مرتفعة معها والترانيمات تطلق في الجو فتأعب يوسف لان يلقي ثقلاً رغبة في الارتفاع وما مضت رهة الّا وهم فرغوسن واقفة الحال

فان هؤلاء الاقوام كانوا قد ارسلوا حماماً بعد ان علقوا في اذنابها مواداً مشتعلة فلما احست بالنار اخذت تطير هرباً منها وارتمت في الجو وهي تخط تلك الشعاب النارية . فجعل ديك يطلق الرصاص على قدم مكتسبه ولكن اعداءه كثيرون لا يحصون عدداً فكانت الحمام قد بلغت القبة واحاقت بها مشوهة جوانب المصورة كأنها في شبكة ملتهبة من جرا سطوع النور عليها

فما تمالك فرغوسن ان رمى قطعة معدنية ثقيلة وارتفع حالاً بسرعة فوق تلك الطيور الخطرة وقد حامت الحمام تحت اقدامهم نحو ساعتين من الزمان وهي

طائرة الى الفضاء مختلفة . ثم اخذت تخف وتنقص رويداً رويداً الى ان توارت عن البصر بالكلية واطفئت نارها

فقال العلامة : الان يمكنا الرقاد براحة

قال يوسف : ان هذا العسكر مدهش ويدل على حذق عند هؤلاء البرابرة

قال العلامة . ان كثيراً ما يستعملون الحمام لاحرق القش المغطاة به سقوف القرى واما قريتنا فطارت وعلت عن حمامهم

قال ديك حقاً ليس للقبائل الطيارة اعداء يتحصنون من مضرة اصحابهـا

قال العلامة : بلى يا صديقي

قال ديك : ومن عساهم يكونون

قال العلامة : اما هم اصحابها القليلو الفطنة الذين يركبونها ولهذا احثكما يا خليليَّ على التيقظ والفطنة فان الفطنة لا بد منها في كل امر

الفصل التاسع والعشرون

في الارتفاع في الليل والكلام عن نهر الشاري وبحيرة شاد ومدنها وعبور النهر واطلاق الرصاصة عليه عبثاً

ولما كانت الساعة الثالثة بعد نصف الليل ويوسف اذ ذاك قائم في حراسة رسمه رأى المدينة آخذة في الابتعاد عنه وسارت المصورة في الجو واستيقظ حينئذ العلامة والصياد معاً

فتطلع فرغوسن في البوصلة وعرف ان الريح تدفعه الى شمال الجهة الشرقية فطاب منه الخاطر

فقال ان نجم سعدنا مقبل معنا وقد نجحنا في كل مسعى وسنكتشف اليوم بحيرة شاد نفسها

فسأل ديك قائلاً وهل هذه البحيرة فسيحة كثيراً

قال فرغوسن انها عظيمة جداً يا صديقي ديك واذا قيست في طولها وعرضها الاكثرين بلغت مائة وعشرين ميلاً

قال ديك انا نغير المنظر بسيرنا فوق بساط مائع

قال فرغوسن ناهيك بالمناظر والمشاهد الكثيرة التي تراءت لاعيننا في رحلتنا هذه فليس لنا باعث للتشكي وعلى الخصوص من حيث اننا نبعد عن المخاطر الجسيمة

قال ديك نعم يا سيدي فرغوسن ما خلا انقطاعنا من الماء في قلب الصحراء فلولاه لما عددنا واقعة واحدة مخطرة في رحلتنا كلها

قال فرغوسن ان مصورتنا عافاها الله حافظت على متانتها ولم يطرأ عليها طارئ فها نحن الآن في اليوم الثاني عشر من شهر ايار وقد رحلنا في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان فيكون قد مشينا خمسة وعشرين يوماً وان

شاء المولى سنصل بعد عشرة ايام

قال ديك والى اين الوصول

قال فرغوسن الى حيثما شاء ربك ولكن هذا لا يهمنا كثيراً

قال الصياد اصبت فلندع العناية الربانية تماما الى حيث شاءت دمنا فين صحيحين كما نحن الان لعمري لايبقى علينا اننا عبرنا البلاد الاكثر وباء من العالم

قال فرغوسن . ولكن كان في استطاعتنا ان نرتفع الى العلو لنجو من وبائها وهذا ما عملناه

فصاح يوسف وقال . حيّ الله الاسفار الجوية فها انا سرنا في هذه الرحلة مدة خمسة وعشرين يوماً ونحن في صحة تامة وراحة وانشراح ولم يخلُ من الاطعمة الطيبة غير انها حرارة مهيّجة زائدة الحد ولذا احسن ان ساقيّ آخذتا في الخدر لقلة الحركة وحبذا لو مشيت مسافة ثلاثين ميلا لانتعش واتقوى

قال العلامة . مهلا ستعمل ذلك في ازقة لندرة . ثم اعلما يا صديقيّ اننا سافرنا ثلاثة كما سافر دنهام وكلابرتون واوفرويك وكما سافر ايضاً برث وريشردسون وفوجل ولنا نحن فلنا حظ وسعد اعظم اذ لم يفترق منا احد ويهمني ان تبقى ثلاثتنا سوية فلو لا سمح الله بذلك حدث مرة ان واحداً منا يكون على الارض واضطرت المنصورة الى الارتفاع تحرجاً من خطر فجائي غير منتظر فمن يعلم ان كنا نتمكن من الاجتماع عليه ولهذا اقول لديك بحرية تامة اني لا اود كثيراً في ان ينطلق الى الصيد خوفاً من مثل تلك الرزية

قال ديك : ولكن اؤمل ان تسمح لي بذلك لانه ينفعنا تجديد زاد اللحم فضلا عن ذلك قبل ان نسافر قلت لي ان البلاد الافريقية بلاد صيد

وفيها من كل ما يروق للخاطر وها قد جزنا اكثر الطريق ولم اصطد شيئاً ذات نصيبة

قال العلامة : الظاهر يا صاح انك نسيت ما فعلت او بالاحرى لا يدعك اتضاعك ان تتذكر ما اتيت من الاعمال المستحقة الذكر الجميل أليست ذمتك متقلة بفيل وفيل واسدين فضلاً عما صكت تصطاده للطعام في كل وجهة ولم يكن قليلاً

قال ديك : وهل يُحسب هذا للصياد الافريقي الذي يرى حيوانات الخليقة كلها تمر امامه مرور الطير والعصفور في بلاده

وهناك الآن سربة من الزرافي

قال يوسف : أظن ان هذه طرافي فاني اراها صغيرة لا تزيد حجماً عن قصة الكف

قال العلامة : ليس ذلك الا لاننا نبعد عنها الف ميل واما اذا دنوت منها شاهدتها تعلوك ثلاث مرار

قال ديك : وما قولك عن هذه الغزلان وتلك النعائم التي تجري جري الرياح

قال يوسف : وكيف تقول انها نعائم فاني لا اميزها قطعاً عن الدجاج اذ لا فرق بينها اصلاً

قال ديك : ألا يمكننا الاقتراب يا سيدي صموئيل

قال العلامة : نعم يمكننا الاقتراب ولكن لا نستطيع النزول الى الارض وفي الحالة هذه لا أرى لك نفعاً باطلاق الرصاص على هذه الحيوانات فلو اردت قتل سبع ام نمر ام ضبعة لامكنك ذلك محتملاً فانها من الحيوانات المضرة واما الغزلان والنعام فليس لك نفع من ذبحها انما يغريك على ذلك حبك بالصيد

بل فرط تولعك فيه ومع هذا فيا انا بدنو من الارض حتى لاانزلوها الا علو مائة قدم فاذا صادفت حيوانًا كاسرًا رميته برصاصةٍ في قلبه فيقر منك الخاطر

ثم اخذت المصورة في النزول رويدًا رويدًا ووقفت في العلو المومأ اليه لئلا تدعوها داعية لان اهل تلك البلاد كثيرون ومتوحشون ويخشى على المسافرين من خطرٍ فجائي

وما انفكَّ السواح طائرين فوق مجرى نهر شاري وسواحل هذا النهر منطاة من الاشجار المتسعة الاجناس ونباتات كثيرة ذات الوانٍ متنوعة . والتماسيح منها ما تخبط على الرمل ومنها ما تنغطس في المياه تغرق وتشره فيها وتتناهر بعد قليل شط الجزائر الخضراء القاطعة جريان النهر

وهكذا مرَّ السواح بمقاطعة مصاتاي بين الخصار والحجارة الطبيعية وبعد الساعة التاسعة صباحًا وصلوا الى شط بحيرة شاد الحولي وهذه البحيرة تشبه بحر قاف لانحصارها في اليابسة وانفصالها عن البحر المحيط وطالما قد أُدخل ذكرها في سلك الخرافات والحكايات التي لا اصل لها ولم يكتشف عليها سوى دنهام وبرث في رحلاتهما الافريقية

فحاول العلامة ان يأخذ رسمها الحالي المختلف كثيرًا عن رسمها للأخوين سنة ١٨١٧ وفي الحقيقة لا يمكن تسطير هيئة تلك البحيرة فانها محاطة ببطائح موحلة يشق عبرها وكاد برث يهلك فيها عند ما اراد ان يقطع احدها ولا تمضي سنة على سنةٍ حتى تصبح تلك البطائح المنطاة بالقصب ونبات البردي الطويل قسمًا من البحيرة نفسها وكثيرًا ما تعم المياه بعضًا من البلاد المبنية على ساحل البحيرة كما جرى في مدينة نغرنو سنة ١٨٥٦ فشاهدوا الدرالق اي حمار الماء تنغطس في المكان الذي قامت فيه قبلًا مساكن مملكة البرنو

وكانت الشمس ساطعة باشعتها المنيرة على تلك المياه الصافية الهادية اما

في الجهة الشمالية ويرى المصران مختلطين في افق واحد

ورغب ورغوس في ان يحقق طبيعة الماء الذي طالما قيل عنهُ انهُ مالح وحيث ليس خطر في الدنو من سطحهِ روهت الصورة فوقهُ كالطير وعلت عن البحيرة نحو خمسة اقدام فقط

ثم تناول يوسف انية ودلاَّها الى البحيرة فملأَها ماء ثم ذاقهُ العلامة ورأى انهُ لا يصلح كثيرًا للشرب ولهُ طعم يشبه طعم النطرون

فبينما كان ورغوس يسطر نتيجة اختباراتهِ وامتحاناتهِ قد دوت في الافاق طلقة الرصاص فان ديكسن كان قد شاهد نيئًا حسنًا فلم يطق اصطبارًا وسكان الدبيق في رواق تام فلما احس بدوي الرصاص ضرب في الماء وكانهُ لم يضطرب من رصاصة الصياد

قال يوسف . كان الاوفق لو مسكناه بخطاف

قال ديك . وما هو خطافا

قال يوسف . انما هو احدى مراسينا فانها كثيرة الموافقة لهذا الحيوان

قال ديك . في الحقيقة هذا رأيٌ .

قال ورغوس : هذا رأيٌ ارجوان لا تعدوهُ لانا لو مسكنا هذا الحيوان بمرساتنا لجرنا حيث لا يروق خاطرنا

قال يوسف . ما الله فانا علمنا الان كنه ماء البحيرة وكني . ولكن هل يوكل هذا السمك يا سيدي

قال العلامة . ان سمكك هو حيوان من جنس القيلة وقد قيل ان لحمهُ لذيذ ويتاجر به كثيرًا سكان سواحل هذه البحيرة

قال يوسف : آه لو اصاب صاحبي ديك في ضربتهِ

قال العلامة . لا يمكن جرح هذا الحيوان الأَّ في بطنهِ وبين القوادم فربما لم

تجرحهُ قط رصاصة الصياد ولكن اذا وافقني المكان فاني احطُّ على جهة البحيرة الشمالية فهناك منزل الوحوش وعلى ديك ان يعمل ما يشاء خاطرهُ

قال يوسف . اودُّ ان يصطاد ديك صيداً من هذه البرلق لاذوق لحمها فانهُ ليس من الصواب ان يدخل الانسان قلب افريقية ويعيش فيها مقتاتاً لحم دجاج الثعلب واجمال البرية كما في بلاد الانكليز

الفصل الثلثون

في عاصمة البرنو وظهور البواشق ومطاردتها المنصورة وما اظهر يوسف من الغيرة الخالصة عند احتراق غطاء القبة

وبعد وصول المنصورة الى بحيرة تشاد صادفت هواءً مائلاً الى الجهة الغربية وقد تجلببت السماء بغيم حجب حرارة النهار ولم تخلُ الريح من الهبوب فوق تلك المساحة الفسيحة المائية وبعد الساعة الواحدة قطعت المنصورة قسماً من البحيرة بخطٍ منحرف وتقدمت الى فوق الارض بمسافة ستة او ثمانية اميال

فساء العلامة اتجاهها نحو تلك الناحية ولكن لما شاهد مدينة كوكا الشهيرة وهي عاصمة مملكة البرنو قلب كدرهُ الى سرور فاخذ ينظر الى تلك المدينة المحاطة بجدرانٍ من تراب الفخار وبيوتها المبنية على شكل زهر القصب وجوامعها القليلة الاتقان واشجار النخل والصمغ المكللة بطلقٍ من الاوراق البالغة عرضاً أكثر من مئة قدم والنابتة بين البيوت وفي الساحات العمومية . فقال يوسف : ان تلك الظلال مناسبة جداً لتلك الحال نظراً لاشتداد حرارة الشمس فيها وخلص من ذلك بنتائج تشير الى حسن العناية الالهية

وكوكا مؤلفة من مدينتين متمايزتين الواحدة عن الاخرى وتفرقهما طريق واسعة جداً يبلغ عرضها نحو خمسمائة وثلاثين متراً وتعرف عندهم بالدندال وكانت وقتئذٍ غاصة بالخيالة والمشاة

ففي الجهة الواحدة ترى المدينة غنية ذات دور مرتفعة ومن الجهة الثانية ترى الفقر حالاً فيها وبيوتها لا تمتاز عن الأكواخ الحقيرة وسكانها فقراء جداً لان كوكا ليست مدينة تجارية ولا صناعية

وقد شبهها ديك بمدينة ادمبرج اذا امتدت في سهلة واسعة وانقسمت الى مدينتين متفرقتين الواحدة عن الاخرى

ولما كانت مهبات الرياح في تلك الناحية متقلبة جداً قد هبت ريح مخالفة دفعت المنصورة الى ما فوق بحيرة تشاد بعد ان سارت اربعين ميلاً فما كاد تمكن السواح من مشاهدة تلك المناظر

فتراءى لهم حينئذٍ مشهد جديد وهو جزائر البحيرة الكثيرة التي يسكنها البيدوماه وهم قرصان مشهورون يخشى منهم في تلك النواحي كما يخاف من النوارح في الصحراء

فتأهب هؤلاء القرصان لاستقبال المنصورة بالقسي والحجارة. اما المنصورة فارتفعت عن تلك الجزائر وحامت فوقها كجناح عظيم

في تلك الساعة ارشق يوسف طرفه الى جهة الافق ثم قال الى ديك: سيدي ديك انت الذي تحب بالصيد ليلاً ونهاراً هوذا ما يجب خاطرك ويقضي وطرك

قال ديك: وما هو يا يوسف

قال يوسف: اظن ان سيدي لا يكون هذه الدفعة من الخائبين لك في ضرب الرصاص

قال ديك. املك اذاً وما هو

قال يوسف: أترى في تلك الناحية البعيدة فرقة الطيور الجنسية المتجهة نحونا

فسأل العلامة منطرتهُ وقال ما عساها تكون هذه الطيور

قال ديك: بصرتها حصرتها فانها تبلغ اقلها يكون الاثني عشر

قال يوسف: اظنها بالغةً اربعة عشر

قال ديك: أسأل المولى ان تكون هذه الطيور من المؤذيات لئلا يجد فرجوسن حجةً عليّ ويمنعني عن ضربها بالرصاص

قال وغوسن . ليس لي اذ ذاك كلام اقوله لك انما اتمنى ان هذه الطيور تبتعد عنا بالكلية

قال يوسف . وهل تخاف منها

قال العلامة : انها رواشق من الجنس العسكري واذا وثبت علينا . . .

قال يوسف . فانا ندافع عن انفسنا لان الرصاص والبارود عندنا كثير جداً ولا اظن تلك الرواشق عجيبة جدا

قال العلامة . ومن يعلم ذلك

فما مضت عشر دقائق الّا اقتربت الفرقة من المنصورة عن بعد مسافة طلقة رصاص لكنها كانت تصيح وتعزّ بصوتٍ أجشّ ولا زالت تتقدم نحو المنصورة كأنها متاخمة منها ولم يعترها ادنى وجل ولا هلع

قال يوسف . ما هذا الصراخ والصيح ارى انهُ يسوّغها تسلطنا على ملاكها وطيرانها طيرها

قال ديك : في الحقيقة ان هيئتها مرعبة جدا واظن انها كانت ترمي الهول لو تسلحت بالقرابينة التي اخترعها وردي مور

قال العلامة كن على يقين انها ليست باحتياج الى تلك القرابينة

فاخذت الرواشق تطير وترسم في طيرانها دوائر متسعة جدًا ثم حامت بالقرب من المنصورة وكانت تخط السماء بسرعة طيرانها وتندفع اندفاع قلل المدافع وترجع الى الوراء رجوعًا بغتيًا

فتعاظم قلب فرغوسن القلق والاضطراب من هذه الطيور ولذا عزم على الارتفاع في الجو هربًا من حوازم المناوحطرًا

لما الرواشق فلم يطب خاطرها ان تترك القبة الهوائية بل تبعت اثرها الى الاعالي

فادرج الصياد سلاحهُ وقال. أرى انها تودّ مناطرتنا

وفي الحقيقة كانت تقترب من السواحل فيها ما دنا نحو خمسين قدماً وكأنها تستخف بأسلحة الصياد

فقال ديك اني ارغب كثيرًا في ان اضربها بالرصاص

قال العلامة. كلا يا ديك لا تورثنَّ نار غضبها وتهيجها بلا سبب فاننا نحشاها بالرصاص على مناطرتنا والوثوب علينا

قال ديك. ولكني لا اخطئُ في ضربي الرصاص

قال العلامة أظن ذلك يا ديك فانك في خطاء مبين

قال ديك عندنا لكل منها اكثر من رصاصة

قال العلامة. واذا لا سمح الله وثبت على جهة القبة العليا. فكيف يبلغ اليها رصاصك وأحسب انك امام فرقة من الاسود في البادية او عصابة كلاب بحرية في قلب المحيط فان مثل ذلك الخطر يضاهي خطرنا في الجو

قال ديك. أتتكلم بجدٍ

قال نعم يا ديك وبجدٍّ جادٍّ

قال ديك. وللحالة هذه فلننتظرنَّ برهةً

قال العلامة انتظر برهةً ولكن على اهبةٍ اذا وثبت علينا ولكن اياك ان تطلق رصاصةً قبل ان اطلعك امري

ثم احتشدت الطيور بالقرب من المصورة وكانت اذ ذاك مسلوحة الحنجرة من شدة صراخها وعرفها العصفور في مرتفع شعرٍ وعليهِ علوات ذات لون سمنجي ويبلغ طول جسمها اكثر من ثلاثة اقدام واجنحتها متلألئة من اسفل بأشعة الشمس المضيئة ولها مشابهة عظيمة مع الكلاب البحرية

فلما شاهدها العلامة تحفقت الى الاعالي قال اني اراها تتعقبنا ونحن

ارتعما الى شرفر فانها تعلو تعلوا كثيرًا

قال ديك . فما الحيلة اذًا وما العمل

فلبث العلامة صامتًا وما تفوّه ملفظةٍ

فاردف الصياد كلامهُ وقال : صحّ لي سمعًا يا سيدي جوثيل فان هذه الطيور تبلغ الاربعة عشر ونحن عندنا سبع عشر طلقة رصاص فاذا ضربناها بها هلاً تظن انا نذيقها كاس الموت ولك ان تعتمد عليّ بجانب منها

قال العلامة . لا ريب عندي في حذقك ومهارتك واؤكد لك ان الطيور التي تقع هدفًا لرصاصك تذهب فريسة الحِمام ولكن اقول لك مكررًا انها اذا وثبت على دائرة القبة العليا . فكيف يصيبها رصاصك وسلاحك والحال تبع هذا الغطاء الذي يحملنا فنهوى في هوة عميقة هوة للهلاك اذ انا بعيدون عن الارض مسافة ثلاثة آلاف قدمٍ

وفي تلك الفترة دنا احد هولاء الوائش الاكثر توحشًا ووثب على الصورة وكالبهُ ومنقاره اذ ذاك مفتوحة متأهبًا لان يمزّع القماش الحريري

فقال العلامة : النار النار يا ديك

فما فاه بهذا الكلام الّا أُصيب الناشق رصاصة الصياد وسقط وهو يدور في الجو

وقد كان الصياد اخذ البارودة ذات الطلقتين ومسك يوسف البارودة الثانية

فلما دوى صوت الرصاص حلّ قلب الطيور الرعدة والهلع وتنحت قليلًا ثم عادت بعد برهةٍ وامارات الغضب لائحة على اطوارها فرمى ديك في الحال الطير القريب برصاصة اصابت عنقهُ وضرب يوسف طيرًا ثانيًا فكسر له جناحيهِ

ثم قال : لم يبقَ منها سوى احدى عشر طيرًا

في الساعة والحال غيرت الطيور قيامها في حاجة السواح وارتفعت جميعها بانتعاقٍ واحدٍ الى ما فوق المصورة فنظر ديك الى فرغوسن ورأى وجههُ قد علاهُ الاصفرار رغماً عن حماستهِ وجرأتهِ وقلة اكتراثهِ بطوارق الحدثان واستولى على ثلاثتهم سكوت عميق مشوبٌ بالاضطراب والهلع ثم سمعوا صوت تمزيق اشبه بتمزيق القماش الحريري وفي الساعة هبطت مركبة السواح وكادت تفلت من تحت اقدامهم وتطرحهم ما بين السماء والارض

فنظر فرغوسن الى البارومتر ورآهُ يرتفع ارتفاعاً هائلاً فصاح صارخاً : القوا الثقل حالاً - القوهُ

في رمشة عين توارت الحجارة المعدنية الباقية في المركبة

قال - لا زلنا نسقط ونهوي . . ألقوا صناديق الماء ايضاً . . ألا تسمع يا يوسف . . . ها لنا واقعون في البحيرة

فاذعن يوسف لامر سيده ثم مال العلامة برأسهِ ورأى البحيرة كأنها آتية اليهِ وترتفع الى العلو وشاهد الاشياء قد تعظمت في عينيهِ ووصلت القبة الى مسافة مائتي قدم فوق سطح البحيرة

فصاح العلامة قائلاً : القيا الزاد ولا تتركا منهُ شيئاً

فرمى الرفيقان الزاد مع صندوقه

فخفت سرعة السقوط ولكن ما برحوا ساقطين دائماً وهم فوق البحيرة

فصاح العلامة صيحة اخيرة : ما بالكما لا ترميان ارميا ارميا

فقال ديك : ما بقي عندنا شيء

فقال يوسف بعجلة : بلى

قال هذا ورسم على ذاتهِ اشارة الصليب وغاب متوارياً عن المركبة الجوية

فصاح العلامة مرتاعاً . يوسف يوسف

فلم يستطع يوسف على سماعه . ولما خفّ ثقل المركبة انعكست عن الهبوط وارتفعت الى الاعالي نحو الف قدم وتهيأت الريح سطاء القبة المحروقة فدفعتها الى جهات البحيرة الشمالية

فقال الصياد ايضاً واسفاه عليه فانهُ وقع في حلة الهلاك وعدماه

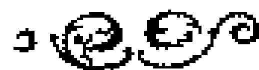
قال العلامة انما هلاكه وسيلة لنجاتنا يا ديك

ثم ادرت عيون هذين الباسلين دمعة سخينة لفراق خليلهما واشرفا على الارض ليجدا له اثراً فما وجدا لانهما ابتعدا كثيراً

فقال ديك ما حيلتنا الآن وماذا ترى نستطيع ان نصنعهُ

قال العلامة - مرادي ان احط في الارض باول فرصة تمكني من ذلك

وبعد ان سارت المنصورة مسافة ستين ميلاً نزلت في موضع قفر في شمالي البحيرة وعلقت المرامي في شجرة قليلة الارتفاع ثم حكمها الصياد تحكيماً فدخل الليل وحاول الرفيقان الرقاد فلم يقدرا على ذلك



الفصل الحادي والثلاثون

في طوف السواح واصلاح موازنة القبة الهوائية وحساب العلامة وصيد الصياد والاستقراء في بحيرة تشاد

ولما كان عند اليوم الثالث عشر من شهر ايار عرف السواح الجهة التي حلّوا فيها فكانت شبيهة بجزيرة قائمة في وسط بحيرة عظيمة وحول هذه اليابسة قصب كبير كاشجار اوربا يمتد على مدى النظر

وكان مركز المصورة اميناً لا يخشى عليها من خطر لان البحيرة صعبة المعبر وما لزمهم ان يتنبهوا الا للجهة الغربية فان الماء كان آخذاً بالانبساط خصوصاً في الجهة الشرقية ولا يُرى امامهُ ارض ولا جزيرة البتة

ولم يكن الرفيقان قد تجاسرا بعدُ على الحادثة عن حاليهم يوسف البائس فافتتح الصياد الحديث عنهُ واخذ يبث تحسباتهِ لرفيقهِ

فقال : على ظني ان يوسف لم يذق كأس الحِمام فانهُ شهم شجاع نبيه وعارف فن السباحة بل قليل المثال بهِ ولما عبر خليج ادمبرج لم يظهر عليهِ ادنى ارتباك ولا شيء من الاضطراب ولا بد من ان نعود نراهُ ولكن لا علم لي كيف ومتى يكون ذلك . امَّا نحن فعلينا ان نبذل الجد والجهد ولا نهمل واسطة تمكنهُ من الاجتماع علينا

فقال العلامة بصوتٍ شجيٍ : اجاب الله سؤالك يا ديك فاننا نعمل ما في وسعنا لنجدهُ فلنهتدِ اولاً على مركزنا ولكن قبل كل شيء يجب ان نقلع عن القبة هذا الغطاء الخارجي الذي ليس لهُ نفعٌ فان وزنهُ يبلغ مائة وثمانية ارطال فهذا لعمري ثقل جسيم نلقيهِ عنا

فابتدأ العلامة وديك بالعمل وفي اوّل الامر تصعّدا صعوبة كلية لانهُ لزمهما ان يقلعا القماش الحريري الصلب قطعةً قطعة وان يجزءاهُ شقفاً صغيرة ليخرجاهُ من بين خيطان الشبكة التي عليهِ وقد نظرا الى خرق الباشق في الغطاء فكان كبيراً جدًّا

وقد استمرا في العمل نحو اربع ساعات ولكن لما تجردت القبة الداخلية من هذا الغطاء العظيم باتت غير محسوسة وكانت وقتئذٍ المصورة قد خفت من حمل ثقلها فتعجب ديك كل العجب من هذا الفرق الباهظ

فسأل رفيقهُ العلامة قائلاً . هل يمكن لهذه القبة الصغيرة ان ترفعنا الى الجو

قال العلامة : يمكن على طمانية وراحة بال من هذا القبيل لاني اصلح الموازنة واذا عاودنا يوسف امساه معنا ورجعنا الى السير في طريقنا حسب العادة

قال ديك : اظن يا سيدي صموئيل اننا لم نكن بعيدين عن جزيرة وقت سقطتنا

قال العلامة . نعم وانا اذكر ذلك واظن ان هذه الجزيرة كانت جزائر بحيرة تشاد يسكنها نسل قرصان وقتلة ولا بدّ انهم دروا بكبتنا واذا وقع يوسف بين ايديهم فاذا عسى يحل فيهِ ان لم يخالجهم اعتقاد باطل يصدهم عن قتلهِ

قال ديك : اقول لك لانهُ ماهرٌ في جميع الحرف وانا واثق جدًّا بفطنتهِ وبلباقتهِ

قال العلامة : وانا ايضاً واثقٌ بهما واما الان يا ديك فاذهب واصطد لنا ما يكفي زادنا لانهُ قد فرغ من عندنا كل شي ولكن اياك ان تبعد كثيراً

قال ديك : على رأسي فلا اطيل عليك الغيبة

فأخذ ديك البارودة ذات الطلقتين وتقدم بين الحشيش المرتفع النابت في غابة ليست بعيدة ولما سمع العلاّمة بعد برهة تكرار دوي الرصاص تيقن ان صيده لا يخلو من ثمرة جيدة

وفي غضون ذلك اخذ العلامة ينظر الى ما بقي في المركبة وعزم على اصلاح موازنة القبة الصغيرة ورأى فيها نحو خمسة ارطال من اللحم المملح وقليلاً من الشاي والبن ونحو خمس ليترات من العرق وصندوق ماء فارغ

ولم يكن خافياً على العلامة ان خسارة الادروجين الذي انسرب من القبة الكبرى سبب لها نقصاً في قوتها الرافعة نحو تسعمائة ليبرة انكليزية . فاتخذ العلامة هذا الفرق اساساً له ليصلح الموازنة فان وسع المصورة الصغيرة سبعة وسبعين الف قدم مكعبة وهي تحوي ثلاثة وثلاثين الفاً واربعمائة وثمانين قدم غاز مكعبة ولما آلة امداد النار فما زالت غير ممسوسة وصحيحة البنيان وهكذا العسكرة والانبوب الذي على هيئة البرغي فانهُ لم يصبهما ضررٌ البتة

فعلمت اذاً قوة القبة الرافعة نحو ثلاثة الاف ليبرة انكليزية فاذا جُمع ثقل الالواح وزاد الماء والمركبة مع ضرورياتها وأُضيف الى ذلك نحو مائتين وخمسة وعشرين ليترًا من الماء ومائة ليبرة انكليزية من اللحم الرخص فيكون مجموع ذلك الفين وثمانمائة ليبرة وبالحالة هذه يمكنهُ ان يأخذ معهُ ثقلاً يبلغ وزنهُ مائة وسبعين ليبرة فيستعملهُ عند الحاجة وهكذا كانت القبة في موازنة تامة مع الهواء المحيط

ثم العلامة بالعمل هذا النظام واقام مقام وزن يوسف ثقلاً زائداً من الرمل وقد لبث منشغلاً الى ان ولى النهار بالادبار فعاد ديك الى رفيقه وقد صاد صيداً وافرًا من الاوز والبط البري ودجاج الغاب وغير ذلك فهيأها جميعها واعدها في النار بادخال قضيب رفيع في كل قطعة منها وتعليقها فوق حطب

الخصر مصروم بالنار وبعد ان تحمت بدرجة أعجبت خاطر ديك رفعها ووضعها في المركبة

وكان الصياد متأهبا لان يتمم المؤنة في الغد

ولما جن الليل على السائحين تمشيا خطا مخطوا وكمكا وشايا وبعد ان اتكلا جيداً من قبل التعب الساق استولى عليهما النعاس فناما وكان كلٌّ منهما سهرانا بالحراسة في دوره فكنت تراهما كأنهما يسألان الظلام متفحصين عن رفيقهما يوسف وكان يخال لهما احيانًا انهما يسمعان صوتهُ ولكن واحسرتاه على هذا الصوت الذي تمنيا استماعهُ فانهُ لم يطرق آذانهما حقيقةً

ولما سطعت اشعة الشمس المنيرة ايقظ العلامة رفيقه ديك وقال لهُ · لقد اطلت الفكرى في ما ينبغي علينا فعلهُ لنجاة رفيقنا

قال ديك · قل يا سيدي فاني قابل برأيك قبل ان اعلمهُ

قال العلامة من الضرورة ان نطلع يوسف على اثر من احوالنا

قال ديك لا بُدَّ من ذلك لانهُ اذا تصورانا تركناه فيستولي عليه اليأس والقنوط

قال العلامة: لا تظن مثل ذلك الظن فان يوسف يعرفنا حق المعرفة ومن المحال ان يطرقهُ فكر كهذا · غير انهُ يقتضي ان يعرف مكاننا ومقرنا

قال ديك: وكيف العمل

قال العلامة انا نزمعون ان نجلس في المركبة ونرتفع الى العلا

قال ديك · وعسى ان الريح تدفعنا الى ما ابعد فما حيلتنا حينئذٍ

قال العلامة · ان الريح لا تدفعنا الى حيث لا نشأ تأمل جهها الحالي فانها تدفعنا الى فوق البحيرة وهذا ما رغبة الان ويوافقنا ويسهل علينا في ان نستمر فوق هذا البساط المائي طول النهار فلا شكَّ في ان يوسف ينظر

اليها حيث ان عينيه متجهتان دائماً الى العلو وربما يجد ايضاً وسيلة ليدلنا على مقره

قال ديك · اذا كان مقيماً وحده فانهُ يأنا لا محالة

قال العلامة : ولنفرض انهُ أحد أسيرًا من عادة هؤلاء الاقوام ان يحبسوا المأسورين في الاماكن المجاورة وعليهِ فانهُ يشاهدنا وبينهم غاية تفتيشنا

قال ديك · ولكن فلنظر الى سائر الاحوال ولنفرض اننا ما وجدنا له اثرًا ولا وجد هو منا دليلاً فترى ماذا نصنع

قال العلامة انا نبذل جهدنا في ان نصل الى جهة البحيرة الشمالية ونلبث منتظرين على قدر استطاعتنا وهنالك ننتظر ونستقري السواحل والشواطئ فلا بدَّ ان يوسف يجدُّ في الطلوع الى احداها ولا نترك تلك المحلات الا من بعد جهدٍ كلي بسلهٔ حباً بهِ

قال الصياد · هيا بنا اذاً على الرحيل

فنظر العلامة مركز اليابسة التي ارمع ان يرحل منها فكانت بموجب رسومهِ في شمالي بحيرة شاد بين مدينة لاري وقرية أنجيمي اللتين زارهما القائد دنهام وفي خلال ذلك اكل الصياد مصيدتهُ ولم يصادف في طريقهِ شيئًا من الوحوش الضارية التي تكثر في تلك البطائح

ولما كانت الساعة السابعة صباحاً نُشلت المرساة من الشجرة بتعب جزيل مع ان يوسف كان يرصها دائماً بلا اعياء · ثم انتشر الغاز وارتفعت المصورة الجسدية الى علو مائتي قدم عن الارض ففي اوَّل الامر اضطربت قليلاً ودارت على ذاتها لكنها دُفعت من ثمَّ بهبوب شديد وتقدمت الى فوق البحيرة وهي تسير مسافة عشرين ميلاً في الساعة

فابرح العلامة واقفاً فوق البحيرة بعلو مائتين الى خمسمائة قدم وذلك

يفزع احياناً قرابينة وكانا يأخذان بالوطوء فوق الجزائر ويقتربان كثيراً من الارض بل يخاطران بنفسيهما ويستفرغان ناظريهما في الآكام والادغال وفي كل نقطة او صخرة كان يمكن ان يختبئ بها رفيقهما نزلا مرارًا الى قرب القوارب الموجودة في البحيرة. وبعد ما كان يبصر الصيادون بالقبة الهوائية كنت تراهم يبادرون الى التغطس بالماء ويسبحون حتى يصلوا الى جزيرتهم وامارات الفزع والهلع لائحة على اطوارهم وهيئاتهم

وبعد ان استقرأوا مدة ساعتين قال ديك: ما وجدنا شيئًا

قال العلامة: مهلًا يا ديك ولا تقطع الرجاء بعد الان فلنا لسنا ببعيدين عن مقرّ الحادثة

وعند الساعة الحادية عشرة تقدمت المنصورة تسعين ميلًا ومن ثمّ صادفت مهبًا دفعها الى الجهة الشرقية بمسافة ستين ميلًا وحامت وقتئذٍ فوق جزيرة متسعة كثيرة السكان حسبها العلامة جزيرة فرّام حيث توجد عاصمة البيديوماه وبعد كل لجة كان يرجو فرغوسن ان يسمع صوت يوسف يناديه فقال في نفسه عساهُ حرًا لم تأسرهُ البرابرة فانا نخشى بلا تعب ولا اعياء وهب انهُ اسير فسيفعل بشأنه ما فعلهُ بذلك المرسل العازاري وهكذا يعود الينا بالسلامة

ولكن لم يسمعا صوتًا ولم يشاهدا له اثرًا فكان ذلك مما يوجب اليأس والقنوط

وفي الساعة الثانية ونصف بعد الظهر وصلت المنصورة الى قبالة قرية تنغاليا الكائنة على جانب شاد الشرقي وهي النقطة الاخيرة التي بلغ اليها القائد دنهام وقت دخوله في جوف افريقية

فتملك قلب فرغوسن القلق والاضطراب من جرى تداوم اتجاه الريح لانهُ

رأى انها دافعة الى الجهة الشرقية حيث مركز افريقية والقفار والبوادي التي لا نهاية لها ولا مناص منها

فقال فرغسن لرفيقهِ ديك . لا بُدَّ من الوقوف هنا والنزول الى الارض ويبقى لنا الرجوع الى البحيرة حبًّا بصالح رفيقنا يوسف وقبل كل شيء . فصعد بها مخالفًا للمهبّ الخالي

فلبث مدة ساعة وهو ينتقل من طبقةٍ الى طبقةٍ في الجوّ وما انفكت المصورة منعرجة الى الارض ولكن على علوّ الف قدم صدمت ريحًا شديدة دفعتها الى شمالي الغرب

ولما عاد العلامة ورأى شاطئ البحيرة الشمالي أخذ يظن في نفسهِ ان يوسف ليس بموجود اصلًا في جزيرة من جزائر البحيرة والّا لقد كان اظهر ذاتهُ لرفيقيهِ بأي واسطةٍ كانت ثم قال عسى ان الافريقيين ذهبوا بهِ الى البر

ولم يخطر قط ببال الرفيقين ان يوسف ذهب فريسة الغرق لانهُ ماهرٌ في فن السباحة ولكن ما طرقهما تصوُّر هائل وهو ان التماسيح كثيرة الوجود في تلك النواحي وقد اعترى هذا الفكر خاطر كليهما ولكن لم يتجاسر احدهما ان يكاشف بهِ الآخر بل انهُ دهمهما غمًّا حتى ان العلامة ما تماسك ان قال بدون ديباجة لا تلبث التماسيح الّا على شواطئ الجزائر او البحيرة وليوسف فطنة كافية تحميها وهي ايضًا قليلة الخطر لان اهل ذلك البلد يسبحون في الماء ولا يخافون من وثباتها

فما فاه ديك بجواب بل آثر السكوت على المناقشة بهذا الامر المكدر

وعند الساعة الخامسة مساء اشار العلامة الى قرب مدينة لاري ولما وصلا اليها شاهدا سكانها مشتغلين في حصاد الاقطان امام اكواخهم المبنية من القصب المجدول وسط حظائر طينية ومنتظمة وكان مجموع تلك الاكواخ

البالغة نحو الخمسين واقفاً في ارض منخفضة في وادٍ متسع قائم بين جبال واطية . ودفعت الريح لشدتها مصورة السوّاح اكثر مما كان يرغب فيه العلامة ولكن لم تدم على ذلك الحال بل انقلبت مرةً ثانية وارجعته الى مركز سفره اي الموضع الذي قضى فيه ليلتهُ السالفة ثم تعلقت المرساة في ردم من القصب القائم هناك بكثرة عظيمة اذ لم تُصادف شجرة تتمسك باغصانها

ثم كابد العلامة صعوبة كلية لتهدئة المصورة من شدة الريح لعكسها خمدت بدخول الليل وسهر الرفيقان كلاهما وهما مكبلان بقيود القنوط

الفصل الثاني والثلاثون

في الزوبعة الشديدة وما اشتمل به الرفيقان من الفكرة المكدرة وهبوب الريح المضادة والموافقة والرجوع الى الجنوب

وبعد الساعة الثالثة صباحاً هبت ريح شديدة شبه العاصفة وكادت المصورة تهوي الى الارض من ثقلها بايدي تلك الريح والقصب الذي حولها يتمايل ويهدد القبة بالتمزيق

فقال العلامة . هيا بنا على الرحيل يا ايها الخليل لان حالتنا لا توافقنا

فقال ديك ويوسف هل نتركه

قال العلامة . معاذ الله تعالى ان اتركه او انساه ولو دفعتني العاصفة الى مئة ميل في الشمال فاني اعود اليه ولكن هنا خطر علينا جميعاً

فصاح الصياد بصوت الكآبة والتياع الفؤاد وقال : كيف نرحل بدونه

قال العلامة . أظن يا ديك ان فؤادي ليس بمجروح مثل فؤادك على فراقه ولكن هلاَّ تضطرنا الضرورة القصوى الى الرحيل من هنا

فقال الصياد : ها انا بين يديك فلنرحل اذاً

ولكن حال دون ارتحالها صعوبة جزيلة لان المرساة كانت مشتبكة اشتباكاً شديداً ولم يستطع الصياد على اقتلاعها فكانت الريح تدفع القبة وتقلبها على وجه مخالف واضحى حال ديك في خطر مبين لانهُ خاف ان تفلت المرساة بمشئة عين وترحل القبة الى المواطن الجوية قبل ان يبلغ اليها

فلم يرغب العلامة في ان يعرض رفيقهُ لهذا الخطر بل ادخل الصياد الى المركبة وصمم على قطع حبل المرساة وبعد ما قطعها طفرت المصورة طفرة هائلة الى العلاء وبعدت عن الارض نحو ثلاثمائة قدم وسارت نحو الشمال على الخط المستقيم

فانقاد فرغوسن لتلك الروعة وكتّف ذراعيه على صدره وهو في المركبة غارقًا في بحر من الافكار المحزنة

وبعد سكوتٍ برهةً التفت الى رفيقهِ ديك وقال · انا لربما جرنا المولى لانه لم يُعطَ للانسان ان يرحل بمثل هذا الرحيل

قال هذا وتنفس الصعداء من قلب جريح

قال الصياد · لقد هنأنا بعضنا البعض من برهة بعض الايام لتخلصنا من الاخطار والويلات الكثيرة في رحلتنا الافريقية · هل ترى نقض الان المقال

فصاح العلامة قائلًا : وا اسفاهُ على يوسف النفيس ذلك الشهم الكريم المجبول باللطف والمروّة ذي الطبع السليم الريان من صفاء المكارم والفتوّة · فانهُ بعد ما أُخذ عقلهُ بالثروة والغنى من الكنوز النفيسة فما تماسك ان صفعها جميعها جهودًا هو الان بعيدٌ منا والريح تدفعنا بسرعةٍ لا حدّ لها وتقصينا عنهُ

قال ديك · ولكن فلنفرض سيدي فرغوسن ان يوسف التجأ الى احدى القبائل الكائنة في بحيرة تشاد اما تراه يتمكن من الرجوع الى بلاده كما عاد دنهام وبرث الى الاوطان

قال العلامة · ولكن يا صاحبي ديك ألا تعلم ان يوسف يجهل لغة هؤلاء الاقوام ولا يعرف كلمة واحدة منها وهو وحدهُ لا رفيق لهُ ولا حيلة · واعلم ان السواح الذين تكلمت عنهم كانوا قبل ان يتقدموا في البلاد يرسلون الهدايا العظام الى رؤساء الاقوام ومعهم ايضًا فرقة من الجنود الشاكين بالسلاح المتعدين لهذه الرحلات ومع كل ذلك كان لابدّ لهم من احتمال العذابات والمشقات باسواء حال · فماذا ترى اذًا يحل برفيقنا المسكين فان هذا

الفكر يقاتلني ويؤلمني ولم في حياتي قط لم اتكبد حزناً اشدّ مرارة

قال ديك : ولكن سنرجع اليهِ سيدي صموئيل

قال العلامة : انا سنرجع ولو الجأتنا الاحوال الى ترك المنصورة او العودة الى بحيرة شاد راجلين بل الى فتح المخابرات مع سلطان البرنو . فاني لا اظن ان العرب عندهم سوء ذكرى عن الاوربيين الاولين

فاجاب الصياد بعزم وحماسة القلب : وسأتبعك الى حيث سرتَ فلك ان تعتمد عليّ واذا لزم الامر أبينا تتميم سفرتنا وكما ان يوسف اطهر خلوصه نحونا واوقع نفسه في المهلكة حباً بنا فاننا نضحي ذواتنا لاجلهِ

فاحيا هذا الكلام روح الشجاعة والشهامة في قلب السائحين وشعرا انهما متشددان بالفكر نفسهِ ثم عمل العلامة ان يلتق مهباً مخالفاً يقربه من بحيرة شاد وبذل جهده في ذلك غير انهُ قد تعسر عليهِ حتى النزول الى تلك الاراضي لكون الزوبعة ما زالت شديدة الهبوب

وهكذا مرّت المنصورة باقليم تيبوس وطارت قفراً ذات اشواك يُعرف ببلد الجريد وهو على تخوم بلاد السودان ثم دخلت بادية الرمال المخططة باثار القوافل فشاهدوا الروضة التي في تخوم البادية مكسية بالخضار وفيها اثار كثيرة تحتاط بها الاشجار الجميلة وهي اعظم روضة في البلاد الافريقية . لكنهم لم يستطيعوا الوقوف فيها ولكن لم يخل النظر من قوم عربان وبعض الخيم والابال المادة رؤوسها فوق الرمال شبه رؤوس الافاعي . فمرّت المنصورة فوقها كنجم حار وهكذا طافت مسافة ستين ميلاً برهة ثلاث ساعات وفي تلك المدة كلها ما استطاع فرغوس ان يقمع القبة الهوائية في مسيرها

فقال حينئذٍ : ما هذه الحالة التي نحن فيها فانا لا نستطيع الوقوف ولا النزول اذ ليس شجرة ولا صخرة نلقي عليها مرساتنا فهل يا ترى انرمنا ان

تجوز الصحراء من اقصائها الى اقصائها هي الحقيقة ان المولى سبحانه وتعالى يعارضنا في سبيل مانأتي

وفيما كان يتفوه بهذا الكلام وامارات الغيظ واليأس مستولية على محياه اذا لاح له من الشمال ان رأى رمال البادية ثائرة في وسط غبار كثيف وهي تدور محركة من الهبات المتضادة المشتبكة في الجو

وكان في وسط تلك الزوبعة قافلة بكاملها مبتلعة من وثوب تلك الرمال الطيارة وقد تبددت شذر مذر اذ لعبت بها ايدي الرياح فكنت تسمع حينئذٍ أطيط الابال وحنينها وتأوه الناس وصراخ يأسهم وانقطاع قلبهم وتارة كان يطير عنهم ثوب مشكل الالوان ويحوم مع الرمال وفوق هذا جميعه كان عصف الزوبعة يشبه قصيف الرعد بالهدير والضجيج

وبعد ذلك اخذت الرمال في التكدس بعضها فوق بعض وتألفت منها اكوام وربوات بحيث كانت السهلة الممتدة كالبساط قامت علوة فوق القافلة بمثابة رمس لها

فتأمل الرفيقان هذا المشهد المرعب ووجههما مكلل بالاصفرار وما عاد في مكنتهما ان يبوسا القبة الهوائية الدائرة في وسط مجاري الرياح المتضادة حتى لم يعد يعنيهما انتشار الغبار وامتداده واذ وقعت في شباك تلك الهوائية اخذت ترتجف وتسرع في مسيرهـا وتشبث تئدنا هائلا وحملت الالات الموضوعة في المركبة تتلاطم بعضها بعضاً حتى كادت تتحطم ومالت الانابيب حتى اوشكت الانقطاع وصارت صناديق الماء تتناقل من مكانها بخفة وحركة شديدة وتعسر على السائحين ان يسمع الواحد صوت الاخر مع انهما غير مفترقين بعضهما عن بعض مسافة قدمين وكان كلٌّ منهما متمسكاً بالحبال ومحاولا ان يمكث ثابتاً دفعاً عن هياج الزوبعة

وكان شمر الصياد معثرًا وهو ينظر الى الرياح صامتًا ساكتًا . واما العلامة فحول هيئتــه الى الحسارة والحواءة حسب عادته عند ما المت به الاخطــار ولم تلح على وجهه امارات الاضطراب الشديد بل كان في رونق تام ولم يضطرب ايضًا عند ما وقفت المنصورة محاذاةً في الطبقــات الجوية بعد ان دارت على ذاتهــا دورة اخيرة ثم علت ريح الشمال وطفرت بجميع الرياح وعكست سير المنصورة وذلك بسرعة زائدة كما جرى في الصباح

فصاح ديك قائلًا : والى اين نحنُ ذاهبون

فقال العلامة . دع العناية الالهيــة تعمل بنا ما تشاء فاني قد احتلّت بعدم اتكالي عليها وهي عارفة بما يوافقنا اكثرمنا وها نحن راجعون الى الاماكن التي اتيــنا من العودة اليها

ولما الطريق التي سارت فيها المنصورة فاختلفت قليلًا عن الطريق التي اتوا بها صباحًا ولذا شاهد السائحان في خلال الساعة التاسعــة فسيح البادية عوضًا عن مشاهدة سواحل بحيرة تشاد

فاشار ديك الى العلامة بهذا الامر

فقال العلامة . هذا لا يهمنا كثيرًا ويكفينا ان نرجع الى الجنوب فاننــا نصادف هناك مداين البرنو ودية وكوكا ونحط فيها لا محالة

فقال ديك حيث انت راضٍ عما نحن عليه ومنشرح الخاطر فانا على ما انت عليه ولكنني ارجو المولى ان لا يدعنا نطوف الهواء فيحلُّ بنا ما حلَّ باولئك الاعراب التعيسي الحظ وفي الحقيقة ان ذلك المنظر اثَّر فيَّ وارعب مني الفؤاد

قال العلامة ان هذا الامر كثير الحدوث فان اخطار التطواف في القفار يضاهي اخطار السفر في القفار لان البادية تتناول جميع اخطار البحر حتى والابتلاع

مسة وزد على ذلك ان البادية فيها اتعابٌ ومشقات لا يُطاق احتمالها والصلد لهسا

قال كادي : ارى الريح مائلة الى الهدوء والاستكانة فاني اشاهد عثرة الرمال تحت كثافةً وتوجها يقلْ والافق يأخذ في الانجلاء من غشاوته

قال العلامة : حسناً تفعل الريح بهدئها فعلينا ان نفحص الافق لئلا تفوتنا نقطة واحدة لا ننظر اليها

قال ديك : دع هذا الامر عليَّ فاني انبئك حالاً عند ما اصادف اول شجرة

قال هذا واخذ المنظرة وجلس في مقدم المركبة

الفصل الثالث والثلاثون

في قصة يوسف وما كان من عبادة الافريقيين له ووصوله الى ارباب الصحراء
وسفره راحلاً ومكابدته المشقة والتعب والجوع ومرور المصورة وارتفاعها
ويأسهِ وصراخهِ الاخير

فماذا يا ترى قد اصاب يوسف في غضون تفتيش العلامة عليهِ وتكبدهِ التعب الباطل حباً بهِ

فاعلم وفقك الله ان يوسف في سقوطهِ في البحيرة اول ما بدا منهُ كان انهُ طلع الى العلاء ورأى المصورة قد سمت عن البحيرة وعلت بسرعة الى الجو ثم غابت عن عينيهِ باتجاهها الى جهة الشمال فايقن حينئذٍ ان سيدهُ وصاحبهُ ذلك فازا بالنجاة

ثم قال في نفسهِ : انهُ ضرب من السعادة والحظ ما طرقني من الفكر لان ارمي بنفسي في البحيرة فداء لرفيقيَّ لانهُ ربما كان طرق هذا الفكر صاحبي ذلك الصياد طرحيل نفسهِ لما كان تماسك قط عن تتميمهِ بالعمل . ولامرّ صوابي هو ان يبذل انسان نفسهُ رغبة في نجاة اثنين اذ يتفضل الاثنان على الواحد في كل حساب

ولما اطمأنَّ خاطره من هذا القبيل لم يهتمّ بامر نفسهِ فانه كان ملقيًا وسط بحيرة عظيمة جداً وحولها اقوام يجهلهم بالكلية وربما هم من البرابرة المتوحشين لكنهُ قال في ذاتهِ . ان ارتمائي من هنا والمسكوى بهِ قبل اوانهِ لا يجديني نفعاً بل من الواجب عليَّ ان اضاعف جهدي وحذري لاتخلص من حالتي والّا كنت انا الخاسر

وكان قد لمح جزيرة في الافق قبل ان تحمل الطيور الجوارح على القبة وقد زعم يوسف ان تلك البواشق تصرفت تصرفاً لان شراستها المألوفة . فعزم اذًا

على الذهاب الى تلك الجزيرة واستعان بجميع معارفهِ في فن السباحة بعد ان جرّد نفسهُ من الثياب التي تربكهُ. وكانت سعة ستة اميال في البحر لا تروعهُ ولهذا لما كان سابحًا على الماء ما افتكر قط بشيء. سوى بان يسبح بنشاطٍ وان يتجه خطًّا مستقيمًا الى ما قصدهُ من الجهة

وبعد ان مضت نحو ساعة ونصف تقلصت كثيرًا المسافة الفاصلة ما بينهُ والجزيرة ولكن في اقترابهِ من الارض دهمهُ تصوّرٌ هائل من شأنهِ ان يحملهُ على الهرب وهو ان التماسيح كثيرًا ما تألف سواحل الجزيرة ولم يكن يخفى عليهِ ما تنطوي عليهِ تلك الحيوانات من النهامة وشدة الحرص في تلقف جثمان بني آدم

واضطرب يوسف من هذا الفكر رغمًا عما كان متصفًا بهِ من الثقة المائلة بهِ الى الظن ان كل شيءٍ في هذه الدنيا يجري مجراهُ الطبيعي وخاف ان يلذ للتماسيح اللحم الابيض. ولذا لم يتقدم الى الساحل الأعرض كلي رغبة محدقة بكلتا حواليهِ ولما وصل الى قرب ربوة مظللة بالشجر الاخضر هب نسيم فاحت منهُ رائحة المسك الخارقة

فقال: هذا ما كنت اخشاهُ فان التمساح غير بعيد مني. وغطس في الماء ولكن لم يغطس غطسًا عميقًا ولذا ما تحاشى صدمة جسمٍ عظيمٍ ذات خراشف مسّة فخدشت جسمه في مروره فحسب يوسف انهُ ذهب فريستهُ وجعل يسبح بسرعة من ناهز اليأس ثم طلع الى سطح الماء وتنفس قليلًا ثم عاد فغاب في الماء وهكذا قضى برهة كابد فيها ضيقة وغمًّا شديدًا رغمًا عما كان عليهِ من الجلد العربي. في كل دقيقة كان يخال لهُ انهُ يسمع حركة ذلك التمساح وراءهُ فاغرًا ماضغيهِ ليبتلعهُ بلعة واحدة وبينما كان محتفظًا على ذاتهِ من كل جانب وهو يسبح بلطافة واذا مُسك من ذراعهِ ثم من وسطهِ

فتصور حينئذٍ ان قد حاق به التعس والويل وفكر فكرة اميرة بولاه واحد يصارع ويسارع كقاطع الرجاء وهو مع ذلك مشعرٌ بان قوة تجره الى سطح الماء وليس الى القعر كما هي عادة التماسيح عند ما اصطادت صيداً

فلما طفا وفتح عينيهِ نظر ذاتهُ بين عبدين ذات لون الآبنوس ماسكين به وهما يضحكان بصوت غريب

فما تمالك ان قال يا للعجب فاني نجوت من شباك التماسيح ووقعت في شباك السودان ، فلعمري هذه احسن من تلك ولكن كيف يا ترى يتجاسر هؤلاء على السباحة في مثل هذه الحالات

فكان يجهل يوسف ان سكان جوانب شاد يسبحون في المياه المحاذية فيها التماسيح بلا خوف ولا قلق لان تماسيح تلك البحيرة شهيرة بقلة توحشها وعدم حرصها في اذية الناس

فكان يوسف قد نجا من خطر لكنهُ وقع في غيره فترك للمقادير ان تعمل فيهِ ما تشاء وحيث لم يستطع الخلاص انقاد الى الاسودين اللذين اتيا به الى الساحل ولم يُظهر على ذاتهِ وجلاً

فاخذ يردد في افكاره قائلاً - لا شك في ان هؤلاء العبيد نظروا الى المصورة عند ما حامت فوق البحيرة شبه وحش جوّي فقد شهدوا من بعيد سقطتي فلا يبعد ان يخالوا انساناً نزل من السماء ويخصوه باكرام خصوصي فلندع الحوادث تجري مجراها

ثمَّ للخطوب اذا احداثها طرقت   واصبر فقد فاز اقوام بما صبروا
فكلُّ ضيقٍ سيأتي بعدهُ سعةٌ   وكل صبرٍ وشيكاً بعدهُ ظفرُ

وفيما كان يحدث بهذه الافكار اذا وصل الى ساحة وفيها قوم سود من كل جنس وعمرٍ وهي قبيلة من قبائل البيديوماه ولم يبتعِ من جهة ثوبه

فانهُ كان على زيّ سكان ذلك القطر

ولكن قبل ان يتنبه الى حالتهِ وموقعهِ رأى الصيد قد اخذوا في تحيتهِ وتعظيمهِ فطمأن روعه من هذا الامر وان اتت لناظرهِ حادثة كأنه عند ما ظهر القمر

ثم قال في نفسهِ: ارى اني يوسع ان اصبح ثانية الهاً وانا للقمر. فلا بأس من هذه الحرفة لانها احسن من غيرها عند ما تكون احارية واما الذي يهمني فهو ان اربح زماناً حتى اذا اتت الصورة مرّت فرقي انتهز الفرصة من حالتي هذه لاصعد صعوداً عجيباً واجعل عابديّ يتأملون بهذا المشهد الغريب

ثم ازدحم القوم حولهُ واخذوا يسجدون له ويقبلون ويمسونه وأنس الجميع به ولم يتهاملوا ان صنعوا له وليمة فاخرة مؤلفة من الحليب الحامض وكان ذلك الحليب ممزوجاً بمارز مسحوق في العسل. فلما كان من دأب يوسف ان يقبل كلما يأتيه تناول الطعام معهم واكل كثيراً وهكذا أرى عابديه كيف ان الالهة يتلقون الاطعمة في الفرص الغير الاعتيادية

ولما امسى المساء اتاه حواء الجزيرة وضبطوا يده باحترام كلي وجاؤا به معبداً اشبه كوخاً محاطاً بالطلاسم السحرية وقبل ان يدخلهُ يوسف شاهد عظاماً مكوّمة حول ذلك المعبد فنظر اليها نظرة قلقة ثم جاؤهُ به وتركوهُ فأخذ حينئذٍ يجوب بيداء الافكار في واقعتهِ وفيما حُكم عليهِ من البية

في جانب عظيم من الليل ما برح يوسف يسمع غناء وترتيلاً واصواتاً شبه اصوات الطبل وفرقعة حديد تعلو في اذان الافريقيين ولما كان الرقص قائماً على قدمٍ وساق حول الكوخ المقدس كان القوم يعزفون باصواتهم الصحيحة وجميع هذا تحيلاً لقلم يوسف الفائق

وكان يوسف ناظراً الى هذه الزوبعة من خلال جدران الكوخ المبنية من الطين والقصب . فلو جرت هذه الحادثة في وقت غير ذلك الوقت ربما لكان فرح فرحاً عظيماً في تلك الطقوس الغريبة ولكن قد حيل في باله امرٌ اوقعهُ في ملال لانهُ وان نظر الى الاشياء بعين رائقة بل عرودة فمع ذلك قد ساءهُ وجودهُ في تلك البلاد الوحشية وبين اقوام برابرة

وزد على ذلك انه قلّ السواح الذين تجاسروا فقدموا الى تلك الافاق ثم عادوا ورجعوا الى الاوطان وعليه لم يثق كثيراً بعاداتهم وتكريمهم له لان عظمات هذا العالم واعادة حركات عدهُ اباطيل ولهُ دواعٍ كثيرة لاحتقارها وعدم الاكتراث بها ثم سأل نفسهُ بنفسه قائلاً : عسى ان عاداتهم تفضي اخيراً باكل المعبود

فمع ارتباكه بهذه الافكار التي من شأنها ان تلقيه في وهاد التأسف والكدر غلب عليه التعب ورقد في سبات لذيذ ولطال معهُ هذا الرقاد حتى الصباح لو لم تيقظهُ رطوبة غير منتظرة

ثم امست تلك الرطوبة ماءً وازداد ذلك في كوخ يوسف حتى وصل الى اواسطه

فقال : ما هذه الحال أعذاب على عذاب هل يا ترى لنا غارق في غمر المياه فلعمري ما كنت في انتظار هذه الحيلة الغريبة وعلى كل لا امكث محبوساً حتى تبلغ المياه الى رقابي

وبعد ان تموه بتلك المقال ضرب الحائط بكتفه فوجد نفسهُ في قلب البحيرة ولم يعد يرى اثراً للجزيرة بل انها غطست في الماء بالليل وقام مقامها سعة البحيرة

فقال يوسف : بئس البلاد لاصحاب الاملاك لانهم يضمنون رزقهم في

برهةٍ وجيزة ثم شدد قواه وضاعف نشاطهُ للمساحة من جديد

فقد نجا يوسف من ايدي البرابرة بحادثةٍ من الحوادث التي كثيراً ما تجري في بحيرة تشاد فان جزائر كثيرة تتهوّر في هذه البحيرة مع انها تشاهد قبلاً صلبة كظهر الصخور وكثيراً ما يأتي الاقوام المجاورون لها موت المساكين الذين يلجأون الى الفرار

اما يوسف فلم يكن عارفاً بهذا الامر لكنهُ اتخذهُ سبيلاً الى تخلصهِ واذ لم يزل تائهاً في البحيرة قد اقترب منهُ ورآه شبه جذع شجرة نُخر حفراً خشناً وكان فيهِ مقدافان فطلع اليهِ ورأى مجرى ماء سريعاً فاتبع الرحلة واجدّ في السير

ثم قال مضطرباً قبلاً الى اين اذهب وارجو من كوكب الصباح ان يأتي نحوي لانهُ من حسن عادته ان يهدي الناس الى طريق الشمال

ورأى ان مجرى الماء يبلغهُ جنوب البحيرة الشمالي فسار مسروراً ولما كانت الساعة الثانية بعد انتصاف الليل صعد الى علوة مغطاة بعشب شائك لكنهُ نظر هنالك شجرةً وخيل لهُ انهُ يرقد على اغصانها كعلى فراش فتسلقها يوسف واخذ هنالك في انتظار الفجر ولو امتنع عليه الرقاد

واذ وافى الصباح سريعاً حسب عادتهِ في تلك بلاد خط الاستواء القى يوسف نظرةً على الشجرة التي التجأ اليها فارعبهُ منظرها رعباً شديداً لان الحيات والحرباء تغطي اغصان الشجرة من اعلاها الى اسفلها وكان ورقها اذ ذاك متوارياً تحت لفائفها واذا ما شاهد احدٌ تلك الشجرة قال عنها انها تنبت ذبابات ولما بزغت اشعة الشمس اخذت تدب وتزحف وتلتف فشعر يوسف برعب خالطهُ النفور ورمى بنفسهِ الى الارض بين فحيح الحيات

ثم قال: هذا شيء غريب يصعب تصديقهُ

فكان يجب عليه ان يوصل في رسالاتهِ الاخيرة ذكر تلك الغرابة الظاهرة في سواحل بحيرة شاد حيث تكثر الدبابات والهوام كثرةً لا مثيل لها فعند ما رأى يوسف ما رآه عزم على ان يشدد حرصهُ في المستقبل واخذ يسير الى الجهة الشمالية الشرقية وكان يحتمي كثيرًا في تجنب الاسكراج والبيوت والخيام وبالاجمال كل محل قابل لسكنى الناس

وكم من مرة قد رفع يوسف الحاظهُ الى العلاء وهو يرجو مشاهدة المصورة غير انهُ ذهب تفتيشهُ عليها هدرًا ولم يرَ لها اثرًا فمع ذلك لم تنقص ثقتهُ بسيدهِ اما حالتهُ فكانت تقتضي صبرًا جميلًا وشجاعةً عظيمة للتغلب عليها اذ انهُ كان منهوكًا بالتعب متضررًا من الجوع لكونهِ لم يقتـت سوى بالعروق ولب بعض الشجيرات او بالثمار من جنس النخل فهذه كلها ليس من شأنها ان تقوي المعدة وتثبت المرء . ومع هذا كلهِ فانه تقدم نحو عشرين ميلًا الى الناحية الغربية وكان جسمهُ مخدشًا بالاشواك في اماكن كثيرة وذلك لطلوعهِ الى سواحل البحيرة وارجلهُ كانت مخضبة بالدماء فاصبح من ثم مسيرهُ عسرًا ومؤلمًا فاحتمل هذا العذاب بصبر ولما امسى المساء عزم على ان يقضي ليلتهُ في سواحل البحيرة

فهناك اقتضاهُ الحال ان يقاسي لدغ الهوام التي لا تحصى عددًا وهي من اجناس كثيرة كالذباب والبرغش والبعوض والنمل الذي يبلغ طولهُ نحو نصف ابهم وهي تغطي الارض كالبساط الممدود . فما مضى عليهِ نحو ساعتين الّا تأثر الثوب الخفيف المكسي جسمهُ ولم يبقَ منهُ اثر فان الهوام قرضتهُ جميعهُ فكانت ليلة هائلة لم يستطع فيها يوسف رقادًا ولا راحةً البتة

وفي غضون ذلك كانت الخنازير والجواميس الوحشية وغيرها من الحيوانات تصيح باصوات النحس في الآجام او تحت مياه البحيرة وكانت تدوي اصواتها

في ظلام الليل فلم يتحرَّك يوسف من مكانهِ بل كاد من جرَّا ذلك عذاباً اليماً كاد ان يذهب صبره ويُفضي بهِ الى اليأس

ثم وافى النهار بعد انتظار طويل فنهض حينئذٍ يوسف بسرعة ولما نظر حواليهِ عرفت نفسهُ اذ رأى ان صومعة مسنّة كبيرة وحشية قد صاحَبتهُ ليلاً ومن مجرَّد النظر اليهما تنفر النفس وتحمل على التكره . فاحس يوسف بثقل اعضاءه ولكن قد تقوى من عزمهِ وعدا راكضاً الى البحيرة وارتمى في مياهها فرطب الماء قليلاً مما كان يكابدهُ من الحكاك ثم عاد الى البر ووضع بعض اوراق الشجر وسار في طريقهِ بحذر لم يتركهُ واصبح كأنهُ لا يدري ما يعملهُ بل شعر بقوَّة تقلوبهِ قطع الرجاء

ومع ذلك احد يصوّره الجوع وصاحت عصافير بطنهِ لان حلتهُ لا يمكنهُ الاصطبار مثلهُ فاضطر الى ان يربط حيّة بحزام ساقي ولما عطشهُ وكان يرويه في كل دقيقة واذ اتى لبالهِ ذكر ما احتملهُ في البادية من قلة الماء حسب نفسهُ سعيداً حظوه من هذه الحاجة الفائقة لجميع الالام

ثم قال في ذاتهِ اين يا ترى هي المنصورة فان الريح تهب من الشمال وينبغي علينا ان نرجع فوق البحيرة ولا بدَّ ان يكون سيدي صونيل ركب القبة بعبارة جديدة ولكن حكماهُ النهار البارح شغلاً فلا يبعد اذاً اليوم الذي فيهِ المنصورة . . . ولكن ما لي ولهذا الان عليَّ ان اتصرَّف كأني لست بزمع ان لوانها ابداً واذا وصلت الى مدينة كبيرة من مدائن البحيرة فاني اكون بنقسام السواح الذين ذكرهم لي سيدي فلساداً لا اعود مثلهم فان كثيرين رجعوا الى الاوطان وشاهدوا الخلاف فالشجاعة الشجاعة اذاً ولا اليأس ابداً

فبينا هو يتفوَّه بهذا المقال سائراً في طريقهِ وصل الى غاب وشاهد فيهِ قوماً متوحشين متألين بعضهم على بعض اما هم فلم يدروا بهِ لكونهم عاملين على

سق سلهم بعصير بات مسم وهي مشمة عظيمة يهتم بها قبايل تلك البلاد
صيد حافل

فاحتبأ يوسف بين الاحام وهو لا يتنفس لئسلا يُحس به وفيما هو رافع
بصره الى الفلاة لمح المصورة بذاتها سارية فوق راسه بعلو نحو مائة قدم ومتجهة
نحو البحيرة فودّ لو استطاع ان يُسمع صوته او يُعلم رفيقيه بوجوده في تلك الحال
ولكن أنّى له من نيل هذا المرام

وفي تلك الساعة ادرت عينه دمعة سخية راكضة لا دمعة اليأس
والقنوط بل دمعة السرور ومعرفة الجميل الذي بدا من سيده نحوه فانه
كان يستقري عنه ولا يريد ان يذهب بدونه فاقتضى حينئذ ان ينتظر رحيل
السودان حتى ينطلق راكضاً الى ارياف البحيرة

واما المصورة فتوارت عن النصر في طي الآفاق فعزم يوسف على انتظارها
هناك لانهُ قال في نفسه . لا بدَّ من رجوعها فرجعت حقيقةً واذ اتجهت نحو
الشرق فركض يوسف وراءها واوى بيديه وصرخ وصاح باعلى صوته ولكن
عبثاً لان ريحاً شديدة دفعت القبة الهوائية بسرعة عظيمة ترمت منه كل امل
ورجاء

في اول وهلة خارت فيه قوى الشهامة والرجاء وظن انهُ قد تاه في بيداء
الهلاك وحسب ان سيده رحل رحلةً اخيرة وما عاد يرجع اليه فدهش عقلهُ
واضاع كل فكرة وبقي برهة لا حراك له حسّاً وعقلاً

ثم شرع في المسير كانسان فاقد العقل ورجلاهُ مخضبتان بالدماء وجسمهُ
مخدَّش ولبث ماشياً كل النهار ومدة من الليل وتارةً كان يسحب على اقدامه
وطوراً كان يتوكأ على ايديه وكان يرى الساعة التي فيها تخور قواه ويأتيه الاجل
لا محالة

فبيا هو يتقدم الى الامام اذا وصل الى قرب ظلمة وكان قد حسبه الليل ثم سقط بلا معرفة في طين لزج وشعر كأنه يتساقط رويداً رويداً في تلك ارض الطين. وما مضت بعض الدقائق حتى رأى نصف جسمه منغمساً في الطين

فقال حينئذٍ هوذا الموت هوذا قد اقبل ولكن يا لها من ميتة شنيعة

فاضطرب واختبط واراد الخلاص فلم يقدر به بل ما زال يتعمق في الطين وكان في حركته كأنه يهدر القوة لنفسه ولم يرَ بالقرب منهُ قصبة ام قطعة خشبية ليستند عليها فايقن ان قد دنت ساعتهُ الاخيرة واطلق حنونه

ثم صاح قائلاً. سيدي سيدي ما بالك لا تأتي اليَّ تعالَ تعالَ

فتاه ذلك الصراخ المرد صراخ اليأس والقنوط في بادي الظلام المدلهم

الفصل الرابع والثلاثون

في ما كان من العربان المجتمعين وملاحقتهم لاحد المهرويين وقتل الصياد عربياً برصاصة وانفصال يوسف من الارض مسافة وجيزة

فبعد ما فوض العلامة امر المراقبة الى ديك الصياد ما امتد هذا عن الترس في الافق بحرص. والتفاته لا مثيل لها

وبعد برهة التفت الى العلامة وقال له: اری هنالك طائفة من الناس والبهائم مجتمعين ولكن لا يتميز شيء منها بل اني اشاهدهم في حركة عظيمة لان امامهم غبار كثيف من الرمال يرتفع من الارض

فقال صموئيل يمكن ان يكون هذا ريحاً مخالفة ام زوبعة او سمت ان تدفعنا الى الشمال

فنهض ديك ليتفحص الافق جيداً

ثم قال لرفيقه اظن انها طائفة من الغزلان او من بقر البرية

قال العلامة ان ذا من المحتمل ولكن اعلم يا ديك ان هذه الفرقة المجتمعة تبعد عنا نحو تسعة او عشرة اميال فانا اذا تطلعت بالنظارة الصغيرة لا اميز فيها شيئاً

فقال ديك. على كل حال اني مراقبها على جميع الاحوال لاني ارى فيها شيئاً غير اعتيادي يُشغل بالي وعلى ما اظن ان هذا الازدحام انما ازدحام خيالة يجارون في ميدان السباق هوذا قد اصاب تخميني فانهم بالحقيقة خيالة. تطلع يا فرغوسن تطلع

فتأمل العلامة بانتباه الى تلك الفرقة المزاحم بعضها بعضاً

ثم قال على ما ارى قد اصبت في ظنك فانهما فرقة من عربان ام تيبوسية والباين انهم يركضون الى الجهة التي نحن سائرون اليها غير ان عددهم لا

يواري سرعة قتنا ولا يمضي نصف ساعة الآ ونقف على الحقيقة ونعلم ما يجب علينا من العمل

ثم اخذ الصياد منظرته وجعل يحدق نظره فتراءت له الخيالة المذكور باكثر وضوح وشاهد ايضاً بعضاً منهم يطردون على جانب

ثم قال لفرغوس : في الحقيقة ان هذا هو سباق خيل فكأنهم يتعقبون شيئاً واود كثيراً ان اشعر بما هو موضوع مطاردتهم

فقال العلامة : صبراً يا ديك عن قريب نصل اليهم بل نتجاوزهم اذا داوموا الجري في هذه الطريق نفسها واعلم ان قبتنا تسير الان بسرعة عشرين ميلاً في الساعة ولا يوجد خيل يمكنها ان تجري بهذه السرعة

ورجع ديك الى المراقبة من جديد ولم تمض بعض الدقائق الا قال : انهم عرب يركضون ركضاً شديداً وقد ميزتهم حق التمييز وهم يبلغون الخمسين وعدداً برانسهم تموج على جناح الريح فانهـا رياضة الخيالة رئيسهم يسبقهم عن بعد مائة قدم وهم يجرون وراءه متتبعين آثاره

قال العلامة من ما كانوا فاني لا اخشى اذيتهم واذا اقتضت الحال ارتفعنا الى المعالي

قال ديك : اصبر قليلاً يا فرغوس اصبر

ثم استتلى ديك كلامه بعد فحص جديد وقال انه لامر غريب حيّر فكري لاني ارى شيئاً ما تمكنت من معرفته ولا تمييزه جيداً والظاهر من كد الخيالة وعدم مساواة جريهم انهم مطاردون احداً لا لاحقون رئيسهم كما ظننت

قال العلامة : وهل تتأكد ذلك يا ديك

قال ديك : لا شك في هذا لاني اشاهد الخيالة كانها وكلمة وراء صيد

ولكنها ليست مصيدة حيوان بل انسان والذي يتقدمهم هو منهزم منهم وليس هو رئيسهم وقد خامرهُ الاضطراب

قال فرغوسن: أهلهُ منهزم

قال ديك: اي نعم سيدي

قال العلامة لانحولنَّ اذاً نظرنا عنهم ولننتظرنَّ ما يحدث

فسارت القبة مسافة ثلاثة او اربعة اميـــال فوق هؤلاء الخيالة الجارين بسرعة شديدة

وبعد ان قطعوا هذه المسافة صاح ديك بصوت مرتجف وقال سيدي سيدي فرغوسن

قال العلامة: ما بالك اجلُّ

قال ديك: هل هو حلم ام خيال هل هذا ممكن

قال العلامة. وما معنى قولك

قال ديك: تصبر عليَّ

قال هذا ومسح زجاجة النظارة وجعل يحدق نظره من جديد

فقال العلامة: قل اذاً ما هذا

قال ديك: هو هو نفسهِ يا صمويل

فصاح العلامة قائلاً: هو هو بذاتهِ (فقد اغنى لفظة هو هو عن مراده ولم يحتاج الامر الى ايضاح)

ثم قال ديك: انهُ راكـــب فرساً ومنهزماً من امام اعدائهِ . . . وهو بعيد عنهم نحو مائة قدم

قال العلامة وقد علا وجههُ الاصفرار عافاك الله يا يوسف

قال ديك: لايمكنهُ ان يرانا في انهزامهِ وهربهِ

قال العلامة · لا بد يا ديك من ان يرانا

قال هنا وحصص حرارة القصة

قال ديك . وكيف ذلك

قال العلامة . لا تمضي خمس دقائق الّا ويقترب من الارض حتى لا يعلوها الّا ٥٠ قدماً وبعد خمسة عشر دقيقة يصبح فوق رأسهِ

قال ديك : ألا يلزم ان تنبههُ بطلقة بارودة

قال العلامة كلا فانهُ لا يستطيع الرجوع الى الوراء والّا ذهب فريسة لعدائهِ

قال وما العمل

قال الصبر يا صاح الصبر

قال ديك : الصبر وهؤلاء العربان ما العمل فيهم

قال العلامة . انا نلحقهم ونسبقهم ولسنا ببعيدين اكثر من ميلين فقط فليبقَ حصان يوسف جاريًا بجراة ولا نخشى العربان

قال ديك : الهي الهي

قال العلامة . وما الذي جرى

قال ديك صاح بصوت مأيوس بعد ما شاهد يوسف مصروعًا على الحضيض لان حصانهُ قد اعياه التعب فسقط على الارض خائر القوى

قال العلامة انهُ بصرنا وفي نهوضهِ اشار الينا بحركة يدهِ

قال ديك - ولكن قد اوشك العربان ان يلحقوه فما الذي ينتظره . فلله الحمد فانه شهم باسل عافاه الله عافاه

فكان يوسف بعد سقوطهِ نهض حالًا اذ وثب عليهِ خيال ثم قفز كالفهد وحاد يسيرًا عن طريقه ثم انقض على فرسهِ كالباشق فمسكهُ من عنقهِ

وحمته باصابعه الخشبية وبديه العصبية وحمله على الارض طريحاً واخذ في اهرامه بسرعة الطير

فصاحت العربان بصوت عظيم دوى في الآفاق ولكنهم لم يشاهدوا قط المنصورة التي كانت تبعد عنهم نحو خمسمائة قدم وهي تعلو عن الارض ثلاثين قدماً فقط الآن واحداً منهم قارب يوسف وحاول ان يضربه برمحه ولما كان ديك الصياد شاخصاً اياه اوقفه برصاصة واحدة وصرعه على الارض

فلم يلتفت يوسف اصلاً لصوت الرصاص بل داوم المسير واما الخيالة فوقف بعضهم ومنهم من خرّ على وجهه في الارض عند مشاهدة المنصورة ومنهم من داوم ملاحقة يوسف

فقال ديك ولكن ما الذي يعمله يوسف فانه لايقف

قال العلامة: بل انه يتصرف تصرفاً اوفق من الوقوف فاني فهمت غايته وهي انه لا ينفك من المسير الى جهة مسير القبة الهوائية ويثق بفطنتنا وتدبيرنا وسيشلنا من ايدي هؤلاء العربان وها نحن بعيدون منه نحو مائتي قدم فقط فله درهُ من شهم فريد

قال ديك ما الذي يجب فعله

قال العلامة: دع بارودتك جانباً

فترك الصياد بارودته وقال: هوذا فعلت

قال العلامة: أتستطيع ان تحمل بين ذراعيك ثقلاً يوازن مائة وخمسين ليرة انكليزية

قال: واكثر من ذلك

قال العلامة: لا لزوم لاكثر بل هذا كافٍ

فرفع العلامة اكياس الرمل وناولها لديك ليجعلها بين ذراعيه

ثم قال: الست واقفاً في مؤخر المركبة وكن متأهباً لان ترمي هذا الرمل كله دفعة واحدة ولكن بحياتك لاتفعل ذلك قبل امري

قال ديك: ثق بي وكن مطمئن البال

قال العلامة: والا خسرنا يوسف وذهب فريسة الهلاك

قال الصياد: لاتخف يا فرعوسن والق علي هذا الهم

فوصلت المنصورة فوق رؤوس الخيالة الذين ما انفككوا من تتبع اثر يوسف

واما العلامة فوقف في مقدم المركبة وهو ماسك السلم منشوراً ومستعد لان يلقيه في الدقيقة الموافقة وكان يوسف بعيداً من اعدائه نحو خمسين قدماً امام المنصورة فتقدمتهم

ثم قال فرعوس لديك: انتبه يا صاح

قال ديك: ها انا حاضر وعلى اهبة

ثم صاح العلامة بصوته الرنان: عليك عليك يا يوسف

قال هذا ورمى السلم فوصلت الدرجة الاخيرة الى الارض واثارت غبرة من الرمال

فعند ما نادى العلامة يوسف لم يقف هذا في محله بل التفت قليلاً فوصل السلم بالقرب منه وفيما كان يتماسك به صاح العلامة الى ديك قائلاً. الق الرمل يا ديك

فقال ديك: قد فعلت

فلما خفت المنصورة من ثقل يفوق ثقل يوسف ارتفعت في الفضاء حالاً وبلغت علو مائة وخمسين قدماً فوق الارض

وبعد مـا ارتفعت المنصورة وتذبذبت كثيراً في صعودها كان يوسف

متمسكاً شديد التمسك بحبل السلم ثم اشار الى العربان لشارة عربية وداعاً لهم وتسلق السلم بجهة الهواء ووصل الى رفيقيهِ فاقتلاه بين الاحضان فصعت العربان وتتغير باصوات الدهشة والغضب لان المهم طار من بين ايديهم وابتعدت عنهم المنصورة بعداً شاسعاً

هتف يوسف . سيدي صاحبي ديك

قال هذا ووقع مغشياً عليهِ من شدة الاضطراب والاعياء فيا ما كان ديك كأنهُ في بحر الهذيان يصيح قائلاً :

قد خلص قد فاز بالنجاة

اما العلامة فرجع الى رواقهِ القديم وقال . اواه ما هذه الحالة حالة يوسف فان يوسف كان متجرداً عن اثوابهِ وليس على جسمهِ الّا رسمٌ من الكسوة

واما ذراعاهُ فكانتـــا مخضبتين بالدم وجسمهُ مثخناً بالجراح فكان هذا دلّ على ما تكبدهُ من العذاب والشقاء فحص العلامة حالاً وضمد جراحهُ وانامهُ داخل الخيمة

وبعد برهة استفاق من غشيانهِ وطلب كأساً من العرق فما اراد العلامة ان يرفض طلبهُ لان يوسف لم يكن يطلب كسائر الناس وبعد ان شرب اخذ بايدي رفيقيهِ وقال لهما انهُ مستعدٌ لان يقص قصتهُ

فلم يسمح لهُ رفيقاهُ بالتكلم في تلك الساعة وعليهِ عاد فرقد رقاداً ثقيلاً كان في غاية الاحتياج اليهِ

فسارت حينئذٍ المنصورة خطاً منحرفاً الى جهة الغرب وعند ما اشتدت الريح وصلت الى حدّ القفر الشائك فوق الغابات التي قد احتها او اقتلعتهـــا الزوبعة وبعد ان سارت مائتي ميل بعد انتشال يوسف قد حازت مســـاء الدرجة العاشرة من الطول

الفصل الخامس والثلاثون

في طريق الغرب وغفلة يوسف وعناده وتتمة قصته ووصول السواح الى لحلة وقلق الصياد والعاء المصورة نحو الشمال

ثم سكنت الريح من هبوبها الشديد وقرّت المصورة على رأس جميزة عظيمة

فسهر كل من العلامة وكادي في حراسة القبة. اما يوسف فانتهز الفرصة وغرق في سبات مريح مدة اربعة وعشرين ساعة بغير انقطاع

فقال العلامة هذا الدواء النافع ليوسف اعني به الرقاد فان الطبيعة تأتيه بالشفاء من تلقاء نفسها

ولما كان النهار عادت الريح شديدة متقلبة فكانت تهب تارة نحو الشرق وتارة نحو الجنوب غير انها هبت اخيرًا آخذةً المصورة الى الجهة الغربية

فتطلع فرغوسن الى الرسوم الجغرافية ورأى انه قائمٌ في مملكة دامرغو واراضي تلك البلاد مموجة السطح لكنها ذات خصب وريعان وبيوتها مبنية بقصب تتخلله اغصان شجرة يقال لها اسكابية وترى فيها الطحانات مرتفعة فوق اخشاب متصلة وذلك خشية من هجوم الجردان عليها

وما مضت برهة الّا وصل السواح الى مدينة زندر المشهورة بمحل العقاب المتسع القائم فيها فترى في وسطه شجرة الموت وكل من يُرْ مينها يسكن الملأَّد لحالس دوامًا عندها ويشنقهُ على تلك الشجرة في الساعة والحال

ثم تطلع الصياد الى البوصلة وقال لفرغوسن هوذا رجعنا الى طريقنا الشمالية

قال العلامة. لا بأس منها اذا قادتنا الى تمبكتو فان رحلتنا لا تماثلها رحلة توفيقًا ونجاحًا

فقال يوسف وقد مدّ رأسه من خلال ستار الخيمة وامارات السرور على محياه · ولا تماثلها رحلة ترويق صحة اصحابها

قال ديك: هوذا صاحبنا الشهم الفريد ومخلصنا الوحيد . كيف حالك يا يوسف

قال يوسف : انا بخير بحسب عادتي وطبيعتي فاني لم ارَ ابداً نفسي منشرح الصدر اكثر مني في هذه الساعة وكيف لا ينشط من قد تخلص مثلي في بحيرة شاذ ثم مشى برهةً لانشراح صدره فما قولك يا سيدي

فقال له العلامة · لله درك من شهم فريد ولكن كم سببت لنا من القلق والغم والرعب وغم

قال يوسف : اظنّ اني كنت على طمأنينة قلب من قبلكم . فكلأ بل يمكنكم ان تحكموا بما سببتما لي من الفزع الشديد

فقال العلامة · اذا قلبت المسألة على هذا النسق فلا نتفق على رأي

قال الصياد . ارى انه لم يتغير اصلاً من بعد سقطته

فقال العلامة . ان حبك يا يوسف كان حباً خالصاً لنا وهو الذي نجانا من الهلاك لانا كنا ساقطين في البحيرة بسرعة كلية وعلى الخط المستقيم فلو غطست المصورة في الماء من ثمّ لكان تلفها وتلفنا

قال يوسف : ولكن اذا كان انفلاتي الذي تنازلت الى ان تدعوه حباً قد خلصكم أ لم يخلصني انا ايضاً اذ اننا الثلاثة لا نزال على احسن حال واجود صحة وبالنتيجة فليس لاحد ان يعزى التقصير لنفسه ام لخلافه

قال الصياد : سبحان من كوّن طبعك يا يوسف فانك لا تسلم معنا بشيء

فقال يوسف : احسن واسطة للاتفاق انما هي ان ننسى هذه المادة ولا نتكلم عنها لقد جرى ما جرى ان كان قبيحاً ام مليحاً فلا عودة اليه

فقال العلامة ضاحكاً . يا لك من عنيد على القليل لا تتمالك ان تحكي لنا قصتك

قال يوسف : اذا كان لا بدَّ من ذلك فعلى الراس والعين ولكن ارغب قبل ان ابدء قصتي في ان اشوي هذا البط المدهن فاني ارى ان الصياد لم يدع زمانه يذهب باطلاً

فقال له الصياد : ان الامر كما قلت

قال يوسف . عن قريب نرى كيف يسلك الصيد الافريقي مع معدة افرنجية

وفي الحال شوى يوسف البط على لهيب القصبة واخذ كلٌّ حصتهُ اما يوسف فكانت حصتهُ وافرة لانه لم يذق طعاماً منذ بضع ايام وبعد ان شرب الشاي والعرق اخذ يقص ما جرى له من الحوادث والوقائع غير انهُ كان يظهر في كلامه نوع من الهيجان والاضطراب لكن لم يمنعهُ ملاحظاً الحوادث تسلسلهُ الاعتيادي ولما كان يرى العلامة ان يوسف قد اهتم في خلاص سيده اكثر مما في نجاة نفسه كان يمسكهُ بيده علامة المعروف والشكران وبعد ما جره الحديث الى التكلم عن غرق جزيرة البيدوماه فسَّر له فرغوسن كيف ان هذه الحادثة كثيرة الوقوع في بحيرة شاد

ثم وصل يوسف اخيراً بسياق حديثه الى الساعة التي فيها غطس في البطيحة وصرخ صراخ اليأس الاخير

فقال . سيدي لقد ظننت اني وصلت حدَّ الهلاك واذا اتجهت افكاري نحوك اخذت اصارع واخبط خبطاً شديداً وقد عزمت عزماً ثابتاً بان لا اترك نفسي فرصة للابتلاع بدون مجاهدة ومعاندة . واذا اخرجت شيئاً عن بعد قدمين وما هذا الشيء الا طرف حبل مقطوع حديثاً فبذلت جهدي وكدي حتى

وصلت الى ذلك الجبل فسكنة ورأيته لا يتحرّ معي فانحنت عليه واذا انا على ارض صلبة وشاهدت مرساة في طرف الجبل . فمن الصواب ادعو تلك المرساة (عن اذنك يا سيدي) مرساة الخلاص فاني عرفتها من مراسي المصورة ولهذا تبعت اتجاه الحبل الذي دلني الى اتجاه المصورة وبعد ان كانت شديد العذاب بحوت من السجة فتشددت قواي وتشاعت شجاعتي فمرت مدة من الليل وانا مبتعد عن الجزيرة ثم وصلت اخيراً الى طرف غاب عظيم فشاهدت هناك حوشاً ترعى فيه خيل وهي لا تفتكر بشيء من الحياة اوقات يحس بها كل انسان ركوب جياد الخيل ويجري كالخيالة فما امسكت قط رهة للتفكر بل وثبت على جواد وشرعت اجري سريعاً الى الجهة الشمالية . فليس لي ان اذكر البلاد التي لم اشاهدها ولا القرى التي تحتمت المرور بها بل اقول اني جزت الحقول المزروعة وقطعت الاكام والسياحات وسقت حصاني وصرته واوعت جهدي بالاستعجال فوصلت الى حدود الاراضي المفلوحة وانبسطت البادية امامي فقات . ولا اخلى منها لاني ارى ما امامي وراءه من بعيد . وكنت اومل دائماً ان المصورة تنتظرني بحساب املي ولم ارَ شيئاً حتى وصلت اخيراً في رهة ثلاث ساعات الى محطة عرب ووقعت وقعة الطير في احبولة الصياد وانا كنت الصيد

اعلم يا سيدي ذلك ان الصياد لا يعرف قيمة الصيد حتى اصطيد هو بالذات ومع ذلك اذا استطاع فيحترس من مثل ذلك الصيد . هنا وكان العربان تجد في اثري حتى اعيى حصاني واقترب مني احد العربان فاقتحمت على فرسه وصارعته واشقته غير اني لم اصل ذلك بغضاً له وعليه اومل انه لا يريد لي سوءاً من قبل ذلك وحينئذ شاهدتكما وانتما تعرفان ما جرى بعد هذا فقد جرت المصورة تابعة اثري ونشلتني كالطائر من الارض . ألم يحق لي ان

اني بكما وبمعروفكما ولباقتكما. امّا الآن فاسألك يا سيدي هل ما جرى ليس شيئاً طبيعياً بسيطاً جداً وكثير الوقوع وها اني مستعدٌ لان اعيد العمل اذا امكني ان امكنكما بامر من الامور ولكن كما قلت لك سابقاً لا تستحق المسألة ان نتكلم عنها

قال العلامة : عافاك الله يا يوسف فتلك ذات شمائل وطبائع حسنى ما لها من مثيل ولم نخطئ. نحن اصلاً باتكالنا على ذكائك وفطنتك

قال يوسف : على الانسان ان يتبع جري الحوادث فيجوا من المهالك وعندي ان الطريق الاول لراحة البال هو اتخاذ الامور كما تُقبل الينا

وبينما كان يحكي يوسف قصتــه قطعت المصورة مسافة بعيدة في تلك البلاد ثم اشار ديك الى وجود اكواخ في الجهة الافقية تظهر كانها مدينة فنظر العلامة الى رسومها وعرف انها قرية تجة في مملكة دامرعو ثم قال سعيد هناك الطريق التي سلكها برث وفيها انفصل عن رفيقيه ريشردسون واوفرويك . فكان ريشردسون متأهباً للمسير في طريق بندر واوفرويك مستعداً للانطلاق الى مارادي ولكنا لا يجهل كما لم يرجع الى اوربا من هؤلاء السواح الثلاثة سوى برث وحده

فنظر الصياد الى رسم اتجاه المصورة وقال . فاذاً نحن متجهون نحو الشمال على الخط المستقيم

قال العلامة : نعم نحن متجهون الى الشمال قواماً

قال الصياد : أليس من شأن ذلك ان يسبب لك شيئاً من القلق

قال العلامة . ولماذا

قال الصياد لان هذه الطريق توصلك الى طرابلس فتمر من جرى ذلك ان طرف الصحراء الفسيحة

قال العلامة · اوصل انا لا نذهب الى مدركهنا ولا بهذه الطريق المشومة

قال الصياد : وهل من بينك ان تحل مكان

قال العلامة : قل يا ديك هل ترغب في زيارة تمركتو

قال الصياد : تمركتو

قال يوسف : اي نعم لا يسوغ لاحد ان يسافر في امصار افريقية وتفوته زيارة تمركتو

قال العلامة : فتكون الخامس او السادس بين رجال اوربا الذين زاروا هذه المدينة العجيبة في عواصها

قال الصياد : فلنذهب اذاً الى تمركتو

قال العلامة - ولحالة هذه دعنا نصل الى بين الدرجة السابعة عشرة والثامنة عشرة من العرض وهناك نتوقع ريحاً موافقة تقذف بنا نحو الغرب

اجاب الصياد - نعم الرأي انما هل بقي علينا مسافة طويلة في جهات الشمال

قال العلامة : علينا مسافة مائة وخمسين ميلاً على الاقل

عندها اجاب ديك : ولحالة هذه اوذ ان انام قليلاً

قال له يوسف - نم يا سيدي وانت يا معلمي اقتصد اثر ديك فانك محتاج للراحة لاني اسهرتك سهراً زائداً

واضطجع الصياد في المظلة اما فرغوسن فقلما كان يؤثر فيه التعب ولذا لبث راصداً

وفي برهة ثلاث ساعات كانت المنصورة تجوب بسرعة لا مزيد عليها ارضاً محصبة تعلوها سلاسل جبال شامخة محدبة وتتخللها بعض اوطاد علوها اربعة الاف قدم وتلتمس اسنام والطرافة والوعل تعدو بسرعة عجيبة في وسط

عابات من الخطوط الشجيرة والهيلج وشجر التجيل ثم تلي الفلوات العامرة لرض كساها ديباج النبات مطرزاً بالانوار والالوان وهو بلاد الكلواص وهؤلاء يلقون على وجوههم براقع من قطن نطير التوارج حياتهم الذين من يجاورهم لا يأمن على نفسه من الهلكة لشدة شراسة اخلاقهم وغلو توحشهم . في الساعة العاشرة مساء بعد ما قطعت المنصورة تلك المسافة الطويلة وقدرها مائتان وخمسون ميلاً وقفت فوق مدينة كبيرة فكان يرى منها على ضوء القمر قسم بين عامر وعامر وبعض رؤوس مآذن مرتفعة هنا وهنالك تضرب اشعة النور فتظهر بيضاء . فالعلامة قد اطلع من حساب علو الكواكب انه قائم تحت خط عرض اغاد

فكانت هذه المدينة قديماً مركزاً لتجارة وسيعة جداً الا انها قد بدأت تتقهقر وتخرب قبل ان زارها المعلم رث

اما المنصورة فكانت غير منظورة عن حد فاستوت على الارض على مسافة ميلين من اغاد في حقل وسيع مزروع ذرة بيضاء وقضوا الليل بسكون وراحة وفي الساعة الثالثة بينما كانت ريح خفيفة تدفع القبة نحو الغرب بخروب انبلج الصباح

فاسرع فرغوسن في اغتنام هذا الطالع السعيد فارتفع سريعاً وهو هازئاً

الفصل السادس والثلاثون

في سرعة سير المنصورة وفي الاعمال الصادرة عن حكمة وفي الاثقال وفي الامطار المتراكمة وفي عار والبحر الاسود والسواحل كلفرتي وجوفروا وعراي ودومونريه وليك ودواي كالبة وكلارتون وجون وربشار لندر

فقضي اليوم السابع عشر من ايار بهدوء وسكون وبدون عارض معكدر وعادت تظهر المغازة وكانت ريح معتدلة تحمل المنصورة ما بين الجنوب والغرب بدون ان تميل يمنة او يسرة بل كان ظلها يرسم على الرمل خطاً مستقيماً لم يشوهه ادنى انحراف او اعوجاج

وكان العلامة قبل سفره قد جدد مؤونتها ماء اذ كان يخشى انه يمتنع عليهما النزول الى الارض في تلك البقاع المستهدفة لغارات التوارج الكثيرة وكان هناك السهل المرتفع الف وثلاثمائة قدم عن شاطيء البحر يتخفض نحو الجنوب واذ قطعوا الطريق المؤدية من اغاد الى مرزوق المهددة باقدام الجمال بلغوا مساء الى الدرجة السادسة عشرة من العرض والرابعة وبضع من الطول بعد ان يكونوا قد قطعوا مسافة مائة وثمانين ميلاً من ارض مستوية مملة

في ذلك النهار اتم يوسف اعداد الطعام آخر ما كان عنده من الصيد فأتى للعشاء بشيء من لحم دجاج ارضي مشوي مما يهيج شاهية الاكل لجودته ولذته . اما الريح فكانت تصلح للسير فعمد العلامة على ان يداوم السير في ليل كان البدر فيه تماماً ساطعاً . وارتفعت المنصورة الى علو خمسمائة قدم وسارت ليلاً قاطعة مسافة نحو ستين ميلاً بهدوء وسكينة لا يقلق فيها طفل خفيف النوم

اما في يوم الاحد صباحاً فقد انقلبت الريح فكانت تحمل المنصورة الى

ما بين الشمال والغرب وكنت ترى بعض الغربان تطير في الهواء وسرية من الشوح تطير بعيدة عنها بعداً عظيماً

فلما نظر يوسف الى هذه الطيور الكاسرة خطر له على بال ان يبني معلمة على ما رآه من الراي المصيب في اتخاذ مركبتين هوائيتين الواحدة عن الاخرى

فقال . كيف ترى كان حالنا لو كنا في منطاد واحد . لعمري ان هذه المركبة الثانية هي بمنزلة قارب في البحر ترقى الركاب من الغرق عند انكسار السفينــة

اجابه معلمه : اصبت يا صاح غير اني لا اركب الى قاربي كل الاركان لانه لا يساوي المركب

قال ديك . وما معنى قولك هذا

قال : معناي ان المصورة الجديدة لا تسوى القديمة اما لان قماشهــا قد بري واما لان صمغها قد ذاب على حرارة الانبوبة فاني تحققت تماماً في العبــار ليس بكثير الى الان انما منحدر وقد اخذت القبــة بالميل الى الهبوط وقد اضطررت لتثبيتها الى ان ازيد الادروجين تمدداً

قال ديك لا حول ولا قوة الا بالله فاني لا ارى علاجاً لهذا الخلل

قال العلامة : بالحقيقة لا علاج لهذا الداء ياصاحبي ديك ومن ثم يحسن بنا ان نسرع في المسير ونتحاشى من وقفات الليل

قال يوسف : أنحن بعيدون من الساحل حتى الان

قال العلامة : اي ساحل يا ولدي وهل نعلم الى اين تحملنــا المقادير فكل ما يمكني ان اقول لك هو ان تمبكتو تبعد عنا مســافة اربعمائة ميل نحو الغرب

قال . وكم من الزمان يلزمنا للوصول اليها

قال - ان ساعدتنا الريح وصلنا الى تلك المدينة يوم الثلاثاء مساء

عندها اشار يوسف الى سربة سهائم ولماس منسرية في الفيافي وقال : اذا نصل اليها قبل هذه السرب

ثم اعطى فرغوسن وديك وبطرا خليطاً كبيراً من كل نوع فكان هناك أكثر من مائة وخمسين جملاً يزن الواحد مائة وخمسة وعشرين ونصفها من تحركو الى نافيسة حاملاً قنطاراً على ظهره وكل من الجمال تحت ديله جراب يلقي فيه بعره لكي يشعلوه في البرية اذ ليس لجمالة وقود خلافه في الفلوات

اما جمال التوارج فهي من اللغة الاولى وتصبر على الظماء من ثلاثة ايام الى سبعة وتسير يومين بدون اكل وهي اسرع من الخيل عدواً وتطيع بحذاقة صوت الخبير الذي هو قائد القافلة ويعرف في البلاد باسم مهاري . فبينما كان العلامة فرغوسن يقص هذه القصص كان رفيقاه يحدقان نظرهما الى ذلك الجمهور الغفير من رجال ونساء واولاد يسيرون مشاة على كثائب رمل رخو تغرق فيه اقدامهم ولا تحتذ الا قليل من العوسج والاعشاب الجافة والطيق النابت في بعض جنباتها وكانت الريح تذري الرمال وتمحو آثار خطواتهم حالاً بعد تخطيطها

فسأل يوسف : كيف تتوصل العربان الى معرفة الطرقات ويتمكنون من وجود الآبار المتفرقة في تلك الفلوات الفسيحة

اجاب فرغوسن : ان العربان قد ربت الطبيعة عقولهم بذكاء غريزي يهديهم في سبيلهم - فالجمال التي يتوقف عن المسير فيها الاورماوي تحيراً وارتباكاً تطرقها العربان بهدى وطمأنينة فيجدون لهم علائم في الطريق

وكصكيهم ارشادًا في السير وتكون هذه العلائم لشيا، طبيعية كحجر او صخة عشب او اختلاف لون الرمل وعلمٍ حرًّا

وفي الليل يحملون الكوكب القطبي دليلهم في الطرقات . فيقطعون مسافة اقل من ميلين في الساعة ويستريحون في الهاجرة . فانظر الآن ما يلزمهم من الزمن لقطع الصحراء وهي مغارة طولها اكثر من تسعمائة ميل . اما المصورة فقد كانت توارت عن ابصار العربان وقد اولتهم الدهشة من سرعة مسيرهـا ووَدُّوا لو ماثلوها جريًا . فعند المساء بلغت الدرجة الثانيـة وعشرين ثانية من الطول وقطعت في الليل مسافة اكثر من درجة

واليوم الاثنين قد انقلب الفلك انقلابًا تامًا فاحدثت الامطار تهطل وبلا فوادت القمة والقـارب ثقلًا ارفع السواح وعن مثل هذه الامطار الشديدة قد نشأت البحيرات ومستنقعات المياه المشبة سطح تلك البلاد وفيهـا من النبات الشجرة الصاجة والنوباب والتمر الهندي

فهذه حالة بلاد صُراي وقراها المسمة بأسطحة مقلوبة تماثل القمعـات الارضية فقلّ ما فيها من الخالي الا انه توجد فيهـا تلال فيها غدران وبرك مياه تحملها طيور الدجاج الارضي والعرعرة وهي طائرة على سطحها وترى هنـا وهنالك سيول سريعة الجري تقطع الطريق فيلتزم المسـافرون ان يجوزوها متمسكين بحبل مرتكب من اغصان الاشجار القائمة على جانبي السيول وممدود من جهة الى اخرى وغابات مرابع للتماسيح والاوعال والخراطيط

قال العلامة . اوشكنا ان نرى نهر النيجر اي الاسود فان البلدان تتغير هيئتها بقرب الانهار . لان الانهر طرقات جارية كما قيل ومارّة وراءها الخصب وفيما بعد تأتي بالتمدن والفلاح هكذا قد نزل النهر الاسود على جانبي مجراه السـالح الفين وخمسمائة ميل اكثر مدن افريقية واعظمها اهمية وعمرانا

فاستحسن يوسف حركة العصب وقال: ان هذا يذكرني قصة من كان يتعجب من حسن العناية الالهية ويثني عليها جميل الثناء لانها احكمت فاجرت الانهار في وسط المدن الكبيرة او بالقرب منها مع ان الانهار جرت فحولها قبل انشاء المدن

وكانت المنصورة في الطيارة تسير فوق قرية غاو وهي الان مجموع اكواخ حقيرة مع انها كانت في القديم مدينة معتبرة بل قاعدة البلاد

قال العلامة: ها قد عبرنا النهر الاسود لدى عودتي من تمبكتو. وهذا النهر الشهير في الاعصار القديمة بشهرة نهر النيل الذي اعزي للقدماء منشاؤه الى الالهة وقد اشغل نظير نهر النيل افكار الجغرافيين في كل زمان وتكابد الباحثون عنه مشقات كثيرة وتعرضوا لاخطار وفيرة كما تكابد الباحثون عن النيل

وكان النهر الاسود يجري بين ضفتين منفرجتين وتنحدر مياهه نحو الجنوب انحدارًا شديدًا اما السواح فكادوا لا يميزون عرجاته الغريبة

قال فرغوسن: اني اريد ان احادثكم عن هذا النهر ولو كان الان بعيدًا منا جدًّا فانه يجوب بلادًا شتى ويسمى تارةً نهر الدواليب وتارةً نهر المايو وطورًا نهر قوّرا وفي بعض محال يدعى باسماء أُخر ويكاد يوازي النيل بطول مجراه. وكل هذه الاسماء معناها النهر في لغات البلدان التي يجتاز بها

قال كادي: لعلّ المعلم برث سار هذا المسير

قال ديك: كلّا بل لما بارح بحيرة تشاد مرّ باكبر مدن البرنو وافى النهر الاسود في ساي وهي على مسافة اربع درجات تحت غاو ثم ولج اواسط تلك البلدان التي لم يكن تجسسها احد وكان النهر يحدق بها بموجاته وبعد ما قاسى اتعابًا جديدة مدة ثمانية اشهر وصل الى تمبكتو. اما نحن فانا سنبلغ

اليها باقل من ثلاثة ايام ان ساعدتنا الارياح

فقال يوسف - هل عُرفت ينابيع النهر الاسود

اجابهُ العلامة: منذ زمن مديد قد رغب رجال كثيرون في الاكتشاف على النهر الاسود والنهيرات الصابة فيه ويمكنني ان اذكر لك بعضهم فمن سنة ١٧٤٩ الى سنة ١٧٥٨ عرف ادمسون النهر وبلاد غورا. ومن سنة ١٧٨٥ الى سنة ١٧٨٨ جاب عولساري وجووا بلاد ستيغمبي وصعدا حتى بلاد المغاربة الذين قتلوا صوبة وريسون وآدم وريلاي وكوشله وكثيرين غيرهم ممن ساروا خطأ وهلكوا في تلك الامصار والحق بهم مونغوبرك الشهير خليل ولترسكوت وابن وطنه الاسكوسي. فهذا بعثت به الشركة الافريقية من لندرة سنة ١٧٩٥ الى تلك الاطراف فبلغ الى عبادة ونظر النهر الاسود وقطع مسافة خمسمائة ميل برفقة احد تجار العبيد وعرف نهر غمبيا وعاد الى لندرة سنة ١٧٩٧. ثم عاد مسافراً في ٣٠ ك ١ سنة ١٨٠٥ برفقة صهره اندرسون وسكوت المصوّر وجماعة من العملة فوصل الى بلاد غورا فهناك ضم الى جماعته فرقة عددها ٣٥ جندياً ورجع يطلب النهر الاسود في ٣٠ آب غير انهُ لم يبقَ في قيد الحياة من الاربعين اوربياً الّا احدى عشر نفراً والباقون قد هلكوا من جراء ما قاسوهُ من المشاق والرزايا وسوء الهواء وقلة الضروريات - وفي ١٦ ت ٢ بلغت آخر رسائل مونغوبرك الى زوجته وبعد سنة اخبر احد التجار من تلك الاطراف انهُ لما وصل الى مدينة بوصا الكائنة على النهر الاسود في ٢٣ ك ١ انقلب فيه القارب بعاريب النهر ثم نجا من الغرق الّا انهُ وقع بين ايدي سكان تلك البلاد فقتلوهُ

قال ديك: ألم توقف مثل تلك الميتات التعيسة زهد الرائدين الراغبين في اكتشافات جديدة

قال العلامة : كلاَّ بل اصحبت لهم مهاراً حضهم ليس على البحث عن النهر فقط بل على طلب اوراق المقتول ايضاً . ومن ثم قد اعدّوا في لندرة سنة ١٨١٦ رسلًا لتلك البلاد وكان من جملتهم الضابط عراي موصل الرسل الى سنغال ودخلوها في فوتادجالون وزاروا شموب فولا وسنديك ثم اخذوا بالعود الى انكلترة بدون نتيجة أُخرى . وسنة ١٨٢٢ تجسس الضابط ليك كامل امصار افريقية الغربية المجاورة املاك الانكليز وهو اوَّل من وصل الى ينابيع النهر الاسود فبناء على تقريراته ليس منبع هذا النهر الكبير الأعرض قسمين

قال يوسف : وما ايسر قفزهُ

قال العلامة : مهلًا ياصاح ان صدقت التقليدات كل من حاول عبـار ذلك الينبوع فاقرًا ابتلعتهُ المياه في الحال ومن رام ان يستقي منهُ ماء ممتنـهُ عن الاستقاء يدٌ غير منظورة

قال يوسف : هل يُحرَّم علينا عدم الاعتقاد بكلمة من مثل تلك التقليدات

قال العلامة . ليس بحرام قط اما الضابط ليك فقطع سنة ١٨٢٧ فسيح الصحراء ودخل تمبوكتو ومات مخنوقاً من اولاد سليمان الحنق عليهِ بالاسلام دون نيل اربهم ولما قُتل لم يبعد عن تمبوكتو الّا مسافة بعض اميال

قال الصياد : وبلادهُ هالك ضحية اخرى صحبوها

قال العلامة : فحينئذٍ قام واحد من صناديد الشبـان وعد على اتمام ما كان العجب واهول الاسفار الحديثة مع قلة ما كان لهُ من الوسائط والمال لنفقات السفر وهو الافرنسي رابي كاليه . فبعد ما حاول مرارًا مباشرة هذا السفر سنة ١٨١٩ وسنـة ١٨٢٤ اعاده في ١٩ نيسان سنـة ١٨٢٧ من ريونياس وفي ٣ آب وصل الى تيه مضروكا منهوكًا من التعب والمرض حتى

لهُ لم يعاود السفر الّا في كانون الاول سنة ١٨٢٨ اي بعد ما شرع بهِ بستة اشهر . فانضم حينئذٍ الى قفل لابساً ثياباً شرقية تقيهِ من اخطار المملكة . فبلغ النهر الاسود في ١٠ اذار ودخل مدينة جنه وركب النهر حتى تمبكتو فوصل اليها ونزل فيها في ٢٠ نيسان . وربما كان قد شاهد تلك المدينة العجيبة اوربي اخر يقال لهُ ايمبر سنة ١٦٧٠ وانكليزي يُسمى وورث آدم سنة ١٨١٠ غير ان رني كالية يُعدّ اوّل اوربي اتى باخبار يقينية عنها . وفي ٤ ايار بارح تلك المدينة سلطانة البرية وفي ٩ منهُ عرف المحل بعينهِ الذي فيهِ قُتل الضابط لينك وفي ١٩ وصل الى الهروان وبارح تلك المدينة العامرة بالتجارة وجاز تلك الفيافي الرحيبة الواقعة بين بلاد السودان وامصار افريقية الشمالية مقتحماً منها اخطاراً شتى اخيرًا بلغ الى تنجر وفي ٢٨ ايلول سافر الى تولون . والحاصل انهُ في مدة تسعة عشر شهرًا جاب افريقية من غربيها الى شماليها معما قاساه من المرض مدة مائة وثمانين يوماً . ولعمري لو كان كالية قد وُلد في انكلترة لكافوه عما يستحق من الاكرام والشرف افضل السواح في هذه الايام كما كافوا الانكليز ابن وطنهم ممورلك لكنهُ لم يُعتبر في فرنسا الاعتبار الذي حقّ لهُ

قال فيلكس نعم الرجل رجلاً لو كان رفيقاً لنا ولكن ترى ماذا حلّ بهِ

قال العلامة - انهُ توفي وهو في عمر ثمان وثلاثين سنة من جراء ما قاساهُ من الاتعاب فظن الفرنسيس انهم وفوهُ حق الكرامة بمنحهم اياهُ جائزة الشركة الجغرافية سنة ١٨٢٨ فلو كان في انكلترة لقد أُتحف بجزيل الاكرام وسامي الاجلال ونال حسن السمعة فبينما كان مباشرًا هذا السفر العجيب عمد احد الانكليز على هذا العمل عينهِ واقدم عليهِ نظيره ببسالة ولكنهُ لم ينجح نظيره وكان القبطان كلابرتون رفيق دنهام فتوصل سنة ١٨٢٩ الى افريقية من الجهة الغربية في خليج بانين . واخذ يسير على اثار مونغو پرك ولينك ووجد في بوصه

الافادات المتعلقة بوفاة اوليا ووصل في آب الى سكاتو وهناك قُبض عليه وحجز اسيرًا وقضى نحبهُ بين ايدي خادمهِ الامين ريشار لاندر

فسأل يوسف ماذا جرى للاندر وكان يهمهُ الاطلاع على امره

قال العلامة: قد تيسر له الاتيان الى الساحل ومن هناك عاد الى لندرة ومعهُ اوراق القبطان وتقرير مدقق عن سفره لخصوصي فعرض خدمتهُ للدولة في اتمام اكتشاف النهر الاسود فسافر وخرج معهُ اخاه جون وهو ثاني ولد لعائلة فقيرة من بلد كورنوايل فسار كلاهما في النهر فقطعاه من بوصا حتى مصبه بحرًا طولهُ ميلًا فميلًا واطلعا على ارياف قرية فقرية وبقيا في هذا السفر من سنة ١٨٢٩ الى سنة ١٨٣١

قال ديك فالمفهوم اذًا من قولك ان هذين الاخوين نجيا من المخاطرة وعادا الى اوطانهما سالمين خلافًا لما اصاب عموم المسافرين الى تلك الجهات

قال العلامة: نعم توفقا في هذا السفر غير ان ريشار قد سافر مرة ثالثة الى النهر الاسود سنة ١٨٣٣ ولما بلغ الى قرب مصب النهر هلك بطلقة بندقية لم يُعرف مطلقها. فرأيتما اذًا يا خليليَّ ان البلاد التي نجتازها قد شاهدت من تسامُوا بسالة ونشاطًا وكانت المنية واحسرتاه على الغالب جزاء همتهم الخطيرة ومروءتهم الكبيرة

الفصل السابع والثلاثون

في البلاد التي في عرصات النهر الاسود · وفي منظر جبال اومبري الغربية
وفي كابرة وشكتو · ورسم المعلم برث · وسقوط المدينة عن رونقها القديم
والسير على رحمة الهواء

وكان العلامة فرغوسن مدة ذلك النهار المكرب نهار الاثنين يسلي رفيقيه بقصه عليهم قصصاً شتى عن البلاد التي كانوا يجتازون بها وكانت ارضها مستوية على الاكثر لم تأتهم بصعوبة في مسيرهم ولم يكن شيء يكدر صفاء بال المعلم الّا تلك الريح المشومة التي كانت تهب عاصفة من الشمال الشرقي وتبعدهم عن عرض تمبكتو . اما النهر الاسود فيجري شمالاً حتى يحاذي تلك المدينة ثم يدور كأنه فوارة ماء كبير ويصب في البحر الاطلنتيك متفرقاً خلجاناً متفرعة جداً . اما الاراضي التي يسكنها النهر في عرصاته فمنها عامرة بهية بالخصب ومنها عامرة قاحلة كل المحول . فتلي السهول البائرة حقولاً رحبة يكسوها ديباج المزروعات او بساط الرز . وفي ارياف السيول والبطاح والبحيرات تعيش بكثرة جميع انواع الطيور العاشقة المياه كالبجع والاوز والبط والصحص وما شاكلها

ويرى كل مدة عصبة من عصابات الطوارق المختصين ضمن مطال من ادم فيها تتفرغ نساؤهم للاشغال الخارجية ويحلبن نوقهن ويشربن دخان التبغ بغلايين كبيرة المواقد

اما المصورة فكانت نحو الساعة الثامنة مساء قد تقدمت مسافة ما يبعد عن مائتي ميل نحو الغرب فشاهد حينئذ السواح مشهداً جميلاً اوعب قلوبهم عجباً وانتباهاً

وهو اذ ذاك بعض اشعـة من القمر نفذت من خلال الغيوم وانبعثت بين اهاليل السحب وسقطت على جبال همري فجاءت عليهـا بمطر ثياب بيضاء ككالثلج لم يرَ كمطره في مفاعيل النور . ثم تألقت في الفضاء القائم بهيئة اشباح كأنها اطلال مدينة كبيرة دارسة من بناء العصر المتوسط كما تظهر في الليالي الداجية اسكندناس للحمد في البحور الغائرة

قال العلامة : هوذا منظر من مناظر اسرار اودلف لعمري ان المصوّر رذكايب لم يقدر ان يصوّر هذه الجبـال بمنظر اغرب واهول من المنظر الذي نأيتهُ الآن

اجابهُ يوسف : وحياتي اني لا احب ان اسير وحدي مساء في هذه البلاد الموحشة اطياناً واشباحاً أترى يا معلمي لو لم تكن هذه القمة ثقيلة لحملتها الى بلدي والقيتها على شاطئ بحيرة لوند فتتقاطر اليها المتفاشون والمتفرجون احواقاً اجواقاً

قال العلامة : ان قمتنا لاتسعها حتى تشغل بالك بهذا الفكر الشاذ غير اني ارى ان اتجاه مسيرنا قد انقلب ولا عاد عفاريت هذا المكان يعارضوننـا بل انهم يلقون لنا ريحاً لطيفة تهب من الجنوب الشرقي فتحملنـا الى طريق حسنة

وبالحقيقة عادت المنصورة تسير في طريق تميـل الى الشمال . وفي اليوم العشرين صباحاً مرّت فوق مدينة اقنية وبحيرات وغدران تصب جميعهـا في الانهار الصابة في النهر الاسود وكثير من هذه الاقنية مغشـاة باعشاب كثيفة كأنها مراعٍ دسمة فهناك اهتدى العلامة الى الطريق التي سار فيها بَرْث حينما سافر في النهر قاصداً تمبكتو وعرض النهر ١٨٠٠ قدم وعلى ضفتيه كثيرٌ من شجر الصبار والتمر الهندي فترعى به سرب الإبل وتتسلك فروعها الغلقة بين الكلاء

فيرصدها التمساح ليثب عليها ويفترسها

وكنت ترى اقفالاً كثيرة من حمير وجمال تتسرب تحت الاشجار الجميلة محمولة بضائع واردة من جنة وبعد هنيهة ظهر على عوجة من عوجات النهر جوقة بيوت منخفضة مبنية في منحدر وعلى اسطحتها كثبان علف للدواب أوتي به من الاراضي المجاورة

فلما نظرها العلامة أخذته حركة الابتهاج فهتف قائلاً : هذه كبرى وهي مرفأ تمبكتو فلم تبعد المدينة سيدة عنا أكثر من خمسة اميال

قال يوسف : فلنطب اذاً نفساً يا سيدي

قال العلامة : قد انشرح صدري يا ولدي وانتعش فؤادي

قال يوسف : الحمد لله على توفيقه

وها تمبكتو سلطانة البرية مدينة الخفايا والغرائب التي حازت كأثينا ذروة بمدارس العلماء والفصحاء والفلاسفة قد أخذت تجلي شيئاً فشيئاً لابصار السواح

وكان فرغوسن يتأمل الرسم الذي اتخذه برث نفسه في سفره وحقق غاية صحته ودقته

ورسم المدينة على هيئة مثلث الزوايا فهي منبسطة على سهل رحيب من رمل ابيض ورأسها المتجه نحو الشمال نافذ في جهة من الصحراء . ويكاد لا يكون شيء من الاغراس في دوائرها الا بعض اشجار ذات زهر ونبات الصاحة وغيرها من نباتات مهزولة صغيرة

اما منظر تمبكتو فهو مجموع كرات وكمات تظهر مدياً لعين الناظر فشوارعها ضيقة وعلى حافتيها بيوت ليس لها الا طبقة سفلية مبنية بالاجر ميبس على الشمس وبعض اكواخ من قش وقصب منها تشكل مخروط ومنها مربعة . وعلى الاسطحة ترى بعضاً من سكانها منبطحين اضطجاع الرجلين الكسالى

مترديين بكساء بهي ثمين وبأيديهم القناة او القرينة . اما النساء فلا يُطلِنَ في تلك الساعة من النهار

قال العلامة . قيل ان النساء حيلات المطر . فلم يبقَ آثار من المدينة القديمة سوى ثلاثة مآذن لثلاثة جوامع لان المدينة قد سقطت كثيراً عن رونقها السالف . ففي الرأس المثلث الزوايا ترى جامع سنكور وايوانهُ الطويل المسنود على قناطر ليست خاليةٍ من جمال البناء وعظامهِ وعلى مسافة منها بالقرب من حي سانتونمو جامع سيدي يحيى وبعض من الدور على طبقتين . فمثَّا تمتش في المدينة على قصور ومبانات عسكيرة فشيخها تاجر بسيط ومنزلة الملوكي ما هو الاّمكتبة التجاري

قال ديك . كأني ارى اسواراً مهدومة من باب الصحف

اجابهُ العلامة . نعم قد دكها الفولانيون سنة ١٨٢٦ وكانت المدينة وقتئذٍ لتعسكر مما هي الآن من باب المثلث لان تمبكتو كانت منذ القرن الحادي عشر هدفاً لسهام مطامع شعوب كثيرة فتحها التوارج والصنغاويون والمغاربة والفولانيون وكانت مركزاً كبيراً للتمدن والفلاح وكان فيها للعلاَّمة احمد بابا في القرن السادس عشر مكتبة تحوي الف وستمائة كتاب خط يد . اما الان فليست سوى مخزن تجارة افريقية الداخلية يدل ظاهر حالها على انها أُسلمت لرحمة المتوالين وأُصيبت بداء التهاون الآتي منهُ زوال المدن واضمحلالها وتكدس فيها الردم حتى لا ترى على سطح ارضها المستوية تلال مرتفعة الاّ تلك التي تركم فيها ذلك الردم الفاحش

فلما مرت المنصورة فوقها قد بدا فيها بعض الحركة بل وضُرب بالطبل غير ان من كان من اهلها على شيءٍ من العلم لم تسنح لهُ الفرصة المناسبة لمراقبة هذه الحادثة الجديدة اذ دفعت الريح الشديدة السرّاح نحو المفازة فعادوا

يسيرون فوق مجرى النهر الكثير التعرجات في الحـــال توارت عنهم تمبكتو ولم يبقَ لهم منها الّا ذكرها

قال العلامة : اما الآن فليذهب بنا المولى الى حيث يشاء

اجاب ديك : اللهمَّ بشرط ان يسير بنا نحو الغرب

قال يوسف . لو عدنا الى دجـــار في الطريق التي اتينا بها او جرنا نحو الاوقيانوس حتى اميركا لما كنت اخشى ضرًّا

قال العلامة ولكن يا يوسف لكان يلزمنا اولاً ان نستطيع سبيلًا الى ذلك السفر

قال يوسف . ترى ما الذي يعوزنا لمباشرته

قال العلامة . يا ولدي يعوزنا الغـــاز لان قوَّة التصاعد في القبة أخذت تنقص شيئًا فشيئًا فيلزمنا اخذ احتياطات كثيرة لكي تحملنـــا الى الساحل . فاوشكت ان اضطر الى ان اطرح شيئًا من الصورة . لاننا نثقل ثقلًا زائدًا

قال يوسف هاك يامعلمي ثمرة البطالة والمكث النهار بطوله كي ينمو في ارجوحتهِ . فيسمن ويضخم ويثقل . فان سفرنا هذا من اعمال الكسالى فمتى عدنا الى انكلترة ارعبنا من نظرنا سمنتنا وضخامتنا

اجاب الصياد لعمري ان مثل هذه الملاحظات لا يأتي بها الا يوسف ولكن مهلًا يا يوسف مهلًا انتظر النهاية أتعلم ماذا يقدّره الله علينا . لم نزل بعد بعيدين من منتهى سفرنا ما رأيك يا صموئيل اين نصادف ساحل افريقية

قال العلامة : اني قاصر جدًّا عن مجاوبتك ياديك لاننا مسلمون الى رحمة رياح متقلبـــة . غير اني احسب نفسي سعيـــدًا اذا وصلت الى ما بين سيراليون وبورتنديك . فهناك بلدان واسعة لا بد من ان نصادف فيها بعضًا من الاصدقاء .

قال ديك . وما اوفر سرورنا عند ما نقابلهم ونهديهم التحيات الودادية . ولكن ترى هل اننا سائرون الى الجهة المطلوبة

قال العلامة - لسنا تماماً على ما يبتغي من المسير . هاك البوصلة فترانا سائرين الى الجنوب وذاهبين الى ينابيع النهر الاسود

قال يوسف . لكانت هذه فرصة حسنة لاكتشافها لو كانت لم تزل مجهولة . ألا سبيل لنا ان نكتشف لها ينابيع اخرى

قال العلامة : كلا كلاً ولكن كن مرتاح البال يا يوسف اني ازمع ان لا نتقدم الى ذلك الحد

فلما اظلم الظلام رمى العلامة بما بقي من اكياس الصبورة لان القبة لم تحتملها مع اشتمال آلة الغاز الى اعلى درجة . فصعدت القبة وكنتيد سارت ستين ميلا في جنوب تمبوكتو وفي اليوم الثاني اصبحت على شاطئ النهر الاسود بالقرب من بحيرة ديبو

الفصل الثامن والثلاثون

في قلق العلامة فرغوسن وفي الجراد وفي انقلاب الريح

فكان يجري النهر ويتشعب متفرقاً الى فروع ضيقة سريعة الجري لوجود جزائر شتى في وسطه وكانت امدادها تحوي بعض أكواخ للرعاة. الا انه لم يكن يتيسر للسياح رسم ما كان على طريقهم وجه الضبط والتدقيق لازدياد سرعة مسير المصورة ولسوء حظهم قد كانت مائة تجوب اكثر من ذي قبل وصارت محيرة ذات عرجة وحيرة

اما فرغوسن فكان ينقل القبة الى درجات مختلفة من العلو ليحكمها في مجاري ارياح غير التي كانت تحملها. الا انه لم ينجح في عمليته هذه ثم قد ترك حالاً هذه المحاولة الزائدة من قبلها تلف الغاز بداعي شدة على جوانبها المحركة بالارياح. فاستولى عليه قلق جسيم لكنه وارى اماراته صامتاً. وكانت الريح تلازم دفعها الى جهات جنوبي افريقية وتوقع خللاً في حساباته. اما هو لم يعد يدري عن اوقنا يعتمد عليه فان لم يبلغ الاراضي الانكليزية او الفرنسية وقع في ايدي البرابرة الشائنين الاغارة على سواحل غينيي والله اعلم بما يصيبه هنالك من البلايا والرزايا. فلا يعود يتيسر له سفينة يعود بها الى انكلترة. وكانت الريح تقذف به نحو مملكة داهومي في وسط قبائل فاقت جميع البلاد توحشاً وقساوة فيترك هنالك الى رحمة ملك يذبح في الاعياد الجمهورية الوفاً من البشر ضحايا لالهته فمن وقع في تلك البلاد ذهب لا محالة فريسة للهلاك

وكانت القبة من جهة أخرى تبدي اعياء ظاهراً في مسيرها ولم يخف امرها على العلامة لكنه كان يؤمل انه متى تقشع السحاب وانقطع المطر تنقلب

عاري الهواء في الجو الى ما يحسن حولها مساءه اذا ما انبأهُ به يوسف عن حالة الفلك بقوله ·

هوذا المطر اوشك ان يتضاعف هطلهُ ويكون هذه المرة طوفاناً عرمرماً على ما تبشر هذه السحب المقبلة

قال ورغوس · لا حول ولا قوة الا بالله أسحبٌ هي حقًا وما حاجتنا اليها

فقال ديك · لعمري انها سحبٌ كثيفة

قال يوسف : وحياتي لم ترَ مثلها قط ولها اطرافٌ حادة كأنها محطمة على الريح

ثم أخذ العلامة النظارة ونظر اليها واذ رفع النظارة قال قد اطمأن قلبي لانها ليست سحب

قال يوسف : لله العجب · أليس هذا سحاب

قال العلامة · هذا ليس سحاب بل ضباب

قال يوسف · ما فرق الضباب عن السحاب

قال العلامة · انما ضبابٌ من جراد

قال يوسف وقد أحدثتهُ هزة العجب : أهذا جراد

قال العلامة : ان مليونات مليونات من الجراد اوشكت ان تمر بهذه البلاد فالويل لها ان حطت عليها لقد جعلتها فريسة الدمار

قال يوسف · اني لراغب ان ارى مثل ذلك

قال العلامة : مهلًا يا يوسف من الان الى عشر دقائق يدرككما هذا الضباب فتراهُ بعينيك · وقد اصاب العلامة فرغوس بقوله هذا لان سحابة هذا الجراد الكثيفة المنتشرة الى مسافة اميال كثيرة وصلت سريعًا الى السواح وهي تدوي دويًا يصم الاذان وتلقي على الارض ظلها الطويل كسكات

جيوشاً لا يحصى عددها من جراد ذات اربعة اجنحة . على مسافة مائة قدم من المصورة انصبت على بلدة مخضرة فما مضى ربع ساعة من الزمان الّا وسحابة الجراد عادت تطير منظر السواح عن امد الاشجار والاكام مجردة من كل خضراء وثراء والحقول معراة وقد امست المروج لا عشب لها . فكأن فصل الشتاء قد جاءها تلك النقمة منزلها في اقصى المحل والجدب

ثم قال : أرأيت يا يوسف ما كان من هذا الجراد

قال يوسف : ان ذا غريب لكنهُ طبيعي فكما ان جرادة واحدة تتلف يسيرًا كذلك ربوات من الجراد تتلف كثيرًا

قال ديك : وانهُ لخطرٌ هائل بل مهول وأهول من البرَد الشديد دمارًا

قال الملاح : وأهول من هذا جميعه محال التوقي منهُ . احيانًا رأى الاهلون حرق الغابات حتى والمزروعات لكي يتمكنوا من اهلاك هذه الهوام ولكن لم ينجحوا كثيرًا بهذه الطريقة لان الزفوف الاولى تنقض على اللهيب فتطفئه وتطمئه . اما الباقية منها فتعبر فوقها بغير صعوبة ولا معارضة غير ان الاهليين يستعيدون من هذا المصاب بعض العوض عما يأتهم من الرزايا وهو انهم يلتقطون كثيرًا من هذه الهوام ويأكلونها فيستطيبونها ماكولا

قال يوسف : اني اشبهُ بالفريدس الذي في البحر واتأسف لعدم تمكني من ذوقه لاعلم كيفية هذا الطعام

وكانوا يرون البلاد عند المساء تزداد سباخًا فلم يعودوا ينظرون غابات الا بعض شجيرات من الشجر . وعلى ضفتي النهر بعض نباتات من القنب وبروجًا ذات عشب كثيف لرعاية المواشي في وسط جزيرة صغيرة نحوا مدينة جنة ومأدبتي حاميها واشتموا الرائحة الكريهة المنبعثة من الوف بالوف من اوكار السنونو المحشرة في اسوارها وفي خلال بيوتها ورأوا رؤوس اشجار البوباب

والصناعة والتحيل . اما اهلها فانهم ذوو عزم وهمة ونشاط لا يزالون النهار والليل في العمل ومدينتهم جنة وسيعة الدائرة وكبيرة الحركة التجارية فتاتي تمبكتو بكل ما يلزمها وتنقل اليها على القوارب بالنهر وعلى ظهور الجمال في الطرقات المظللة بالاشجار جميع محصولات صنائعها

قال العلامة : فلولا الحذر من اطالة سفرنا لحاولت النزول في هذه المدينة فلا بد من ان يوجد فيها من العربان من سافروا الى فرنسا وانكلترة فلعلهم لايستغربون مركبتنا انما هذا لا يخلو من خطر

قال يوسف وهو يتبسم : فأُحِلُّ هذه الزيارة الى سياحتنا القادمة

قال العلامة وزد على الخطر . . . اني اشعر بنية حقيقة للريح ليهب من الشرق فمن الواجب ان نغتنم هذه الفرصة

فرمى العلامة من المنصورة بعض اشياء امست غير مفيدة كبعض قناني فارغة وصندوقاً يوضع فيه لحم لم تعد حاجة اليه وتوصل الى انه اقام المنصورة في منطقة تنسب للسير الى حيث يشاء . وفي الساعة الرابعة صباحاً كانت اشعة الشمس تضيء سعو وهي عاصمة عارا المحرقة حيث ايدا بالاربع المدن التي تتألف منها وبحوالمها المحرقة وتتوارد القوافل الدافقة بلا انقطاع سكان المدينة من محل الى اخر . اما السوّاح فلم يُبطروا اكثر مما نظروا وكانوا يفرون بسرعة وعلى الخط المستقيم الى الجهة الشمالية الغربية . فأخذ العلامة يطمأن قليلاً قليلاً من قلقه وباله فقال : ان بقينا نسير الى هذه الجهة وبهذه السرعة وصلنا بعد يومين الى نهر سنغال

فسأله الصياد . هل سنكون في بلاد امينة

قال العلامة : ليست امينة بالتمام انما اذا تقصتنا المنصورة نستطيع بالحصر ان نصل الى منازل فرنسوية . وان سارت بعدُ مسافة بعض مئات من الاميال

فلما نصل آمنين من الاتعاب والمخاوف والاخطار الى الساحل الغربي

قال يوسف: أسكون انتهينا من السفر. حاشا لنا فلولا رغبتي في ان اقص قصة سفري لما شئت قط ان التي قدمي على الثرى. هل ترى يا معلمي يصدق الناس قصصنا

اجابهُ العلامة: ما ادراك يا صاحبي ان كانوا يصدقونها. فقصصنا لا تزال صادقة أكيدة ان صدقوها ام لا فيكون عندنا الف من شهود عيان يشهدون بسفرنا من ساحل افريقية الشرقي والف يروننا واصلين الى الساحل الغربي

قال ديك: والحالة هذه فاني ارى امرًا عسرًا قول قائل باننا لم نعبر افريقية من اقصائها الى اقصائها

قال يوسف وهو يتنهد الصعداء: اه اني متأسف شديد الاسف على قطع ذلك الذهب الخالص فلو حفظناها لزادت كلامنا اعتبارًا وقصصنا تصديقًا ولكنت اذا اعطيت كل رجل شيئًا من ذلك الذهب الفت جمهورًا كبيرًا من الناس يسمعون حكاياتي ويتعجبون حظي ويستعطفوني

الفصل التاسع والثلاثون

في دنو السواح من سنغال وفي ازدياد المصورة انحطاطاً وفي الدرويش الحجي وبسكال وبسمور ولامبرتوس والجبال الشاهقة وسلاح ديك ولباقة يوسف والوقفة فوق غاب

في اليوم السابع والعشرين من ايار نحو الساعة التاسعة صباحاً ظهر منظر البلاد جديداً فولى الدرجات المنبسطة تلالاً واوتاداً تشرت تقرب الجبال بالاستحكام وازمع السواح ان يقطعوا سلسلة الجبال الفاصلة بين مسيل النهر الاسود ومسيل نهر سنغال الموديين المياه الى خليج غويني او الى جون الرأس الاخضر

فان قسم افريقية هذا حتى سنغال مشهور بتوحش اهله واذاتهم للسواح وكان العلامة فرغوس يعرف ذلك من اخبار سلفائه الذين قاسوا من العذاب وخاضوا اشد الاخطار ما بين اولئك السودان الجائرة وقد هلك رفقاء مونغوبارك من تأثير سوء الهواء وشدة الحرّ في تلك الاطراف فجزم فرغوس جزماً قطعياً بالاّ يدوس تلك الكورة التي لا تأتي صيعها الاّ بالاهوال والاخطار

غير انه لم يرتح له بال ولم يهدأ له بلبال لكون المصورة لم تزل تنحط انحطاطاً ظاهراً فاقتضى ان يخفف حملها بطرحه منها اشياء جمة غير لازمة او غير مفيدة ولاسيما عند ما اوشكت تمرّ فوق قمة من قمم الجبال ولم تبرح على هذه الحال من الصعود والنزول على مسافة اكثر من مائة وعشرين ميلاً وهي مجهدة تتدحرج دواماً كصخر سيزيف (١) ولما كانت القمة الهوائية

---

(١) زعم الوثنيون القدماء انهُ كان محكوم على سيزيف في جهنم بان يُصعد من اسفل جبل الى قمتهِ صخراً يتدحرج حالاً من القمة الى اسفل

قلية الاستماع قد ارتخت جوانبهــا فكانت تمتد طولاً وتضيق عرضاً واخذت الريح تحمل في ملئها طيات وسيعة

قال ديك وهو قد لحظ ما جرى لها . لعل في القبة شق من جهة

اجابة العلامة . كلا بل ان طليها قد ذاب لشدة الحرارة وأخذ الادروجين ينصرف من خلال قماشها

قال ديك . وما الحيلة في منع انصراف الادروجين

قال العلامة : لا حيلة في ذلك الّا ان نخفف حملها وهذه هي الطريقة الوحيدة فلنلق منها كل ما يمكن طرحهُ

قال ديك وهو ينظر الى قارب القبة . ترى ما الذي نطرحهُ بعد هذا القارب فارغ من كل ما كان فيه

قال العلامة فلنرمِ عنها المظلة لان ثقلها ليس بيسير

ولما كان يوسف منوطاً به هذا الامر صعد فوق الحلقة الحاملة حبال الشبكة وتيسر لهُ هناك ان فصل عنها ستار المظلة السميكة ورمى بها خارجاً وهو يقول هالك غنية وسعادة لتمل قبيلةٍ من السودان فهذه الاقمشة تكفي لكسوة الف من الاهلين لانهم يشحون كثيراً على القماش في ملابسهم

فارتفعت القبة برهةً الّا انها عادت فيما بعد تهبط وتدنو من الارض

قال ديك : فلنرَ ولنرَ ما يمكننا عملهُ لاصلاح هذا الطف

قال العلامة قد قلت لك يا ديك واقول ايضاً ان لا سبيل لاصلاحهِ

قال ديك . فما الحيلة اذاً

قال العلامة : الحيلة ان نلقي كل ما يمكننا ان نستغني عنهُ من الامتعة فاني اريد فلا بدّ ان نتحاشى من الوقفة في هذه الجهات لان الغابات التي تحت الآن فوق رؤوسها هي غير مأمونة ومودعة اخطار المهلكة

قال يوسف . وما اخطارها لعلَّ فيها أُسدًا او ضباعًا فلا يُعبأُ بها

قال العلامة . ان فيها يا ولدي ما كان شرًّا من الأسد والضباع اعني به اناسًا برابرة واسوأ سكان افريقية قساوةً وتوحش

قال يوسف . ومن اين علمنا ذلك

قال العـــلامة . قد اخبرنا عنهم السواح الذين سلكوا في هذا القطر . ثم الافرنسيون سكان مستعمرة سنغال اذ لم يكن لهم بدٌّ من المناطاة مع القبائل المجاورة على عهد الكولونال فيدرب فوقفوا على اكتشافات قاصية بالبلاد بطافها بعض الضباط منهم اي لمبكال ومصور ولمرتوس واتوا بافادات ثمينـــة عن اسفارهم . فانهم تجســـسوا تلك الكور الواقعة في شرقية نهر سنغال ولم تدعهـــا الحرب والنهب الا قاعًا صفصفًا

قال يوسف . وماذا جرى فيها

قال العلامة . هاك ما جرى . ظهر سنة ١٨٥٤ شيخ سنغالي من فوطا يقال له الحجي وادعى النبوة والقى الفتنة بين القبائل وحثهم على محاربة الكفار اي الاوربيين وانزل ويلات الدمار والخراب في ما بين نهر سنغال ونهر نيجيـــة الصاب فيه فاقام ثلاث عصابات من اولئك القوم الرعاع وطاف بهم البلاد ينهب ويقتل كل من صادفهُ ولم يعفُ عن قرية ولم يسلم من شره دارٌ ولا كوخٌ حتى ولج في وادي النهر الاسود وبلغ مدينـــة سغو وتهددها زمانا طويلًا بالخراب . وسنة ١٨٥٧ عاد الى جهات الشمال برجالهِ واحاط بقلعـــة مدين التي بناها الافرنسيون على شاطئ النهر فدافع عن هذه القلعة رجل صنديد يقال له بولس هول مدة اشهر وبات ثابتًا يحميها من شر الحجي ورجالهِ وما تكاد عدهُ قليل من القوت حتى وصل اليهِ الكولونال فيدرب ونجدهُ وانقذهُ من الهلكة . فبعدها رجع الحجي وجماعتهُ عنهُ وبارحوا سنغال وعادوا الى كرتا ينهبون

البلاد ويفتلون العباد والحاصل ان هذه هي البلاد التي لجأ اليها هو وجماعته واحتموا فيها ومن الثابت انهُ لا يحسن بنا اصلاً الوقوع بين ايديهم

قال يوسف : لا سمح الله ان نقع بين ايديهم ولو اقتضى ان نخلع عنا احديتنا ونرمي بها الى الثرى لترفع المصورة في الفضاء

قال العلامة : لم نبعد من النهر لكني أرى ان القبة لا يمكنها حملنا الى ما ورائهُ

اجاب الصياد : فلنصلْ الى شاطئهِ وحسبنا توفيقاً في المسير

قال العلامة - هذا ما نحاول صنعهُ غير انهُ يقلقني امرٌ واحد

قال الصياد - وما هو

قال العلامة . ان امامنا جبالاً ينبغي ان نقطعها ويشق علينا قطعهـا لاني لا اقدر ان ازيد قوة التصاعد في القبة ولو اتيتها باعظم ما يمكن من الحرارة

قال الصياد : فصبرًا جميلاً · علينا بالانتظار لنرى ما يكون في آنهِ

قال يوسف وهو يتأسف على حالة المصورة : مسكينة المصورة ابي تعلقت بها تعلق النوتي بسفينتهِ فلا انفصل عنهـا بدون ضيم وكدر . ولكن ما الحيلة فانها ليست كما كانت عند بداية سفرنا فلا نلوم عليها ولا ينبغي ان نقول فيها سوءًا لانها اتتنا بخدامات سنية وان هجرتها قد اضطر فؤادي عليها غمًا

قال العلامة - مسكن طيب الخاطر يا يوسف ان تركناها فلا عار علينـا لانا نتركها رغم انفنا قصدنا حتى تنزف جميع قواها فاني اطلب منها ان تخدمنا بعدُ اربعة وعشرين ساعة

فأخذ يوسف يتفرس فيها وقال : قد خارت قواها وانحلت وكادت روحها تزهق واساءةُ عليها

قال الصياد : يا معلمي صموئيل انظر الى الافق - اني ارى جبالاً . لعلها الجبال التي ذكرتها

فأخذ العلامة نظارته ونظر بها الى الافق ثم قال : هذه هي بعينها واراها شامخة فيشق علينا قطعها

قال الصياد : ألا يمكننا ان نتحاشى من السير فوقها

قال العلامة - لا اظن لانها تشغل مسافة كبيرة من الارض وهي نحو نصف امتداد الافق

قال يوسف : ويتراءى لي انها تتزاحم حولنا وتحدق بنا يمنةً ويسرةً فلا بدَّ لنا من المرور فوقها

وكانت هذه الجبال تستبين سائرة لملاقاة السواح وتقترب منهم بسرعة لا مزيد عليها او بالحري كانت الريح عاصفةً تقذف بالمصورة نحو القمم الرفيعة فكان لا بد لها من الارتفاع على كل حال والّا صدمت الصخور وتلفت

قال فرغوسن - فلنفرغنَّ صندوق الماء ولا نبق منهُ الّا ما يلزمنا للشرب يوماً واحداً

فافرغهُ يوسف وقال - هاك افرغناهُ

فسأل الصياد : هل ارتفعت القبة

اجابهُ العلامة : قد ارتفعت قليلاً اي مسافة خمسين قدماً ولم يكن العلامة يحوّل نظرهُ عن ميزان الهواء غير ان هذا الارتفاع غير كافٍ لمخافة خطر مصادمة الجبال . وبالحقيقة ان القمم الشامخة كانت تصادر السواح كأنها واثبة عليهم لتطبق على رؤُوسهم . وكانوا يبعدون عن علوها مسافة خمسمائة قدم

فرموا من القبة ايضاً عزبة الماء اللازمة للانبرية ولم يبقوا منها الّا قليلاً ولم يكن هذا التخفيف كافياً

قال العلامة: فلا بد لنا من المرور فوق الجبال فما الحيلة

قال ديك. فلنلق عنا الصناديق حيث اوعبناها

قال العلامة: القوها

فالقاها يوسف وقال: آهاً على الخسارة ما امرّها

فقال له العلامة: يا يوسف لا تخاطرنّ في حياتك لاجلنا كما صنعتَ فيما مضى اعلم لي انك لا تفارقنا

قال يوسف: طب نفساً يا معلمي انا لا نفارق بعضنا بعضاً

اما المنصورة فقد زادت صعوداً نحو عشرين قامة لكنها لم تزل منخفضة عن قنة الجبل وكانت هذه القمة شبه مسلة منتصبة قائمة في رأس جبل شامخ كأنه مخروط بالبيكة وكانت تعلو السواح مسافة مائتي قدم

قال العلامة في نفسه. من الآن الى عشر دقائق يصدم القارب هذه الصخور وتتحطم بها اذا لم يتيسر لنا ان نرتفع فوقها

قال يوسف. والآن كيف الحال ياسيدي صموئيل

اجابهُ العلامة. اطرح كل هذا الفحم المثقل على القنة ولا تبقِ الّا موقتا من مرَّجه الفحم

فطرحوا الفحم الاخر وخفت القنينة من ثقل خمسة وعشرين رطلاً فارتفعت ارتفاعاً ظاهراً ولكن ما الفائدة طالما لا تعلو قمم الجبال وعليهِ كانت المنصورة في حالة تلقي شديد الرعب والهول في قلوب السواح اذ كانت تسرع سرعة الطير فلو لطمت الصخور لنحتت ارباً ارباً

فنظر العلامة الى ما حولهُ في القارب فوجدهُ كأنهُ فارغ ويكاد الّا يكون فيهِ شيء

فقال لديك: ان اقتضى الامر ينبغي ان تكون مستعداً لطرح اسلحتك

فلما سمع ديك هذا الكلام ارتعشت جميع اعضائه فاجاب . هل ترى اصحبي اسلحتي

قال له العلامة : يا صاحبي لا يخطرنّ على بالك اني اطلب منك تخلية اسلحتك بدون ضرورة قصوى

قال ديك : صوتيل صوتيل . وانقطع كلامهُ لشدة حركة الكدر

قال له العلامة : ان نجاتنا من المهلكة موكولة على تخفيف القمة من ثقل اسلحتك ومونة البارود والرصاص

ثم هتف يوسف قائلاً : قد قربنا قد قربنا عشر قامات فقط . هيا يا رجال ان الجبل يعلو المنحورة مسافة عشر قامات ايضاً . قال هذا وأخذ الاعطية ورمى بها الى الثرا ثم رمى بجملة حصص مملوءة رصاصاً بدون استشارة كادي

فصعدت القمة وجازت القمة للخطر وجاء قطرها الاعلى باشعة الشمس اما القارب فلم يزل اوطى من الصخور العظيمة التي ارمع ان يلطمها ويتحطم بها لا محالة

فعندها صاح العلامة : ديك ديك ارمِ باسلحتك والا هلكنا

قال يوسف : مهلاً يا سيدي ديك مهلاً

فالتفت ديك ورآهُ قد توارى خارج القارب . فصاح به : يا يوسف يا يوسف

ثم صاح العلامة واأسفاه على يوسف

فكانت مساحة قمة الجبل في ذلك المكان نحو عشرين قدماً ومن الجهة الاخرى كانت منحدرة قليلاً فوصل القارب على تمام مساواة هذه القمة المسطحة ووقف على ارضٍ محصنة فصعدت فقمة لخصي عروره

فصاح واحد من الرفاق قائلاً : الحمد لله والشكر لله مررنا ونجونا من

الخطر. فسمعة وعوص وطفح قلبهُ سروراً اذ كان يوسف الشهم الشديد البأس الذي رمى بنفسه الى الثرا ولبث شابث اليدين بطرف القارب الاسفل واخذ يسير بقدميهِ على قمة الجبل محصفاً على هذا النحو عن القمة تنقل جسمه حتى كان مضطراً الى ان يشد يديهِ عليها لئلا تتعالى وتفلت من امامهِ

فلما وصل الى منحدر الجبل واشرف على الهاوية قد تسلق متمسكاً بالحبال تمسكاً شديداً فجاء حذاء رفيقيهِ في القمة وهو يقول ما اسهل هذه الحيلة وما احسن ما قاله احد الادباء - واذا جار عليك الدهر فليكن عندك حيلة

فصاح الها تأداة العلامة وقلبهُ يخفق بهزة الفرح : عافاك الله يا يوسف حبيبي عافاك الله لا ثكلتك امك

اجابهُ يوسف وهو يتمكه بالكلام . لم اعمل ما عملتهُ بشأنكم يا سيدي بل بشأن قرابية الموسيو ديك . فاني كنت مديوناً له بهذا العمل منذ واقعة الاعرابي . فأحب وفاء ما عليَّ من الدين نوبتهُ واصبحنا الان على سوية حال وراحة بال قال هذا وقدم الصياد قرابيتهُ التي كانت عندهُ اعزَّ شيء في الدنيا وقال له - لكان قد شق عليَّ جداً لو رأيتك حالياً منها

اما كادي فشدَّ على يدهِ علامة الوداد ولم يدعهُ الفرح يفوه بكلمة

فبعد ذلك لم يكن للمصورة الا ان تهبط متمهلة وكان انخفاضها من ايسر الامور . فما مضي برهة من الزمان الا وُجدت بعيدة من الثرا مسافة مائتي قدم فقط وصارت تمام موازنتها وكانت الارض تنثني كأنها مصابة بالزلزلة وكان عدم مساواة سطحها يأتي بموانع تعسر محاذاتها ليلاً بحركة هوائية لم تعد تاتي ادارة مديرها . فلما حم الليل حزم العلامة على الوقوف حتى الصباح رغماً عن اشمئزازه من المبيت في ارض تلك البلاد

فقال العلامة : هيوا بنا نفتش على محل مناسب لنقف فيه

امنه كادي محاً يا سيدي اراك حرمت على الوقوف في هذه الارض

قال العلامة : نعم لاني قد امضيت عسكري بشي ء وتحيرت فيه زمناً طويلاً فاريد الان ان ابرزهُ الى حيز العمل . فالان الساعة السادسة فقط بقي اذا لنا زمن للعمل . فالق المرساة يا يوسف

فامتثل يوسف امرهُ في الحال والقى المرساة وكانت مدلاةً تحت القارب

ثم قال العلامة : اني ارى غابات فسيحة فعلينا ان نسرع الى فوق قممها ونقف متشبثين على رأس شجرة من اشجارها . لاني لا اريد قط ان ابيت الليل على الارض ولو مكثوا في هذه البلاد برمتها

قال ديك : أنستطيع النزول

قال العلامة . وما الفائدة من نزولنا وقد قلت لكم ان في انفصالنا خطراً على حياتنا . غير اني استعين بكم على عمل عسير

اما المنصورة فكانت تطفو في الهواء فوق قمم الغابات المشار اليها ولم تطف ان وقفت بغتةً لان مرساتها قد تعلقت ولما سكنت الريح مساء لبثت ساكنة جامدة فوق تلك الرياض الخضراء المتألفة من رؤوس اشجار غابة من الجميز

الفصل الاربعون

في المنازعة بينهم على الشهامة وآخر رأيهم وآلة التصحيح ولباقة يوسف
وما جرى بعد الليل وهمة العلامة وهمة كادي وتاسه
والحريقة والصياح والعويل واطلاق طلقات الرصاص

وجد العلامة فرغوسن بعد البحث عن مركز القبة وجدها بقياس علو النجوم بعيدة عن شمال نحو خمسة وعشرين ميلاً فقط

فبعد ان علم خارطته قال جل ما يمكننا عمله يا خليليّ انما هو ان نجوز النهر . وحيث لا جسر للنهر ولا قوارب لنا قد تحتم علينا ان نجوزه بالقبة ولهذا لزمنا ايضاً ان نخفف حملها

اجاب الصياد وكان يخاف على سلاحه - لا ادري باية طريقة نتوصل الى تخفيفها الآن يتحتم احدنا على النزول منها ويبقى وراءنا . . . . فانا مقدم ذاتي الى هذه الخدمة لان هذه المرة قد جاءت نوبتي

اجابه يوسف - قد اخطأ سهمك . انا المعود على مثل هذا العمل

قال له الصياد : ليس المقصود هنا يا صاح الانحدار من القبة الى اسفل بل السير مشياً حتى الساحل انما انا صياد متين واعدّ نفسي اشد منك جرياً فهذا عملي

اجابه يوسف . وحياتك لا يقدم على هذا العمل غيري

قال فرغوسن لا فائدة يا صاحبيّ من نزاعكما على المروءة - لاني اومل الا نتوصل بنا الحال الى حد هذه الشدة . ومع ذلك اذا اقتضى الامر لا نفترق ابداً بل نعبر جميعاً ونختار بهذه البلاد معاً

قال يوسف : لا اصوب من هذا الراي فلا بأس من بعض المشي في هذه الاراضي

اجاب العلامة : فلنسرع بادئ ذي بدء الى اجراء ما بقي لنا من الوسائل لتخفيف ثقل المصورة

قال كادي وما عسى تكون هذه الطريقة حتى اعرفها

قال العلامة : يلزمنا ان نرفع عن المصورة ثقل صناديق الاشربة والآلة الكهربائية والحية . وكل هذا يزن نحو نصف قنطار يعسر حمله في الفضاء على اجنحة الريح

قال كادي . يا صموئيل كيف يتيسر لك بعد ذلك نشر البخار وتوسيعه

قال العلامة : لا يتيسر لي غير اني استغني عنه

قال كادي : وكيف ذلك

قال العلامة : يا صاحبي اني قد صرفت حساب ما بقي للمصورة من قوة التصاعد فوجدتها كافية لتحملنا مع ما بقي لنا من الامتعة القليلة فيكاد ثقلنا يوازي قنطارين مع المرساتين اللتين ابقيهما

اجاب الصياد . سيدي الحبيب صموئيل انك اعلم منا في هذا الامر وعليك وحدك الحزم والتدبير في امر المسير قل لنا ما يجب عمله فاننا لك طائعين ولامرك خاضعين

قال العلامة قد قلت لكما ايها الاحباء لا بد لنا من تضحية آلاتنا مهما كان الاعتماد عليها عظيمًا كبيرًا

اجابه كادي : صحيحا ولا بأس

قال يوسف : هلموا بنا للعمل

ولم يكن ذلك عملًا من صغار الاعمال اذ يلزم تفكيك الادوات قطعة قطعة فرفعوا صندوق المزج ثم صندوق الاشربة اخيرًا صندوق حل عنصري الماء . وقد تعاطى الثلاثة السواح وعدّوا بتمام عزمهم حتى تمكنوا من خلع

الاوعية المحكمة بالقارب . فكان كنادي ذا عزم شديد ويوسف ذا لباقة وبراعة وحتوتيل ذا حذق ودراية حتى انتهوا من عملهم بهاية التوفيق والنجاح

فالقوا هذه القطع شيئاً فشيئاً خارج القبة فسقطت على اوراق الحمير طارقة فيها خرقات فسيحة

قال يوسف ان السودان يأخذهم العجب لدى مصادفتهم هذه الاشياء في الغابات ولا يبعد انهم يصنعون منها اصناماً يعبدونها

ثم بادروا الى الشغل بتفكيك الانابيب المثبتة بالقبة والموصولة بالجيبة الولية فتيسر ليوسف ان قطع الصلات الحتمية على علو بعض اقدام فوق القارب . اما الانابيب فكان فصلها متعسراً لانها كانت موصولة بطرف القبة الاعلى ومستمسكة بشرائط من نحاس اصفر في نص دائرة مسد النار

فصلها ثم يوسف عن ذراع لباقتهِ العجيبة وخلع نعليهِ من رجليهِ حذراً من ان يعطل نسيج القماش بحذائهِ وتمسك بالشبكة المتفقة بها القبة وشرع يتسلق الى ان بلغ قمة المصورة الخارجة وهنالك تمسك باليد الواحدة في ذلك السطح الزلق وبالاخرى مد كذ ... كديد وحدَّ جهيد قلع المراقي الرابية الحافظة الانابيب . حينئذ تفككت الانابيب بسهولة وسحبت من الطرف الاسفل الذي سدَّت ثغرتهُ سداً محكماً بعقدة شديدة

فما تخفّفت المصورة من هذا الحمل الكبير استوت في الهواء وارتجت حبال الرسالة بشدة

فجرت كل هذه الاشغال نصف الليل بغاية التوفيق لكنها قد كلفت الفعلة اتعاباً ومشقات لا مزيد عليها . ثم تناولوا على وجه السرعة ما تيسر لهم من الطعام الني . لان العلامة لم يعد عنده نار يطبخ بها يوسف طعاماً

غير ان يوسف وكنادي قد اعياهما الشغل . فقال لهما فرغوسن اتعمسا

ونام يا صاحبي . فانا اسهر الهجمة الاولى وفي الهجمة الثانية ارقظ كنادي ليسهر هجمة والهجمة الثالثة كادي يوقظ يوسف ويسافر الساعة السادسة وسال ربي المنادن ان يوفقنا بعين عنايته في هذا النهار الاخير

فدون ان يكرر عليهما العلامة امره قد اضطجعا وناما في قعر القارب واسرع اليهما النعاس فاستغرقا في السبات

وكان ذلك الليل هادئاً والفلك صافياً الا ان بعض غيوم كانت تحجم على القمر البالغ ربعه الاخير فكانت اشعته لا تنفذ خلالها وكان فرنوس متكئاً على طرف القارب يجول بنظره الى ما حوله ويسهر متيقظاً على اوراق الشجر الغضة المتساقطة تحت قدميه حاجبة عنايا منظر الارض . ويجفل من ادنى حركة ويتقصى عنه كل حفيف وهرير

وكان في هذه الحال يزداد بالله قلقاً وتشوشاً لوجوده في مغارة مرعبة فاحدثت الاهوال تحركه والقلاقل تشغل دماغه لان المخاوف تزداد هيجاناً والرعشات ثوراناً عند ما يكون السائح دنا من نهاية مثل هذه السياحة وقاسى مشقات ومخاطر شتى . فيما يقارب نهاية السياحة يتخيل له الميعاد فاراً من امامــه

زد على ذلك ان حالتهم كانت تنبي بالاطمئنان اذ انهم في وسط بلاد بربرية ومتعرضون في كل وقت لخطر فقدان ما كان لهم من الواسطة الوحيدة لخروجهم منها . لان العلامة لم يكن يركن اركاناً قطعياً للفتة الهوائية اذ لم تعد كما كانت فيما مضى حين كان يديرها بكل طمأنينة وهي تلبي ادارته

وفيما كان العلامة فريسة لهذه الهواجس تراءى له احياناً انه يحس بدوي في تلك الغابات الرحبة حتى خيلت له نار مشبوبة بين الاشجار فدقق نظره

حيث تخيلها ثم تناول مطارته الليلية ونظر بها الى تلك الجهة فلم يرَ شيئاً بل ظهر له انهُ قد انقطع الدوي وزاد الهدء والسكينة

فتحير وخطر على باله ان قوماً يرصدونهُ خفية ليغدروا به فلبث يتوجس ويتسمع ولم يشعر بادنى حركة فمضى وقت غمضته وايقظ كادي وامرهُ بشديد التيقظ والسهر واضطجع هذا يوسف المستغرق في النوم

اما كادي فاخذ يمسح عينيه تمطّأ وهو على اتم الهدو والرواق ويفرك عينيه اذ كان يشق عليهِ فتحهما من شدة النعاس ثم سند راسهُ الى كوعهِ واخذ ينحي بعينيهِ مثيراً منهُ الدخان كالفحّاح لكي يطرد من صدره عفريت النعاس

وكان كل ما حولهُ في هدء وسكينة الّا نسيم لطيف يثني افنان الاشجار ونهر القارب هزًّا خفيفاً ويزيد على الصياد سطوة النعاس المستولي عليهِ رغماً عن ارادتهِ فصمد لمقاومتهِ بحزم وكثيرًا ما كان يفتح مقلتيهِ ويطرق حيناً مسدد حين نظره الى الظـــلام فلا يرى فيهِ شيئاً اخيرًا تغلب عليـــهِ التعب فسقط عليهِ النعاس . الّا انهُ لم يدرك كم من الزمن مكث في راحة النوم عندما ايقظهُ تكتك حريق . فهب من رقاده ففرك عينيهِ ونهض على قدميهِ فشعر حرارة شديدة في وجههِ من النار المضطرمة في الغاب

فصاح وهو لا يدري علة هذا السعير النار النار

فهبَّ صاحباه من رقادهما وصاح صموئيل مرتعداً : ما هذا

قال يوسف . هذه حريقة ولكن من تراه فعله . . .

وعندها سمع ضوضاء وضجيج تحت اوراق الاشجار المضيئة باللهيب

فصاح يوسف - قاتل الله هؤلاء البرابرة فانهم قد اضرموا النار بالغـــاب ليحرقونا لا محالة

قال العلامة ، لا شك ان هذا عمل جماعة الطلبة اي مشايخ الحجي

وكانت النار تحدق بالمنصورة وتسمع فرقعة لخطب اليابس وعيدان الاغصان الخضراء وكل حي من ذلك النبات يتقوس ويلتهب في العصر المبيد ولم يكن يبدو الطرف الا بحراً من لهب والاشجار الكبيرة تستحيل الى سواد في وسط الاتون واغصانها مغشاة جمر نار مضطرمة وكان هذا اللهيب والحريق ينعكس ضياؤه على الغيوم حتى خيل للسواح انهم قائمون في وسط دائرة من نار

صاح سكادي : الفرار الفرار على الفرا ما من سبيل علاقة النجاة

اما فرغوسن فمسكه بيده مسكاً متيناً ووثب على حبل المرساة فقطعه بضربة فاس وما زال اللهيب يمتد نحو القبة وكان دنا منهــا حتى صار يلذع جوانبها المضيئة . فلما تخلصت المنصورة من قيدها صعدت في الهواء وتعلت ما ينيف عن مسافة الف قدم

عندها علا صراخ وضجيج هائل من قعر الغاب ثم تلاه طلقات بنادق فلم تصب القبة بل احد الهواء يقذف بها نحو الغرب حتى اصبح الصباح وبلغت الساعة الرابعة بعد انتصاف الليل

الفصل الحادي والاربعون

في حماعة الطلبة ومطاردتهم السواح واحتدال الريح واغماض المصورة واحر موتهم ودماءهم طلق البنادق وصريسمال وشلالات عويي والهواء الحار وانهار النهر

قال العلامة - لولم تخفف حمل المصورة البارح مساء لكنا هالكين لا محالة

احابه يوسف - ما احكم عمل الامور في اوقاتها . فان عاقبتها النجاة من الهلكة وما في ذلك من عجب

قال فرعوس ثم نامن بعد من الخطر

قال ديك . لاتخف يا سيدي ان المصورة لاتنحدر على الثرا بدون اذنك وان اقترحنا انها تنحدر ترى ما تكون عاقبتها

قال العلامة - تسألني ما تكون نتائج انحدارها يا ديك . انظر الى ما وراءك

فنظر ديك وكانت السواح قد جاوزوا حدود الغاب ورأوا موكباً من فرسان لابسين سراويل كبيرة وعلى اكتافهم رأس تعوم في الهواء وحيهم مسفرة بعضهم برماح وبعضهم ببنادق فيجرون الى جهة مسير المصورة السائرة في الهواء سيراً معتدلاً

فلما نظروا السواح عووا عواء الذئاب الكاسرة مشرعين اليهم الرماح وعلى سحناتهم السمرا تلوح امارات الغضب والوعيد ومما يزيد منظرهم توحشا لحى لهم متفرقة الشعر لكنها مقشعرة . فجاوزوا بدون عناء تلك الهضاب المصحة وتلك الدرجات المدرجة المودية الى يسمال

قال العلامة : هؤلاء هم جماعة الطلبة القوم القساة شبيه الحي الوحوش

الكاسرة . واني لاوثر القيام وسط غاب تحدق به الضباع من ان اقع بين ايدي هؤلاء الاشقياء

قال كادي الحق يقال ان هؤلاء القوم ليس على وجوههم امارات الصلح والسلام . بل ان هيئتهم تنبئ عن جسارة فيهم وشدة بأس وشر الفتام

اجاب يوسف . الآن هؤلاء الوحوش ليسوا ظافرين وهذا من حسن حظنا وبمحض التوفيق

قال فرغوس . انظروا يا خليليّ هذه القرى الدارسة والبيوت المحروقة . فهذا عملهم . وقد اتلفوا الثمار والنوار في الاراضي العامرة والمقاع الساحرة

اجاب كادي . مهما كان من امرهم لا يقدرون ان يدركونا واذا تيسر لنا ان نجعل النهر فيا بيننا وبينهم امنا من شرهم وعرامهم

اجاب العلامة . قد اصبت يا ديك انما الاهم ما يحكون الان التحاشي من الهبوط

قال هذا وهو ينظر الى ميزان الهواء

اجاب كادي : مهما كان الحال لا بأس من ان نسدّ اسطقتنا

قال يوسف . ما في ذلك من محذور يا ديك . وقد اصبنا بعدم بذرها على الطريق

عندها صاح الصياد : ايم الله ان قرابيني لن تفارقني . وقد حشاها تريد الاعتداء وكان بقي عنده من البارود والرصاص كمية وافرة .

سأل العلامة : ترى يا فرغوس ما علو المصورة

قال العلامة . نحو سبعمائة وخمسين قدماً . انما لم يعد في مكنتنا ان نصادف مجاري ارياح توافقنا صعوداً او نزولاً بل انما سائرون على رحمة القدة

قال كسادي : لا حول ولا قوة الا بالله . ان الريح خفيفة فلو صادفتنا عاصفة مثل تلك العواصف التي اصابتنا في الايام الماضية لغابت هؤلاء الاشقياء عن نظرنا منذ الان

قال يوسف . ها ان هؤلاء الاشرار تابعون لنا هيئة كأنهم يترمون في متابعتنا

قال الصياد لو كنا على مسافة رمية رصاص لكنت اتربه في رميهم واحداً فواحداً

اجاب فرغوسن اي نعم ولكن لكانوا هم ايضاً على رمية رصاص منا ولكانت المصورة ايسر هدف لطلقات بواريدهم . فاذا ما مزقوها بالرصاص تأمل اي مصير يصير حالنا . حمانا الله من مثل هذه الدواهي

اما جماعة الطلبة فلم يزالوا يتابعون السواح في مدة كل ذلك الصباح . وكانت القبة قد قطعت مسافة خمسين ميلاً نحو الغرب قبل الساعة الخامسة وكان العلامة يراقب الفلك ويدقق النظر في ادنى الغيوم المرتفعة في الافق ولا يزال يتوجس تغيراً في الجو . ويقول في ذاته . ما يكون حالنا اذا ما دفعتنا الرياح نحو النهر الاسود

هذا وكان يرى القبة تميل الى الانخفاض ميلاً ظاهراً وقد كانت انحطت منذ سفرها مسافة اكثر من ثلثمائة قدم وسمال تبعد عنهم نحو اثنى عشر ميلاً فيلزمهم من الوقت للوصول اليها ثلاث ساعات على معدل سيرهم الحاضر

فطرق سمع العلامة حينئذ صياح وضجيج جديد فاصغى وتفرّس فرأى جيالة الطلبة يحثون في تعجيل جري خيلهم

فنظر العلامة الى ميزان الهواء فعلم علة هذا الهواء والضوضاء

قال صكادي لعل القنة تحمص

اجاب فرعوس نعم

قال يوسف نعوذ بالله من الشيطان الرجيم

وما مضى ربع ساعة من الزمان الّا قد امسى القارب على مسافة مائة وخمسين قدمًا من الارض . اما الريح فازدادت قوّة

فاستعدت جماعة الطلبة جيوبهم جريًا وطمع في الحبال طلقة واريد في الملاء

فصاح بهم يوسف . خطأت طلقتكم يا همج انا يحسن ما ان نبعد عنا هؤلاء الانذال

قال هذا وصوب بارودته الى واحد من الخيالة السابقين واطلقها فجاء الرصاص به فسقط يخبط بدمائه على الثراء فوقعت ارفاقة واخذت المحصورة بالمسير فانتهم

قال صكادي . اراهم ذوي تخمط

اجاب العلامة - نعم لانهم موقنون قنصهم علينا واذا نزلنا بعد نالوا مأربهم منا . ومن ثم لا بد لنا من الصعود

قال يوسف . وما نلقيه من القنة لتخفيف حملها

قال العلامة . ينبغي ان نرمي منها بكل ما بقي من مؤنة نرى لحم فان وزنهُ يساوي ثلاثين اقة ينبغي ان نتخلص منهُ

فاسرع يوسف بامتثال امر العلامة ورمى به قائلًا هاك يامعلمي ربيت ولا اسف عليه

وكان القارب يكاد يمس الثرا ومن بعد هذا ارتفعت القنة واخذت جماعة الطلبة بالضجيج والصراخ . اما المحصورة فسادت بعد نصف ساعة تخمص

بسرعة والغار ينصرف بخلال الفضاء

فانحصر القارب الى الثرا حتى كاد يمسها بروزه فاسرعت جماعة الطلبة نحو القبة وارتكوا ان يصلوا اليها ولكن قد حدث حينئذ ما من عادته ان يحدث في مثل هذه الظروف وهو ان القبة بعد ما انحصرت وكادت تقف على الثرا قفزت مرتفعة في الفلاء ولم تهبط من جديد الّا بعد ما سارت مسافة ميل واحد

قال كاكادي بيطر: هل ترى لا بد لنا من الهبوط بين ايدي هؤلاء القوم

فصاح العلامة بيوسف آرم بما بقي عندنا من موونة الماء وبالآلات وبكل ما له ادنى ثقل حتى الرسالة بعينها فمسك يوسف موازين الهواء وموازين الحرارة ورمى بها انما لم يأتِ هذا الا بما قلّ من التخفيف والقبة التي كانت ارتفعت هنيهة قد عادت سريعاً فهبطت الى الثرا وجماعة الطلبة تسرح سرعة الطير في اثرها ولم يكن بينها وبينهم اكثر من مسافة مائتي قدم

فصدها صاح العلامة ارم بالبارودتين الى الارض

اجابه الصياد لا ارمي بهما قبل ان اطلقهما

قال هذا واطلق بهما اربع طلقات ورمى اربع حبالة بالرصاص فعزّت حينئذٍ ارفاقهم عن الوحوش الكاسرة وعوت عواء الذئاب

اما المصورة فعادت ترتفع وهي تقفز قفزات الكرة المرنة الواقعة على الارض

والحاصل ما كان اغرب من مشهد هؤلاء المساكين الحاولين الفرار من الهلكة عن كثب تقفز بهم قفزات الجبابرة كأنها تستعيد قواها عند ما تمس الحضيض انما لم يكن بدٌّ من نهاية هذه الحال وكان نحو الظهر والقبة قد

تهمسكت وتمزعت وتروست وامسى عطاها مرتخيا ماثما في الهواء وتتراكم الطيات في القماش متلاطمة بعضها بعضا

اما يوسف فلم يجب بشيء بل لبث يتمرس عطشه ويرقب امارات نجاته

قال كنادي لا طريقة للنجاة ولا بدّ من الهبوط

ثم قال العلامة - لا بل بقي علينا ان نخفف حمل المصورة باكثر من مئة اقة

فتعجب كنادي من كلام العلامة هذا وظن انه اعتراه جنون

فقال وما عندنا نلقيه من القفة

قال العلامة : القارب فلموا تشبثوا بالشبكة فيمكننا ان نمسك بيرياها ونقطع القار ، فالبدار البدار الى هذه الوسيلة

فلم تتوقف هؤلاء الرجال المحصورون عن البدار الى هذه الواسطة الاخيرة للنجاة من الهلكة فتعلقوا بعرى الشبكة كما ارشدهم العلامة وكان يوسف متمسكا بيد في الشبكة وبالاخرى قطع حبال القارب فسقط عند ما كانت القفة تهوي مارقة الى الحضيض لاعاقة فلما تخلصت القفة من ثقل القارب تعالت في الفضاء مسافة ثلثائة قدم فهتف يوسف هتاف الفرح وقال - سيري باسم الله مجراك

دفقت الطلبة الركاب واحدث الخيل بالاهماج اما المصورة فقد صادفت ريحا شديدة فسقتهم واسرعت نحو اسكمة نحو افق الغرب . فكانت للسواح اكثر توفيق للمسير لانهم قد تمكنوا من الاختيار فوق راسها اما الطلبة فقد اضطروا ان يأخذوا طريق الشمال ويدوروا على اسفل المصة فطالت بهم الطريق وتأخر مسيرهم

وكانت الثلاثة الرفاق متمسكين بالشبكة وقد تيسر لهم ان يسدوا ثغر القفة

تعلقوا بها كأنها حبيب يعوم في الهواء

فما شعروا ان صاروا العصبة واذا بالعلامة يصيح . النهر النهر يا ايها الاحباء

نهر سعال لانهم نظروا امامهم على مسافة ميلين نهر سعال يجري في مسيل منعرج جداً فالشاطيء الاخر مرتفعة محصص وتربته محصبة كان مجا ماموناً من اتعاب التحدي والاداء ، ويصلح للسواح محلاً للنزول

قال فرعوس بقي علينا مسير ربع ساعة فنجو من اسواء عاقبة

اما لم يتيسر لهم ما كانوا يشعرون لان القبة كانت تنحدر شيئاً فشيئاً وهي فارغة حتى استوت على ارض كادت تخلو من كل نبات وهي حدورات طويلة وبساتين متحجرة ليس فيها الا بعض العليق وعشاب شوكية ييبسها حرارة الشمس

والمنطورة اقتحمت على الثرا وقفزت مراراً عديدة وكانت قفزاتهـا تقل قوة حتى علقت بعد قفرتها الاخيرة باطراف الشبكة في رؤوس اغصان شجرة الوبات وهي الشجرة الوحيدة في تلك البلاد العامرة

قال الصياد قد انتهى الامر

قال يوسف ولسنا بعيدين عن النهر الا مسافة مئة قدم

فقال هؤلاء السواح الثلاثة المكدودوا للحط على الارض وذهب العلامة ورفيقه الى جهة سعال وكان النهر يدوي دوياً مديداً . فلما بلغ فرعوس الى شاطئه عرف شلالات عويا فلم يجد قارباً على ضفته ولا ما فيه نسمة حياة

وكانت مياه النهر تنحدر من علو مئة قدم الى مسيل عرضه الفا قدم وليس لها دوي طنان فتجري من الشرق الى الغرب ويعترض مجراها رصيف صخور ممتدة من الشمال للجنوب وفي وسط الشلالات صخور متصمة باشكال غريبة كأنها اسماك حسية متحجرة

وكان عدم امكانهم مجاز هذه الوهدة من الامور الواضحة ومن ثم لم يتمالك كادي من ابداء امارة اليأس والقنوط

اما العلامة فرغوسن فلم ييأس بل شمّر على الفور يهتف هتاف النشاط والجرأة قائلاً: ثقا لم يزل لنا باب نجاة

قال يوسف: هذا كان املي بلباقتك ودرايتك وكان يوسف يثق بعلمه ثقة غير متزعزعة اما العلامة فكان قد شاهد العشب اليابس المكسي صفة النهر وخطر له على بال فكر اعدَّهُ الحيلة الوحيدة لنجاتهم من المهلكة. في الحال رجع برفيقيه الى القبة وقال لهم: ان بيننا وبين اولئك الاشقياء مسافة ساعة فاسرعوا بجمع كمية وافرة من هذا العشب اليابس فيلزمني منهُ على الاقل مئة ليرة

فسأله كادي: ما فائدته لنا

اجابه العلامة: ليس عندي غاز فاني احمل المصورة على جناح الريح بالهواء وللحالة هذه فاني اجوز النهر بقوة هواء سخن

عندها صاح كادي: عافاك الله يا خليلي صموئيل حقاً انك من كرام الرجال

فانكب يوسف وكادي على العمل وما مضت برهة الا وجمعا كديساً كبيرًا من العشب فحملوهُ تحت شجرة البوباب. وكان العلامة وقتئذٍ قد وسع ثغر القبة بشقهِ اياه في اسفلهِ واخرج من اللولب كل ما كان باقياً من اثار الإدروجين ثم كوّم كمية من العشب تحت الغطاء وجعل النار فيهِ

فامتلأت القبة في برهة وجيزة تنتفخ بالهواء الحار فيكفي من الحرارة مئة وثمانون درجة لتنقيص نصف ثقل الهواء الكائن في القبة ومن ثم شرعت المصورة تتخذ شكلها الكروي وكان العشب اليابس كثيرًا هنالك والعلامة

يحدث في اضرام النار والقبة تنتفخ وتتدوّر على مرأى العين

وكان مضى من الزمان ثلاثة ارباع الساعة . فظهرت حينئذٍ على مسافة ميلين للشمال الطلبة وعلا صجيجهم وصراخهم وسمعت دقة حوافر خيولهم المهجة

قال كادي : من الان الى عشرين دقيقة يصلون الى هنا

قال العلامة : الخشب الخشب يا يوسف فبعد عشر دقائق نصبح راكبي الريح في الفضاء .

قال يوسف : هاك يا سيدي

قال العلامة : فلنتمسكنَّ بالشبكة كما عملنا سابقا

قال يوسف : لا تخف يا معلم لا تخف

فما مضت عشر دقائق الّا واخذت القبة تميد مشيرة بميلها للصعود وكان الطلبة قد دنوا منهم حتى لم يعودوا بعيدين عنهم اكثر من خمس مئة خطوة

فصاح فرعوس تمسكا جيداً

اجاباهُ تمسكنا لا تخف

فدفع فرعوس برجله كمية من الخشب الى الموقد . وكانت القبة قد اخذت تمام انتفاخها بازدياد الحرارة فارتفعت الى الفضاء ماسّة اغصان الوتاب

فعندها صاح يوسف : فلنرحل . فاجابهُ الطلبة بطلقة بنادقهم فجاءت رصاصة في كتفهِ فثلمتهُ ثلماً خفيفاً . اما كادي فحمي واطلق قرابينتهُ بيدٍ واحدة فاصاب واحداً منهم فصرع على الثرا يتخبط بدمائهِ . وكانت المنصورة تسرع بالصعود والطلبة يتضورون ويولولون كيداً وغيظاً مما يفوق وصف الواصفين الى ان بلغت القبة في العلاء مسافة ثلثمائة قدم عن الارض وريح عاصفة تتقذف بها فوق مجرى النهر فلما بلغت الى ما فوق تلك اللجج وبينما كان العلامة ورفيقاهُ يتفرسون بلجة الميازيب المتموجة تحت اقدامهم شعروا بالقبة كأنها

تمايل وتميد بهم تمايلاً وميداً اوعبا قلوبهم وجعا وقلقاً لكن عناية الرحمن قد وفقت مسيرها الى خير للنهاية. فبعد عشر دقائق اخذت القبة بالهبوط شيئاً فشيئاً الى الشاطئ الآخر

وكان هناك نحو عشرة رجال عليهم ملابس افرنسية استولى عليهم ما لا يوصف من الحيرة والدهشة والرعب عند مشاهدتهم تلك القبة ترتمع في الفضا من جانب شاطئ النهر الايمن فلا يبعد انهم حالوها في اوّل وهلة حادثاً سماوياً اما رئيسهم وقائمقام البحرية ويوزباشي المدفعية كانوا عارفين من جرائد اوربا مشروع سياحة العلامة فرغوس اخوانه الجسور فما طال الحال حتى هدأ روعهم ووقفوا على حقيقة الواقع

وكانت القبة تمشي شيئاً فشيئاً وتهبط باولئك السواح الابطال وهم متمسكون بعرى الشبكة. انما لم يكن مؤكداً انهم يستطيعون على التخليص فمن ثم نزل الرجال الفرنسيس في النهر وتلقوا بين ايديهم الثلثة الرجال الانكليز عند ما كانت القبة نازلة في النهر على مسافة بعض باعات من شاطئ سنغال الايسر

فصاح القائمقام: ألست العلامة فرغوس

اجابهُ العلامة ورفيقاهُ بتمام الرواق والسكينة. بلى

فتناول الفرنسيس السوّاح واتوا بهم الى شاطئ النهر اما القبة فقد كان التفاخها من باب الصدف فوقعت في النهر وجرتها المياه كفقاعة كبيرة فمضت غريقة في شلالات غوينا

قال يوسف وهو يأسف عليها. مسكينة المنصورة مسكينة

اما العلامة فلم يتمالك عن البكاء ففتح ذراعيهِ وعانق رفيقيهِ وقد فاضت قلوبهم بحر السلوان والحبور

الفصل الثاني والاربعون

في الختام والتقرير والمآثر العرفية ومعسكر مدين ومدينة القديس لويس والبارجة الانكليزية وعودة السوّاح الى لندرة

ان الرجال الافرنسيين الذين وُجدوا على شاطئ النهر كان قد بعث بهم والي سنغال الى تلك الاطراف وكانوا اثنين من الضباط وهما القائمقام دي فراس والبيرقدار رودامل ورئيس عشرة وسبعة انفار من الجنود وكانوا منذ يومين متشاغلين في التفتيش على اوفق محل لاقامة معسكر في عويا ووافاهم على غير انتظارهم العلامة فرغوسن ومن معهُ

فلا حاجة الى وصف ما جرى من رسوم التهاني والمصافحة للثلاثة السواح فحقق الفرنسيس انفسهم انحدار ذاك السفر المهول وقد اصبحوا شهود عيان لصمويل فرغوسن

ومن ثمَّ قد رغب اليهم العلامة اولاً ان يحققوا تحقيقاً رسميا وصوله الى شلالات عويا

قال القائمقام دي فراس: ألا تستحسن جنابك وضع امضائك على صك الشهادة بواقعة سفرنا بل بلوغنا الى هنا

اجابهُ القائمقام: الامضاء وكرامة

فاتوا بالانكليز الى منزل وقتي اقاموهُ على شاطئ النهر فصادفوا هنالك السوّاح حسن الالتفات والاهتمام ومونة عزيزة وهناك سطر بالعبارات الآتية الشهادة المدروجة اليوم في سجلات شركة لندرة للجغرافية

« نحن المدونة اسماؤنا ذيله نشهد انا تاريخهِ شاهدنا في الملاء العلامة فرغوسن ورفيقيهِ ريشار كندي ويوسف ولصون واصلين الينا وهم متمسكون

سرى شكة قبة هوائية وان القبة المذكورة قد سقطت بالقرب ما على مسافة بعض خطوات في مجرى النهر وحملها المدير الى شلالات عوبا فهناك ابتلعتها الوهدة ولم يعد يرى لها اثر ولا عين . فشهادة بالواقع حررنا هذه الوثيقة وامضيناها مع المذكورين للمصادقة تحريرًا عند شلالات عوبا في ٢٩ ايار سنة ١٨٦٢)

كاتبة	كاتبة
فرغوسن صموئيل	دي براس قائمقام
ريشار كادي	مشاة البحرية
يوسف ولصون	رودامل بيرقدار السعية

من الانفار

فيلو	مايور
مليسيه	لورونا
رسكاليه	عوبليون
	تنال

فها قد انتهت سياحة العلامة فرغوس ورفيقيه الصديقين العجيبة الثالثة بشهادة من لا ترد شهادتهم وكانوا هناك برفقة حلاًّ في سهرة قبائل اوفر انساً من تلك التي اجتازوا بها ولها علاقات كثيرة مع المحلات الافرنسية

وكان وصولهم لسنمال يوم السبت الواقع في ٢٩ ايار . وفي ٢٧ منهُ وصلوا الى مخط العسكر في مدين الواقع على شاطئ النهر نحو الشمال

وهناك استقبلهم الضباط الافرنسيون بمزيد الترحاب والاعزاز وابدوا نحوهم واحسنات الضيافة على ما كان في مكنتهم . فتمكن العلامة ورفيقاه من السفر حالاً عب برهة وجيزة في بارجة يقال لها الباريليك وكانت تسير في نهر

سمال قاصدة مصة . وبعد خمسة عشر يوماً اي في ١٠ حزيران بلغوا الى سان لويس حيث استقبلهم الوالي استقبالاً باهراً . وقد كانوا استراحوا غاية الاستراحة من اتعابهم واهوالهم . اما يوسف فكان يجاوب من يسأله عن سياحته . ان سياحتنا اذل السياحات في رعب بالامور المهجة لا اشير عليه ان يباشر مثلها . لانها تمسي في اخر الامر مملة ولولا ما صادفناه من الخطوب في بحيرة شاد ونهر سمال لمتنا ضجرًا

وكانت بارجة انكليزية على اهبة السفر فركبوها وفي ٢٣ غرة حزيران بلغوا الى بورتسموث وفي اليوم التالي اقبلوا الى لندرة

فلا حاجة الى وصف الترحاب والاعزاز الذين استقبلتهم بهما الشركة الجغرافية الملوكية فان ذلك يفوق وصف الواصفين فسافر كادي في الحال الى ادمبورج ومعهُ قرابينهُ الشهيرة فاسرع الى خادمتهِ القديمة يخبرها عن وصولهِ بالسلامة

امّا العلامة فرغوسن ويوسف امينهُ فلم يزالا على احوالهما المعروفة الّا انهُ قد حدث فيهما تغيير لم يدريا بهِ وهو انهما قد ارتبطا مذ ذاك بحبل الصداقة المتين

ولم تكفّ جرائد اوربا عن نشر عبير الثناء الجميل على اولئك السوّاح الجريئي الشجاعة امّا جريدة الدالي تلغراف فقد امتدّت نحو ٣٧٧ الف نسخة يوم نشرت خلاصة سياحتهم

وقد خطب العلامة فرغوسن خطبةً انيقة في جلسة عمومية عقدتها الشركة الجغرافية الملوكية روى فيها قصة سياحتهِ في القبة الهوائية ونال لهُ ولرفيقيهِ نيشان الذهب المعد جائزةً لاشهر السياحات التي وجدت سنة ١٨٦٢

فاول ما حصل العلامة فرغوسن من نتائج سياحتهِ هو انهُ قد حقق

تحقيقًا راهنًا للحوادث والاكتشافات الجغرافية التي اتى بها برث وبرتون وسبيك وغيرهم

وكذلك قد قرب اليوم الذي نتمكن فيه من تحقيق اكتشافات العلامة فرعوس في الاصقاع الوسيعة الواقعة ما بين الدرجة الرابعة عشر من الطول والثالثة والثلاثين منه وذلك بناءً على اكتشافات السائحين الالمانيين اي سبيك وغرنت ودي هوكلين ومورتز وصعودهم الى ينابيع النيل ودخولهم اواسط افريقية وعليه لا يعود ذلك القسم الكبير من الكرة مجهولًا لدى ذوي المعارف كما كان في الايام السالفة لسوء حظ سكانه المنفصلين عن باقي بني آدم كأنهم ليسوا من جنسهم ولا اخوة لهم

فهرسة الكتاب